مختصر
السيرة النبوية
لابن هشام

موسوعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢)
دلائل نبوته وسيرته وخصائصه وشمائله وهديه وحقوقه وقبس من حديثه

مختصر

السيرة النبوية

لابن هشام

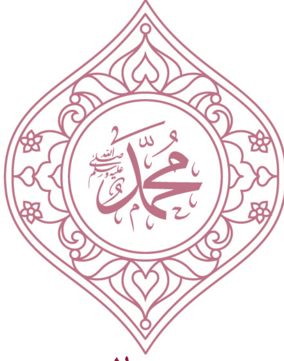
ابن هشام البصري
عبد الملك بن هشام بن أيوب
(ت ٢١٨هـ)





اختصره
أ.د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود

إهداء إلى
مَنْ غايتُهُ مُرافقةَ
مُحمّدٍ رسولِ اللّهِ ﷺ
في الجنّةِ



خصال الكمال والجلال في محمد رسول الله ﷺ

(إذا كان الواحدُ منا يشرفُ بواحدةٍ أو اثنتينِ من خصالِ الكمالِ والجلالِ فما ظنكَ بعظيمِ قدرِ محمد رسول الله ﷺ مَن اجتمعَت فيه كلُّ هذه الخصالِ: مِن فضيلةِ النبوةِ والرسالةِ، والخلَّةِ، والمحبةِ، والاصطفاءِ، والإسراءِ، والقربِ، والشفاعةِ، والوسيلةِ والفضيلةِ، والمقامِ المحمودِ، والبراقِ والمعراجِ، والبعثِ إلى الأحمرِ والأسودِ، والصلاةِ بالأنبياءِ، والشهادةِ بينَ الأنبياءِ والأممِ، وسيادةِ ولدِ آدمَ، ولواءِ الحمدِ، ورحمة للعالمين، وإعطاءِ الرضى والسؤل، والكوثرِ، وإتمامِ النعمةِ، والعفوِ عما تقدَّمَ وما تأخَّرَ، وشرحِ الصدرِ، ووضعِ الإصرِ، ورفعِ الذكرِ، وعزَّةِ النصرِ، والتأييدِ بالملائكةِ، وإيتاءِ الكتابِ والحكمةِ والسبعِ المثاني والقرآنِ العظيم، وصلاةِ الله تعالى والملائكةِ، والقَسَمِ باسمِه، وإجابةِ دعوتِه، وتكليمِ الجماداتِ والعجمِ، ونبعِ الماءِ مِن بينِ أصابعِه، وانشقاقِ القمرِ، والنصرِ بالرعبِ، وظلِّ الغمامِ، وتسبيحِ الحصى، والعصمةِ من الناسِ، إلى ما لا يحويه محتفلُ، ولا يحيطُ بعلمِه إلا مانحُه ذلك ومُفضِّلُه به، لا إله غيرُه).

[مختصر الشفا للقاضي عياض بهذه الموسوعة، المجلد الخامس، (ص51- 52) باختصار]



بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بموسوعة محمد رسول الله ﷺ

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا وحبيبِنا محمدٍ رسول الله ﷺ، وعلى آلِه وصحبِه، ومَن اقتفَى أثرَه وعملَ بهديِه واستنَّ بسنتِه، **أمَّا بعدُ:**

فتمتازُ هذه الموسوعةُ -التي استغرَقَ العملُ فيها نحوًا مِن عامينِ- بجمعِها لأهمِّ علومِ السيرةِ النبويةِ الشريفةِ وفنونِها في وعاءٍ واحدٍ، وانتقاءِ أفضلِ ما كتبَه أئمةُ سلفِنا الصالحِ وعلماؤهم في كل فنٍّ مِن فنونِها، مما لقيَ شهرةً وقبولًا لدى الأمةِ، وقد قمتُ باختصارِ هذه الكتبِ وتهذيبِها، نسألُ اللهَ الإخلاص والقبول.

وكان منهجي في اختصارِ كتبِ هذه الموسوعةِ أن تكونَ على أفضلِ الطبعاتِ المعتمدةِ لكلِّ كتابٍ، مع حذفِ الضعيفِ وما دونَه، والاستطراداتِ، وما أغنَى عنه غيرُه، أو كان مكرَّرًا سبقَ ذكرُه، وكذلك أسانيدُ الأحاديثِ إلا الصحابيَّ أو مَن دونَه مما يحتاجُ الكلامُ إليه، وقد حافظتُ على لفظِ المصنفِ وترتيبِه، فإن زدتُ في عنواناته شيئًا وضعتُه بين معقوفَينِ، وكذا ما كان مِن طبعةٍ أخرى غيرِ التي اعتمدتُها.

وكان هدفي مِن هذا المنهجِ تقريبَ سيرة النبي ﷺ وتيسيرَها؛ لنتعلَّمَ جميعًا علومَها وفنونَها من كتبِ علماءِ سلفِنا الصالحِ الأصيلةِ، لنحقِّقَ الاقتداءَ به ﷺ في عقيدتِه وعباداتِه ومعاملاتِه وأخلاقِه؛ فنسعدُ في الدنيا ونفوزُ بالآخرةِ.

وقد اقتصرتُ في الحاشيةِ على التخريجِ الموجزِ للأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ والآثارِ، وبيانِ غريبِ ألفاظها.

(*) هذا تعريف موجز بالموسوعة، وقد تقدَّم التعريف بها مفصَّلًا في صدر المجلد الأول.

وقد جاءَ هذا الإصدارُ الأوَّلُ مِن «**موسوعة محمد رسول الله ﷺ**» جامعًا لستةِ علومٍ مِن علومِ السيرةِ النبويةِ الشريفةِ وفنونِها في ستةِ مجلداتٍ، عبرَ اختصارِ ثمانيةِ كتبٍ، وهي على النحو التالي:

المجلد الأول: ١- في علم الدلائل [كتاب «دلائل النبوة» لأبي نعيم (ت٤٣٠هـ)]

المجلد الثاني: ٢- في علم السيرة النبوية [كتاب «السيرة النبوية» لابن هشام (ت٢١٨هـ)]

المجلد الثالث: ٣- في علم الخصائص [كتاب «غاية السُّول في خصائص الرسول» لابن الملقن(ت٨٠٤هـ)]

٤- في علم الشمائل، وفيه ثلاثة كتب، هي:

- [كتاب «شمائل النبي ﷺ» للترمذي (ت٢٧٩هـ)]

- [كتاب «محمد رسول الله ﷺ والحقوق والقيم والأخلاق وعلاج مشكلات العالم المعاصر»، لـ أ.د. أحمد بن عثمان المزيد]

المجلد الرابع: - [كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)]

المجلد الخامس: ٥- في علم حقوق النبي ﷺ: [كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)]

المجلد السادس: ٦- في علم الحديث النبوي الشريف: [كتاب «رياض الصالحين» للنووي (ت٦٧٦هـ)]

في علم السيرة النبوية

تعريفه:

يُعنى علمُ السيرة النبوية بذكرِ وقائعِ حياةِ النبيِّ ﷺ مِن مولدِه إلى وفاتِه.

أهميته:

سيرةُ محمدٍ رسولِ الله ﷺ هي تطبيقٌ لكتابِ الله تعالى وسنتِه ﷺ، فهي سجلٌ حافلٌ لكل تفاصيلِ حياتِه ﷺ: عقيدةً، وعبادةً، ومعاملةً، وأخلاقًا، سلمًا وحربًا، دعوةً وجهادًا، يسرًا وعسرًا، في بيته، وبين أصحابه ومع أعدائه، فيه الأسوةُ الحسنةُ لمن رام سياسةَ قومِه أو قام على شؤونِ بيتِه، صلَّى الله على صاحبِ هذه السيرةِ الشريفةِ، وآلِه وصحبِه وسلَّم.

ثمراته:

يقدِّمُ عِلْمُ السيرةِ للبشريةِ جمعاءَ نموذجًا يُحتذَى به في مكارمِ الأخلاقِ، ومظاهرِ الكمالِ الإنسانيِّ، ويقدِّمُ للمسلمِ الأسوةَ والقدوةَ التامةَ في حياتِه، والذي أُمِرنا بمحبتِه ﷺ فوقَ محبتِنا لأنفسِنا وأولادِنا والناسِ أجمعين، ويُوقِفنا على دعوةِ رسولِ الله محمدٍ ﷺ ومراحلِها وفقهِها، وتمثُّلِها في الحياةِ المعاصرةِ، ومِن معينِها نستقي الدروسَ التربويةَ النبويَّةَ في تعاملِه ﷺ مع صحابتِه خاصةً، والناسِ عامةً.

ترجمة ابن هشام (ت٢١٨هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ

اسمه ونسبه:

هو عبدُ الملك بنُ هشام بنِ أيوبَ، أبو محمدٍ الذهليُّ، السدوسيُّ - وقيل: الحميريُّ - المُعَافِرِيُّ، البصريُّ، نزيلُ مصرَ.

نشأته وطلبه للعلم:

بدأَ ابنُ هشام طلبَه للعلم في البصرةِ، ثم انتقَلَ منها إلى مصرَ، وتُوفِّي بها، وقد سَمِعَ ابنُ هشام «السير والمغازي لابن إسحاق» مِن زياد البكائيِّ صاحبِ ابنِ إسحاق، ومِن شيوخِه الإمامُ الشافعيُّ.

قال الدارقطنيُّ: عن المزني قال: «قَدِمَ علينا الشافعيُّ، وكان بمصرَ عبدُ الملك بنُ هشام صاحبُ (المغازي)، وكان علامةَ أهلِ مصرَ بالعربيةِ والشعرِ، فقيل له في المصيرِ إلى الشافعيِّ، فتَثاقَلَ، ثم ذَهَبَ إليه، فقال: ما ظننتُ أن الله يخلقُ مثلَ الشافعيِّ»[(١)].

وقال عنه ابنُ كثير: «أبو محمدٍ عبدُ الملك بنُ هشام، راوي السيرةِ، وإنما تُنسبُ إليه، فيقال: سيرةُ ابنِ هشام؛ لأنه هذَّبَها وزادَ فيها ونقصَ منها، وحرَّر أماكنَ واستدرَكَ أشياءَ، وقد كان إمامًا في اللغةِ والنحوِ والعربيةِ، وقد كان مقيمًا بمصرَ، وقد اجتمَعَ به الشافعيُّ حينَ ورَدَها وتناشدَا مِن أشعارِ العربِ أشياءَ كثيرةً»[(٢)].

وفاته: تُوفِّي ابنُ هشام في ١٣ ربيع الآخر، سنة (٢١٨هـ) بمصرَ[(٣)].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٤٢٩).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٣٠٨).
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٤٢٨)، وانظر: تاريخ ابن يونس المصري (٢/ ١٣٧).

التعريف بكتاب السيرة النبوية لابن هشام (ت٢١٨هـ)

أهميته:

يعدُّ كتابُ «السيرة النبوية» لابن هشام مختصرًا لكتابِ محمدِ بنِ إسحاقَ بنِ يسار (ت١٥٠هـ)، ويعتبرُ كتابُ ابنِ إسحاق مِن أهمِّ وأولِ الكتبِ المؤلَّفةِ في السيرةِ النبويةِ، ومؤلفُه إمامُ هذا الفنِّ بلا منازع، إلا أن كتابَه لم يصِلْنا كاملًا حتى الآن، وقد وُجِدَ مِن الكتابِ قطعةٌ، حققَّها د. محمد حميد الله، بعنوانِ: «المبتدأ والمبعث والمغازي»، وطُبعت بتحقيق آخر للدكتور: سهيل زكار، بعنوانِ «السيرة النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكير».

وقد تلقَّى أهلُ العلمِ كتابَ ابنِ إسحاقَ بالقبولِ والثناءِ، فقال ابنُ شهابٍ (ت١٢٤هـ) -وقد سُئِلَ عن مغازي ابنِ إسحاق-: هذا أعلمُ الناسِ، يعني ابنَ إسحاق[١].

وقال الشافعيُّ (ت٢٠٤هـ): مَن أرادَ أن يتبحَّرَ في المغازي فهو عيالٌ على محمدِ بنِ إسحاق[٢].

وقال ابنُ سعد (ت١٦٨هـ): كان ابنُ إسحاق أولَ مَن جمَعَ مغازي رسولِ الله ﷺ وألَّفَها[٣].

---

(١) تهذيب الكمال للمزي(٢٤/ ٤١٣).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٤٥٠).

(٣) السابق (٢٨/ ٤٣٦).

وقال ابنُ عدي (ت٣٦٥هـ): ولو لم يكن لابنِ إسحاق مِن الفضلِ إلا أنه صرَفَ الملوكَ عن كتبٍ لا يحصلُ منها شيءٌ، فصَرَفَ أشغالَهم حتى اشتغلوا بمغازي رسول الله ﷺ ومبتدأِ الخلق ومبعثِ النبي ﷺ، فهذه فضيلةٌ لابن إسحاقَ سبَقَ بها، ثم بعدَه صنَّفه قومٌ آخرون ولم يَبلغوا مبلغَ ابنِ إسحاقَ فيه[١].

وقال الذهبيُّ (ت٧٤٨هـ): قد كان في المغازي علامةً[٢].

وقد قام ابنُ هشام البصريُّ (ت٢١٨هـ) باختصارِ ما يتعلَّق بالنبيِّ ﷺ من كتابِ ابنِ إسحاقَ مهذَّبًا ومنقَّحًا ومضيفًا إليه، وسمَّاه: «السيرة النبوية»؛ فحفظ بذلك جزءًا مهمًّا مِن كتابِ ابنِ إسحاقَ المفقودِ.

وقد تلقَّى العلماءُ كتابَ ابنِ هشام بالحفاوةِ والإيثارِ، فتناولوه قرنًا بعدَ قرنٍ بالشرحِ والاختصارِ والتعليقِ والحواشي، ومِن أهمِّ هذه الأعمالِ:

- الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ).

- المواهب اللدُنِّيَّة بالمنح المحمدية، للعلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني الشافعي المصري (ت ٩٢٣هـ).

- وقد اختصَرَ الإمامُ الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوهاب (ت:١٢٠٦هـ) كتاب «السيرة النبوية» لابن هشام في كتابه: «مختصر سيرة الرسول ﷺ».

---

(١) الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (٧/ ٢٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٣٧).

ترتيبه ومنهجه:

يذكر ابنُ هشام في مقدمةِ كتابِه معالمَ منهجِه حيث يقولُ: «وأنا إن شاء الله مبتدئٌ هذا الكتابَ بذكرِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ، ومَن وَلَدَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مِن ولدِه، وأولادِهم لأصلابِهم، الأولَ فالأولَ، مِن إسماعيلَ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وما يعرضُ مِن حديثِهم، وتاركٌ ذكرَ غيرِهم مِن ولدِ إسماعيلَ، على هذه الجهةِ للاختصارِ، إلى حديثِ سيرةِ رسولِ الله ﷺ، وتاركٌ بعضَ ما ذكرَه ابنُ إسحاقَ في هذا الكتابِ، ممَّا ليس لرسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فيه ذكرٌ، ولا نزَلَ فيه مِن القرآنِ شيءٌ، وليس سببًا لشيءٍ مِن هذا الكتابِ، ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه؛ لما ذكرتُ مِن الاختصارِ، وأشعارًا ذكرَها لم أرَ أحدًا مِن أهلِ العلم بالشعرِ يَعرِفها، وأشياءَ بعضها يَشْنُعُ الحديثُ به، وبعضٌ يَسُوءُ بعضَ الناسِ ذكرُه، وبعضٌ لم يُقِرَّ لنا البكائيُّ بروايتِه، ومستقصٍ -إن شاء الله تعالى- ما سِوَى ذلك منه بمبلغِ الروايةِ له، والعلمِ به»[1].

قلتُ: وقد راعيتُ في اختصارِ «**السيرة النبوية**» لابنِ هشام: الإيجازَ غيرَ المخلِّ، فحذَفْتُ ما لا يتعلَّقُ بسيرةِ النبيِّ ﷺ ولا يؤثرُ على السياقِ العام، كإسلامِ بعضِ الصحابةِ، وتتبعَه للأعلامِ وحصرَهم، وكذا لم أذكُرْ مِن الغزواتِ والسرايا إلا أهمَّها وأجلَّها.

---

(١) (ص١٩).

الطبعة المعتمدة في هذا المختصر:

طُبِعَ كتابُ ابنِ هشام عدةَ طبعاتٍ، مِن أهمِّها: طبعة مكتبة الحلبي بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي، وقد اعتمدوا على أربع مطبوعات: مطبوعة بولاق (١٢٥٩هـ)، ومطبوعة ألمانيا (١٢٧٦هـ)، ومطبوعة المطبعة الخيرية بمصر (١٣٢٩هـ)، ومطبوعة المكتبة الجمالية بمصر (١٣٣٢هـ)، كما اعتمدوا على أربع نسخ خطية محفوظة بدار الكتب المصرية، إحداها كاملة، وهذه الطبعة هي التي اعتمدنا عليها في هذا المختصر.

❷ موســـوعة محمـــــد رســـول الله ﷺ

دلائل نبوته وسيرته وخصائصه وشمائله وهديه وحقوقه وقبس من حديثه

مختصر السيرة النبوية لابن هشام

لابن هشام البصري عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت ٢١٨هـ)

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية – جامعة الملك سعود

[القسم الأول: العهد المكي]

[أولا: قبل الرسالة والنبوة]

١- ذِكرُ سرد النسب الزكيِّ

قال أبو محمدٍ عبدُ الملك بنُ هشام النحويُّ: هذا كتابُ سيرةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، محمدِ بنِ عبدِ الله بن عبدِ المطلب، واسمُ عبد المطلب: شيبةُ بنُ هاشم، واسمُ هاشمٍ: عمرو بن عبد مَناف، واسم عبدِ مناف: المُغيرة بن قُصي، واسم قصي: زيدُ بن كِلاب بن مُرَّةَ بن كعب بن لُؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضْر بن كِنانةَ بن خُزيمةَ بن مُدرِكَة، واسم مدركةَ: عامر بن إلياسَ بن مُضَر بن نِزار بن مَعْد بن عدنانَ.

وأنا إن شاء الله مبتدئٌ هذا الكتابَ بذكرِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ، ومَن وَلَدَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مِن ولدِه، وأولادِهم لأصلابِهم، الأولَ فالأولَ، مِن إسماعيلَ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وما يعرِضُ مِن حديثِهم، وتاركٌ ذكرَ غيرِهم مِن ولدِ إسماعيلَ، على هذه الجهةِ للاختصارِ، إلى حديثِ سيرةِ رسولِ الله ﷺ، وتاركٌ بعضَ ما ذكرَه ابنُ إسحاقَ في هذا الكتابِ، ممَّا ليس لرسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فيه ذكرٌ، ولا نزَلَ فيه مِن القرآنِ شيءٌ، وليس سببًا لشيءٍ مِن هذا الكتابِ، ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه؛ لما ذكرتُ مِن الاختصارِ، وأشعارًا ذكرَها لم أرَ أحدًا مِن أهلِ العلمِ بالشعرِ يَعرِفها، وأشياءَ بعضها يَشْنُعُ الحديثُ به، وبعضٌ يَسُوءُ بعضَ الناسِ ذكرُه، وبعضٌ لم يُقِرَّ لنا البكائيُّ بروايتِه، ومستقصٍ -إن شاء الله تعالى- ما سِوَى ذلك منه بمبلغِ الروايةِ له، والعلمِ به

٢- ذِكرُ نذر عبد المطلب ذبحَ ولدِه

كان عبدُ المطلب بن هاشم -فيما يزعُمون والله أعلم- قد نذر حين لقِي من قريش ما لقيَ عند حفر زمزمَ: لئن وُلِدَ له عشَرةُ نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، ليَنحرنَّ أحدَهم لله عند الكعبةِ.

فلما تَوافى بنوه عشرةً، وعرَف أنهم سيمنعونه، جَمَعهم ثم أخبرَهم بنذرِه، ودعاهم إلى الوفاءِ لله بذلك، فأطاعوهُ وقالوا: كيف نصنعُ؟ قال: ليأخذ كُلُّ رجل منكم قِدْحًا ثم يكتبَ فيه اسمَه، ثم ائتوني.

ففعَلوا، ثم أتوه، فدخل بهم على هُبَل في جوفِ الكعبة، وكان هُبَل على بئر في جَوفِ الكعبة، وكانت تلك البئرُ هي التي يُجمع فيها ما يُهْدَى للكعبة.

فقال عبدُ المطلب لصاحب القِداح: اضرِبْ على بَنِيَّ هؤلاء بقِداحهم هذه -وأخبرَه بنذره الذي نذرَ- فأعطاه كُلُّ رجل منهم قِدْحَه الذي فيه اسمُه، وكان عبدُ الله بنُ عبد المطلب أصغرَ بني أبيه.

قال ابنُ إسحاق: وكان عبدُ الله -فيما يزعمون- أحبَّ ولدِ عبد المطلب إليه، فكان عبدُ المطلبِ يرى أن السهمَ إذا أخطأهُ فقد أَشْوَى[(١)]، وهو أبو رسولِ الله ﷺ.

فلما أخذ صاحبُ القِداحِ القداحَ ليَضربَ بها، قام عبدُ المطلب عند هُبَل يدعو الله، ثم ضرب صاحِبُ القداح، فخرج القِدْحُ على عبدِ الله، فأخذه عبدُ المطلب بيده وأخذ الشفْرَةَ، ثم أقبل به إلى إسافَ ونائلةَ ليذبَحَهُ، فقامت إليه قريشٌ من أنديتِها، فقالوا: ماذا تُريد يا عبدَ المطلب؟

---

(١) أَشْوَى: أبقى.

قال: أذبَحُه.

فقالت له قُريش وبنوه: والله لا تذبَحُه أبدًا حتى تُعذرَ فيه، لئن فعلتَ هذا لا يزالُ الرجل يأتي بابنه حتى يذبَحَه، فما بقاءُ الناسِ على هذا؟!

وقال له المُغيرةُ بنُ عبدِ الله بن عمرو بن مَخزومِ بن يَقَظَةَ، وكان عبدُ الله ابنُ أخت القوم: والله لا تذبحه أبدًا حتى تُعذرَ فيه، فإن كان فداؤُه بأموالِنا فديناه.

وقالت له قريشٌ وبنوه: لا تفعلْ، وانطلقْ به إلى الحجازِ، فإن به عرَّافة لها تابعٌ، فسلْها، ثم أنت على رأسِ أمرِك، إن أمرَتْك بذبحِه ذبحتَه، وإن أمرَتْك بأمرٍ لك وله فيه فَرَجٌ قبلته.

فانطلَقوا حتى قدِموا المدينةَ، فوجدوها -فيما يزعمون- بخَيبرَ، فركبوا حتى جاءوها، فسألوها، وقَصَّ عليها عبدُ المطلب خبرَه وخبرَ ابنِه، وما أراد به ونذْرَه فيه، فقالت لهم: ارجِعوا عنِّي اليومَ حتى يأتِيَني تابعي فأسألُه.

فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها، قامَ عبدُ المطلبِ يدعو الله، ثم غَدَوا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبرُ، كم الديةُ فيكم؟ قالوا: عشرٌ من الإبلِ، وكانت كذلك.

قالت: فارجعوا إلى بلادِكم، ثم قرِّبوا صاحبَكُم، وقربوا عشرًا من الإبلِ، ثم اضرِبوا عليها وعليه بالقِداحِ، فإن خرجت على صاحبِكم فزيدوا من الإبلِ حتى يَرضى ربُّكم، وإن خرجَت على الإبلِ فانحَروها عنه، فقد رضي ربُّكم، ونجا صاحبُكُم.

فخرجوا حتى قدِموا مكَّةَ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمرِ، قام عبدُ المطلبِ يدعو اللهَ، ثم قرَّبوا عبدَ الله وعشرًا من الإبلِ، وعبدُ المطلب قائمٌ عند هُبَلَ يدعو اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ثم ضربوا فخرج القِدحُ على عبدِ الله.

فزادوا عشرًا من الإبلِ؛ فبلغت الإبلُ عشرين، وقام عبدُ المطلب يدعو اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ثم ضَربوا فخرجَ القِدحُ على عبدِ الله.

فزادوا عشرًا من الإبلِ؛ فبلغت الإبلُ ثلاثين، وقام عبدُ المطلب يدعو اللهَ، ثم ضَربوا، فخرجَ القِدح على عبدِ الله.

فزادوا عشرًا من الإبلِ؛ فبلغت الإبلُ أربعين، وقام عبدُ المطَّلب يدعو الله، ثم ضَربوا، فخرج القِدحُ على عبد الله.

فزادوا عشرًا من الإبلِ؛ فبلغت الإبلُ خمسين، وقام عبدُ المطلب يدعو اللهَ، ثم ضربوا فخرجَ القِدحُ على عبدِ الله.

فزادوا عشرًا من الإبل؛ فبلغت الإبلُ ستين، وقام عبد المطلب يدعو اللهَ، ثم ضربوا فخرجَ القِدحُ على عبدِ الله.

فزادوا عشرًا من الإبل؛ فبلغت الإبلُ سبعين، وقام عبدُ المطلبِ يدعو الله، ثم ضربوا فخرجَ القدحُ على عبدِ الله.

فزادوا عشرًا من الإبل؛ فبلغت الإبلُ ثمانين، وقام عبدُ المطلبِ يدعو الله، ثم ضربوا، فخرجَ القِدحُ على عبد الله.

فزادوا عشرًا من الإبلِ؛ فبلغت الإبل تسعين، وقام عبدُ المطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرجَ القِدحُ على عبدِ الله.

فزادوا عشرًا من الإبل، فبلغت الإبل مئةً، وقامَ عبدُ المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرجَ القِدحُ على الإبل؛ فقالت قريشٌ ومن حَضَرَ: قد انتهى رضا ربِّك يا عبدَ المطلب.

فزعموا أن عبدَ المطلب قال: لا والله، حتى أضربَ عليها ثلاث مراتٍ، فضربوا على عبدِ الله وعلى الإبلِ، وقام عبدُ المطلبِ يدعو اللهَ، فخرج القِدحُ على الإبلِ، ثم عادوا الثانيةَ، وعبد المطلب قائمٌ يدعو الله، فضربوا، فخرج القِدحُ على الإبلِ، ثم عادوا الثالثةَ، وعبدُ المطلب قائم يدعو الله، فضربوا، فخرج القِدح على الإبلِ؛ فنُحِرَت، ثم تُرِكت لا يُصدُّ عنها إنسانٌ ولا يُمنعُ.

٣- زواجُ عبدِ الله من آمنةَ بنتِ وهب

خرجَ عبدُ المطلبِ بعبدِ الله حتى أتى به وهبَ بن عبدِ مَناف بن زهرةَ بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤيٍّ بن غالب بن فِهر، وهو يومئذ سيِّدُ بني زهرةَ نسبًا وشرفًا، فزوجه ابنته آمنةَ بنتَ وهبٍ، وهي يومئذ أفضلُ امرأة في قريش نسبًا ومَوضعًا.

٤- موتُ عبدِ الله

ثم لم يلبث عبدُ الله بنُ عبدِ المطلب أبو رسولِ الله ﷺ أنْ هلكَ وأمُّ رسولِ الله ﷺ حاملٌ به.

٥- ولادةُ رسولِ الله ﷺ ورضاعتُه

قال ابن إسحاق: وُلدَ رسولُ الله ﷺ يومَ الاثنين، لاثنتي عشْرَةَ ليلةً خَلَت من شهرِ ربيعِ الأول، عامَ الفيلِ.

قال ابن إسحاق: فلما وضعَتهُ أمُّهُ ﷺ، أرسَلَت إلى جدِّه عبدِ المطلب: أنه قد وُلدَ لك غلامٌ، فأتِه فانظر إليه، فأتاه فنظرَ إليه، وحدَّثته بما رأت حين حملت به، وما قِيل لها فيه، وما أُمرت به أن تُسمِّيَه.

فيزعُمون أن عبدَ المطلبِ أخذه، فدخلَ به الكعبةَ، فقامَ يدعو الله، ويشكرُ له ما أعطاهُ، ثم خرجَ به إلى أمه فدفعَهُ إليها.

والتمس لرسولِ الله ﷺ الرُّضَعاءَ، فاستَرضَع له امرأةً من بني سعدِ بن بكرٍ، يقال لها: حليمةُ ابنة أبي ذُؤيب.

٦- نسبُ أبيه ﷺ في الرَّضاع:

واسمُ أبيه الذي أرضعهُ ﷺ: الحارثُ بن عبد العُزَّى بن رفاعة بن مَلَّانَ بن ناصرةَ بن فُصيَّة بن نصرِ بن سعد بن بكرِ بن هوازنَ.

٧- إخوتُه ﷺ من الرَّضاع:

قال ابنُ إسحاق: وإخوتُه من الرضاعةِ: عبدُ الله بن الحارث، وأُنيسةُ بنت الحارث، وحُذافةُ بنتُ الحارث وهي الشيماءُ، غلب ذلك على اسمِها فلا تُعرفُ في قومها إلا به، وهم لحليمةَ بنتِ أبي ذُؤيبٍ عبدِ الله بن الحارثِ، أمِّ رسول الله ﷺ.

٨- حديثُ حليمةَ عما رأَتهُ من الخيرِ بعد تَسلُّمها له ﷺ

قال ابنُ إسحاق: عن عبدِ الله بن جعفر بنِ أبي طالب، أو عمن حدَّثه عنه قال: كانت حليمةُ بنت أبي ذُؤيبٍ السعديةُ -أمُّ رسول الله ﷺ التي أرضعتهُ- تُحدِّث: أنها خرجت من بلدِها مع زوجِها، وابنٍ لها صغيرٍ تُرضعه في نِسوةٍ من بني سعد بن بكرٍ، تلتمس الرُّضعاءَ، قالت: وذلك في سنةٍ شهباءَ، لم تُبقِ لنا شيئًا.

قالت: فخرجتُ على أتانٍ لي قَمْراء[(١)]، معنا شارفٌ[(٢)] لنا، والله ما تبِضُّ[(٣)] بقطرةٍ، وما ننام ليلنا أجمعَ من صبيِّنا الذي معنا، من بكائِه من الجوعِ، ما في ثَديَيَّ

---

(١) قَمْراء: بيضاء.

(٢) الشَّارِف: الناقة المسنة.

(٣) ما تَبِضُّ: ما تنشغ ولا ترشح.

ما يُغنيه، وما في شارِفنا ما يُغدِّيه، ولكنا كنا نرجو الغيثَ والفرجَ؛ فخرجتُ على أتاني تلك فلقد أذَمَّت[١] بالرَّكبِ حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفًا وعَجَفًا[٢]، حتى قدمنا مكة نلتمسُ الرضعاءَ، فما منا امرأةٌ إلا وقد عُرِضَ عليها رسولُ الله ﷺ فتأباهُ إذا قِيل لها: إنه يتيمٌ؛ وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروفَ من أبي الصبيِّ، فكُنا نقول: يتيمٌ! وما عسى أن تصنع أمُّه وجَدُّه! فكنا نكرهُهُ لذلك، فما بَقِيت امرأةٌ قدِمَت معي إلا أخذَت رضيعًا، غيري.

فلما أجمعنا الانطلاقَ قُلتُ لصاحبي: والله إني لأكرَهُ أن أرجعَ من بين صواحِبي ولم آخُذ رضيعًا، والله لأذهبَنَّ إلى ذلك اليتيمِ فلآخذنَّه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعلَ لنا فيه بركةً.

قالت: فذهبتُ إليه فأخذتُه، وما حملني على أخذِه إلا أني لم أجد غيرَه.

قالت: فلما أخذتُه، رجَعتُ به إلى رحلي، فلما وضعتُه في حِجري أقبل عليه ثدياي بما شاءَ من لبنٍ، فشرِبَ حتى روي، وشربَ معه أخوه حتى رُوي، ثم ناما، وما كنا ننامُ معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارِفِنا تلك، فإذا إنها لحافلٌ، فحَلَبَ منها ما شربَ، وشرِبْتُ معه حتى انتهينا ريًّا وشبعًا، فبتنا بخيرِ ليلةٍ.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلَّمي والله يا حليمةُ، لقد أخذتِ نسمةً مباركةً، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك.

قالت: ثم خرجنا وركبتُ أنا أتاني، وحملتُه عليها معي، فوالله لَقَطَعَت بالرَّكبِ ما يقدرُ عليها شيءٌ من حُمُرهم، حتى إن صواحِبي ليقُلن لي: يا ابنةَ أبي

(١) أَذَمَّت: تأخرت.

(٢) العَجَف: الهزال.

ذؤيب، ويحَك! اربَعي علينا[١]، أليست هذه أتانُك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهنَّ: بلى والله، إنها لهيَ هِيَ، فيقلن: والله إن لها لشأنًا.

قالت: ثم قدِمنا منازلنا من بلادِ بني سَعدٍ، وما أعلم أرضًا من أرضِ الله أجدبَ منها، فكانت غَنمي تروحُ عليَّ حين قدِمنا به معنا شباعًا لُبَّنًا، فنحلِب ونشربُ، وما يحلب إنسانٌ قطرةَ لبنٍ، ولا يجدُها في ضرعٍ، حتى كان الحاضرون من قومِنا يقولون لرُعيانِهم: ويلَكُم اسرحوا حيث يسرحُ راعي بنتِ أبي ذؤيب، فتروحُ أغنامُهم جياعًا ما تَبِضُّ بقطرةِ لبنٍ، وتروح غنمي شباعًا لُبَّنًا.

فلم نزل نتعرَّفُ من الله الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاهُ وفصلْتُه، وكان يشِبُّ شبابًا لا يشبُّه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جَفْرًا[٢].

قالت: فقدِمنا به على أُمِّه ونحن أحرصُ شيء على مُكثِه فينا، لِما كنا نرى من بركتِه؛ فكلَّمنا أمَّه وقلت لها: لو تركتِ بُنَيَّ عندي حتى يَغلُظَ، فإني أخشى عليه وبأ مكةَ، قالت: فلم نَزَل بها حتى رَدَّته معنا.

٩- حديث المَلكين اللذين شقَّا بطنَه ﷺ

قالت: فرجعنا به، فوالله إنه بعد مَقدِمنا به بأشهُرٍ مع أخيه لفي بَهْمٍ[٣] لنا خلفَ بيوتِنا، إذ أتانا أخوه يشتَدُّ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القُرشيُّ قد أخذَهُ رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأضجعاهُ، فشقَّا بطنَهُ، فهما يَسوطانِه[٤].

---

(١) اربَعِي: أقيمي وانتظري.

(٢) جَفْرًا: غليظًا شديدًا.

(٣) بَهْم: جمع بهيمة، وهي أولاد الضأن.

(٤) يَسوطانه: أي يدخلان يديهما في بطنه.

قالت: فخرجتُ أنا وأبوه نحوه، فَوَجَدناه قائمًا مُنتقِعًا وجهُه. قالت: فالتزمتُه والتزمَهُ أبوه، فقلنا له: ما لك يا بُني؟

قال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بِيضٌ، فأَضجعاني، وشقَّا بطنِي، فالتمسَا فيه شيئًا لا أدري ما هو؟! قالت: فرجَعنا به إلى خِبائِنا.

١٠- رجوع حليمةَ به ﷺ إلى أُمِّه

قالت: وقال لي أبوه: يا حليمةُ، لقد خشِيتُ أن يكون هذا الغلامُ قد أُصيبَ فألحِقيه بأهله قبل أن يظهرَ ذلك به، قالت: فاحتَملناه، فقدِمنا به على أُمِّه، فقالت: ما أقدَمَكِ به يا ظِئرُ[١] وقد كنتِ حريصةً عليه، وعلى مُكثِه عندك؟ قالت: فقلت: قد بلغ الله بابني وقَضيتُ الذي عليَّ، وتخوَّفت الأحداثَ عليه، فأدَّيته إليك كما تُحبِّين، قالت: ما هذا شأنُك؟! فاصدقيني خبرَك. قالت: فلم تدعني حتى أخبرتُها. قالت: أفتَخوَّفت عليه الشيطانَ؟ قالت: قلت: نعم. قالت: كلا، والله ما للشيطانِ عليه من سبيلٍ، وإن لِبُنَيَّ لشأنًا، أفلا أخبرُك خبرَه؟ قالت: قلت: بلى. قالت: رأيتُ حين حمَلت به، أنه خَرَجَ مني نورٌ أضاءَ لي قصورَ بُصْرَى[٢] من أرض الشأمِ، ثم حملت به، فوالله ما رأيتُ من حمْلٍ قط كان أخفَّ عليَّ ولا أيسرَ منه، ووقع حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه بالأرض، رافعٌ رأسَه إلى السماءِ، دعيه عنك وانطَلِقي راشدةً.

١١- هو والأنبياءُ قبلَه رَعَوا الغنمَ

قال ابن إسحاقَ: وكان رسولُ الله ﷺ يقول: «**ما من نبيٍّ إلا وقد رعى الغنمَ**». قيل: وأنت يا رسولَ الله؟ قال: «**وأنا**».

---

(١) الظِّئر: المرضعة.
(٢) بُصْرَى: مدينة بالقرب من دمشق بالشام.

١٢- اعتزازُه ﷺ بقُرشيَّته واسترضاعِه في بني سعدٍ

قال ابنُ إسحاق: وكان رسولُ الله ﷺ يقولُ لأصحابِه: «**أنا أعربُكُم؛ أنا قرشيٌّ، واستُرضِعتُ في بني سعدِ بن بكرٍ**».

١٣- وفاة آمنةَ وحالُ رسولِ الله ﷺ مع جدِّه عبدِ المطلب بعدها

قال ابنُ إسحاق: وكان رسولُ الله ﷺ مع أُمِّه آمنةَ بنت وهب، وجدِّه عبدِ المطلب بن هاشمٍ في كلاءة الله وحفظِه، يُنبته الله نباتًا حسنًا لما يريدُ به من كرامته.

حدَّثني عبد الله بن أبي بكرِ بن محمدِ بن عمرو بن حزمٍ: أن أُمَّ رسولِ الله ﷺ آمنةَ تُوفِّيت ورسولُ الله ﷺ ابنُ ستِّ سنين بالأبواءِ، بين مكَّةَ والمدينةِ، كانت قد قدِمَت به على أخوالِه من بني عَديِّ بن النجارِ، تُزيرُه إيَّاهم، فماتت وهي راجعةٌ به إلى مكَّةَ.

قال ابنُ إسحاق: فكان رسولُ الله ﷺ مع جدِّه عبدِ المطَّلب بن هاشم، وكان يُوضَع لعبدِ المطلب فِراشٌ في ظلِّ الكعبة، فكان بَنوه يَجلسون حولَ فِراشه ذلك حتى يخرجَ إليه، لا يجلسُ عليه أحدٌ من بنيه إجلالًا له، قال: فكان رسولُ الله ﷺ يأتي وهو غلامٌ جَفرٌ، حتى يجلس عليه، فيأخذَه أعمامُه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبدُ المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دَعوا ابني، فوالله إن له لشأنًا، ثم يُجلِسُه معه على الفِراشِ، ويَمسحُ ظهرَه بيده، ويَسُرُّه ما يراه يصنعُ.

١٤- وفاةُ عبدِ المطلب

فلمَّا بلغَ رسولُ الله ﷺ ثماني سنين هلكَ عبدُ المطَّلب بن هاشم، وذلك بعد الفيلِ بثماني سنين.

١٥- ولايةُ العبَّاس على سِقاية زمزمَ

قال ابنُ إسحاق: فلما هلك عبدُ المطلبِ بن هاشم وَلِيَ زمزمَ والسقايةَ عليها بعده العباسُ بنُ عبدِ المطلب، وهو يومئذٍ من أحدثِ إخوتِه سنًّا، فلم تزلْ إليه حتى قام الإسلامُ وهي بيدِه، فأقرَّها رسولُ الله ﷺ له على ما مضى من وِلايتِه، فهي إلى آلِ العباسِ، بولاية العباسِ إيَّاها.

١٦- كفالةُ أبي طالبٍ لرسولِ الله ﷺ

فكان رسولُ الله ﷺ بعد عبدِ المطلب مع عمِّه أبي طالب، وكان عبدُ المطلب -فيما يَزعمون- يوصي به عمَّه أبا طالبٍ؛ وذلك لأنَّ عبدَ الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالبٍ أخوان لأبٍ وأمٍّ.

١٧- نزولُ أبي طالبٍ ورسولِ الله ﷺ ببَحيْرَى

قال ابنُ إسحاق: ثم إنَّ أبا طالب خَرَجَ في ركبٍ تاجرًا إلى الشأم، فلما تهيَّأ للرحيلِ، وأجمع المَسير صب به[١] رسولُ الله ﷺ -فيما يَزعمون- فَرقَّ له أبو طالبٍ وقال: والله لأخرجنَّ به معي، ولا يُفارقُني، ولا أفارقُه أبدًا، أو كما قال.

فخرج به معه فلمَّا نَزَلَ الركبُ بُصرى من أرضِ الشأم، وبها راهبٌ يُقال له: بَحيرى في صومعةٍ له، وكان إليه عِلمُ أهل النصرانيةِ، ولم يزل في تلك الصومعةِ منذ قط[٢] راهبٌ، إليه يصير علمُهم عن كتابٍ فيها -فيما يزعمون- يتوارثونَه كابرًا عن كابرٍ.

---

(١) صب به: مال إليه.
(٢) منذ قَطُّ: أي منذ دهر.

فلما نزلوا ذلك العام ببَحيرى وكانوا كثيرًا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلِّمهم ولا يعرضُ لهم حتى كان ذلك العامُ، فلما نزلوا به قريبًا من صومعتِه صنعَ لهم طعامًا كثيرًا، وذلك -فيما يزعمون- عن شيء رآه وهو في صومَعتِه، يَزعمون أنَّه رأى رسولَ الله ﷺ -وهو في صومعتِه- في الركبِ حين أقبَلوا، وغَمامةٌ تُظلُّه من بين القوم.

قال: ثم أقبَلوا، فنزلوا في ظِلِّ شجرةٍ قريبًا منه، فنظر إلى الغمامةِ حين أظلَّت الشجرةَ، وتَهَصَّرت[1] أغصانُ الشجرةِ على رسولِ الله ﷺ حتى استظلَّ تحتها، فلَمَّا رأى ذلك بَحيرى نزل من صومعتِه، ثم أرسلَ إليهم، فقال: إنِّي قد صنعتُ لكم طعامًا يا معشرَ قريشٍ، فأنا أحِبُّ أن تحضُروا كلُّكم، صغيرُكم وكبيرُكم وعبدُكم وحُرُّكم.

فقال له رجل منهم: والله يا بَحيرى إن لك لشأنًا اليومَ، فما كنت تصنعُ هذا بنا، وقد كنَّا نمر بك كثيرًا، فما شأنُك اليوم؟ قال له بَحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيفٌ، وقد أحببتُ أن أكرمكم وأصنعَ لكم طعامًا فتأكلوا منه كلُّكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلَّف رسولُ الله ﷺ من بين القومِ، لحداثَةِ سِنِّه، في رحال القوم تحت الشجرةِ، فلما نظر بَحيرى في القومِ لم يرَ الصِّفةَ التي يعرِف ويجد عنده، فقال: يا معشرَ قُريشٍ، لا يتخلَّفنَّ أحدٌ منكم عن طعامي، قالوا له: يا بَحيرى، ما تخلفَّ عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيَك إلا غلامٌ، وهو أحدثُ القومِ سِنًّا، فتخلف في رحالِهم.

---

(١) تَهَصَّرت: مالت وتدلت.

فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليَحضُر هذا الطعامَ معكم، قال: فقال رجلٌ من قُريشٍ مع القومِ: واللاتِ والعُزَّى، إن كان للُؤْمٌ بنا أن يتخلفَ ابنُ عبدِ الله بن عبدِ المطَّلب عن طعام مِن بيننا، ثم قام إليه فاحتضَنهُ وأجلَسه مع القومِ.

فلما رآه بَحيرى جعل يلحَظُه لحظًا شديدًا وينظرُ إلى أشياءَ من جسدِه، قد كان يجدُها عندَه من صفتِه، حتى إذا فرغَ القومُ من طعامِهم وتفرَّقوا، قام إليه بَحيرى، فقال له: يا غلامُ، أسألك بحق اللاتِ والعُزَّى إلا ما أخبرتني عما أسألُك عنه، وإنما قال له بَحيرى ذلك، لأَنَّه سمع قومَه يَحلفون بهما.

فزعموا أن رسولَ الله ﷺ قال له: لا تسألني باللَّات والعُزَّى، فوالله ما أبغضتُ شيئًا قطُّ بُغضَهما، فقال له بَحيرى: فبالله إلا ما أخبرتَني عما أسألُك عنه، فقال له: سلْني عمَّا بدا لك.

فجعل يسألُه عن أشياءَ من حاله في نومِه وهيئتِه وأمورِه، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يُخبره، فيُوافقُ ذلك ما عند بَحيرى من صفتِه، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتمَ النبوةِ بين كِتفيه على موضِعه من صفتِه التي عندَه.

قال ابنُ إسحاق: فلمَّا فرغَ، أقبل على عمِّه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلامُ منك؟ قال: ابني. قال له بَحيرى: ما هو بابنِك، وما ينبغي لهذا الغلامِ أن يكون أبوهُ حيًّا، قال: فإنه ابنُ أخي، قال: فما فعل أبوهُ؟ قال: مات وأُمُّه حُبلى به، قال: صدَقتَ، فارجعْ بابن أخيك إلى بلدِه، واحْذَرْ عليه يهودَ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليَبْغُنَّه شرًّا، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ، فأسرِع به إلى بلادِه.

فخرج به عمُّه أبو طالبٍ سريعًا حتى أقدمه مكَّةَ حين فرغ من تِجارتِه بالشأم.

فشَبَّ رسولُ الله ﷺ، والله تعالى يَكلؤه ويحفظُه ويَحوطه من أقذارِ الجاهليةِ، لما يريد به من كَرامتِه ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلًا، وأفضلَ قومِه مُروءةً، وأحسنَهم خُلقًا، وأكرمهم حسَبًا، وأحسنَهم جِوارًا، وأعظمَهم حِلمًا، وأصدقَهم حديثًا، وأعظَمَهم أمانةً، وأبعدَهم من الفُحشِ والأخلاقِ التي تُدنِّس الرجالَ، تنزُّهًا وتكرمًا، حتى ما اسمُه في قومه إلا الأمينُ، لِما جمعَ الله فيه من الأمورِ الصالحةِ.

١٨- حديثُه ﷺ عن عصمةِ الله له في طفولتِه

وكان رسولُ الله ﷺ -فيما ذكر لي- يُحدِّثُ عما كان الله يحفظُه به في صِغَره وأمرِ جاهليته، أنه قال: «**لقد رأيتُني في غِلمان قريش ننقُل حجارة لبعض ما يَلعب به الغِلمانُ، كلنا قد تَعرَّى، وأخذ إزارَه فجعله على رقبَته، يحمل عليه الحجارةَ، فإنِّي لأُقبلُ معهم كذلك وأُدبرُ، إذ لكمني لاكمٌ ما أراه، لكمةً وجيعةً، ثم قال: شُدَّ عليك إزارَك**» قال: «**فأخذتُه وشددته عليَّ، ثم جعلت أحملُ الحجارة على رقبَتي وإزاري عليَّ من بين أصحابي**»(١).

١٩- حربُ الفِجارِ

قال ابنُ هشام: فلما بلغَ رسولُ الله ﷺ أربعَ عشَرة سنةً أو خمسَ عشرةَ سنةً -فيما حدثني أبو عُبيدةَ النحويُّ، عن أبي عمرو بنِ العَلاء- هاجت حرب الفِجَار بين قريشٍ ومن معهم من كِنانةَ، وبين قيس عَيلانَ.

---

(١) قال السهيلي في التعليق على هذه القصة: وهذه القصة إنما وردت في الحديث الصحيح في حين بنيان الكعبة.

وشهِدَ رسولُ الله ﷺ بعضَ أيامهم، أخرجَه أعمامُه معهم.

وقال رسولُ الله ﷺ: «**كنت أُنَبِّلُ على أعمامي**» أي: أرُدُّ عليهم نَبلَ عدوِّهم إذا رموهم بها.

٢٠- حديثُ تزويجِ رسولِ الله ﷺ خديجةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا

قال ابنُ هشام: فلما بلغَ رسولُ الله ﷺ خمسًا وعشرين سنةً تزوَّج خديجةَ بنت خويلد.

قال ابنُ إسحاقَ: وكانت خديجةُ بنت خويلدٍ امرأةً تاجرةً ذات شرف ومالٍ، تستأجر الرجالَ في مالها وتُضارِبُهم إياه بشيءٍ تجعلُه لهم، وكانت قريش قومًا تُجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغَها، من صِدق حديثِه، وعِظَمِ أمانتِه، وكرمِ أخلاقه، بَعثت إليه فعرضَت عليه أن يَخرُج في مالٍ لها إلى الشأمِ تاجرًا، وتُعطيه أفضلَ ما كانت تُعطي غيرَه من التجارِ، مع غلامٍ لها يُقال له: مَيسرةُ، فقبِله رسولُ الله ﷺ منها، وخرجَ في مالها ذلك، وخرجَ معه غلامُها مَيسرةُ حتى قدِم الشأمَ.

فنزل رسول الله ﷺ في ظِلِّ شجرة قريبًا من صومعة راهبٍ من الرُّهبان، فاطَّلع الراهب إلى ميسرةَ، فقال له: مَنْ هذا الرجلُ الذي نزلَ تحت هذه الشجرةِ؟

قال له مَيسرةُ: هذا رجل من قريشٍ من أهل الحرمِ.

فقال له الراهبُ: ما نزل تحت هذه الشجرةِ قَطُّ إلا نَبيٌّ.

ثم باعَ رسولُ الله ﷺ سِلعته التي خرج بها، واشترى ما أرادَ أن يَشتريَ، ثم أقبلَ قافلًا إلى مكَّةَ ومعه مَيسرةُ.

فكان مَيسرةُ -فيما يَزعُمون- إذا كانت الهاجرةُ واشتدَّ الحرُّ، يرى مَلكين يُظلانه من الشمسِ وهو يسير على بَعيرِهِ، فلما قدم مكَّةَ على خديجةَ بمالها، باعت ما جاء به، فأضعَفَ أو قريبًا.

وحدثها مَيسرةُ عن قول الراهبِ، وعما كان يرى من إظلالِ المَلكين إياه.

وكانت خديجةُ امرأةً حازمةً شريفةً لبيبةً، مع ما أرادَ الله بها من كرامتِه، فلما أخبرها مَيسرةُ بما أخبرَها به بعثت إلى رسولِ الله ﷺ، فقالت له -فيما يزعمون-: يا ابنَ عَمِّ، إني قد رغِبتُ فيك لقَرابتكَ، وسِطَتِك(١) في قومك، وأمانتك، وحُسنِ خُلقك، وصِدق حديثِك.

ثم عَرَضَت عليه نفسَها، وكانت خديجةُ يومئذ أوسطَ نساءِ قريش نسبًا، وأعظمَهن شرفًا، وأكثرَهن مالًا، كُلُّ قومِها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدرُ عليه.

فلما قالت ذلك لرسولِ الله ﷺ ذكرَ ذلك لأعمامِه فخرجَ معه عمُّه حمزةُ بن عبدِ المطلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى دخل على خُويلدَ بن أسدٍ، فخطبَها إليه، فتزوَّجها.

قال ابنُ هشام: وأصدَقَها رسولُ الله ﷺ عشرين بَكرةً، وكانت أوَّلَ امرأةٍ تزوجها رسولُ الله ﷺ، ولم يتزوَّجْ عليها غيرَها حتى ماتت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

٢١- أولادُه ﷺ من خديجةَ

قال ابنُ إسحاقَ: فولدتْ لرسولِ الله ﷺ ولدَه كُلَّهم -إلا إبراهيمَ-: القاسمَ، وبه كان يُكنى ﷺ، والطاهرَ، والطيبَ، وزينبَ، ورقيةَ، وأمَّ كلثومٍ، وفاطمةَ عليهم السلام.

---

(١) سِطَتك: شرفك.

قال ابنُ هشام: أكبرُ بنيه: القاسمُ، ثم الطيبُ، ثم الطاهرُ، وأكبرُ بناته: رقيةُ، ثم زينبُ، ثم أُمُّ كلثومَ، ثم فاطمةُ.

قال ابن إسحاقَ: فأما القاسمُ، والطيبُ، والطاهرُ فهلَكوا في الجاهليةِ، وأما بناتُه فكُلُّهن أدركن الإسلامَ، فأسلمنَ وهاجَرن معه ﷺ.

٢٢- أُمُّ إبراهيمَ

قال ابنُ هشام: وأما إبراهيم فأمُّه ماريةُ القبطية.

عن ابن لَهيعةَ قال: أم إبراهيمَ: مارية سُرِّيَّةُ النبي ﷺ التي أهداها إليه المُقوقسُ من حفَن من كورة أنصِنا.

[ثانيا : إرهاصات النبوة]

١- حديث خديجةَ مع ورقةَ وصِدقِ نبوءة ورقةَ فيه ﷺ

قال ابنُ إسحاقَ: وكانت خديجةُ بنت خويلدٍ قد ذكرت لورقةَ بن نوفل بن أسدِ بن عبد العُزَّى -وكان ابنَ عمِّها، وكان نصرانيًّا قد تتبع الكتب وعَلِم من علم الناس- ما ذَكر لها غلامُها مَيسرةُ من قول الراهبِ، وما كان يرى منه إذ كان المَلكان يُظلَّانِه، فقال ورقةُ: لئن كان هذا حقًّا يا خديجةُ، إن محمدًا لنبيُّ هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائنٌ لهذه الأمةِ نبيٌّ يُنتظَر، هذا زمانُه، أو كما قال.

٢- حديث بُنيان الكعبة وحُكم رسول الله ﷺ بين قُريشٍ في وضع الحجرِ

قال ابنُ إسحاقَ: فلما بلغَ رسولُ الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنةً، اجتمعت قريش لبُنيان الكعبةِ.

فلما أجمعوا أمرَهم في هدمِها وبنائِها، قام أبو وهبِ بنُ عمرو بن عائذ بن عبدِ بن عِمران بن مَخزوم -قال ابنُ هشام: عائذُ بن عمران بن مخزوم- فتناولَ من الكعبةِ حجرًا، فوثَبَ من يده، حتى رجعَ إلى موضِعِه، فقال: يا معشرَ قُريشٍ، لا تُدخِلوا في بنائِها من كسبِكم إلا طيِّبًا، لا يدخلُ فيها مَهرُ بَغيٍّ، ولا بيعُ ربًا، ولا مظلمةُ أحدٍ من الناس.

والناس ينحِلون هذا الكلامَ الوليدَ بنَ المغيرةِ بنِ عبد الله بن عمرَ بن مخزوم.

قال ابنُ إسحاق: ثم إن القبائلَ من قريشٍ جمعت الحجارةَ لبنائِها، كُلُّ قبيلة تجمعُ على حدةٍ، ثم بنوها، حتى بلغَ البُنيانُ موضعَ الركنِ(١)، فاختصموا فيه، كُلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفَعَه إلى موضِعِه دون الأخرى، حتى تَحاوزوا وتحالفوا وأعدُّوا للقتالِ.

فزعم بعضُ أهل الرواية: أن أبا أميةَ بنَ المغيرة بنِ عبد الله بن عمرَ بن مَخزوم، وكان عامئذٍ أسنَّ قريشٍ كُلِّها، قال: يا معشرَ قريشٍ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّلَ من يدخلُ من باب هذا المسجدِ يَقضي بينكم فيه؛ ففَعلوا، فكان أوَّلَ داخلٍ عليهم رسولُ الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمينُ، رضينا، هذا محمدٌ، فلما انتهى إليهم وأخبروهُ الخبرَ، قال ﷺ: «**هَلُمَّ إليَّ ثوبًا**»، فأُتي به، فأخذ الركنَ فوضعهُ فيه بيدِه، ثم قال: «**لتأخُذْ كُلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوبِ، ثم ارفعوه جميعًا**» حتى إذا بلغوا به موضعَهُ، وضعه هو بيدِه، ثم بنى عليه.

٣- إخبارُ الكهَّانِ من العرب، والأحبارِ من يهودٍ، والرهبانِ من النصارى

قال ابنُ إسحاق: وكانت الأحبارُ من يهودٍ، والرهبانُ من النصارى، والكُهَّانُ من العرب، قد تحدَّثوا بأمر رسول الله ﷺ قبلَ مَبعثِه، لما تقاربَ من زمانه.

أما الأحبارُ من يهودٍ، والرهبانُ من النصارى، فعمَّا وجدوا في كُتُبهم من صفته وصفة زمانِه، وما كان من عهدِ أنبيائِهم إليهم فيه.

وأما الكهَّان من العرب فأتَتْهم به الشياطينُ من الجنِّ فيما تسترِقُ من السمعِ، إذ كانت وهي لا تحجِب عن ذلك بالقَذف بالنجوم.

---

(١) أي: موضع الحجر الأسود.

وكان الكاهنُ والكاهنةُ لا يزالُ يقعُ منهما ذِكرُ بعض أمورِه، لا تُلقي العربُ لذلك فيه بالًا، حتى بعثَه الله تعالى، ووقعت تلك الأمورُ التي كانوا يَذكرون؛ فعرَفوها.

فلما تقاربَ أمرُ رسول الله ﷺ وحضرَ مَبعثُه، حُجِبَت الشياطينُ عن السمعِ، وحِيل بينها وبين المَقاعِدِ التي كانت تقعُد لاستراق السمعِ فيها، فرُموا بالنجومِ، فعَرفت الجنُّ أن ذلك لأمرٍ حدث من أمرِ الله في العِباد.

٤- إنذارُ يهودٍ برسولِ الله ﷺ

قال ابنُ إسحاقَ: وحدثني عاصم بن عُمر بن قتادةَ، عن رجالٍ من قومِه، قالوا: إنَّ مما دعانا إلى الإسلامِ -مع رحمةِ الله تعالى وهُداهُ لنا- لما كنا نسمعُ رجالَ يهودٍ، وكنا أهلَ شركٍ، أصحابَ أوثانٍ، وكانوا أهلَ كتاب، عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا تزالُ بيننا وبينهم شُرورٌ، فإذا نِلنا منهم بعضَ ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قد تقارب زمانُ نبيٍّ يُبعث الآنَ نقتُلُكم معه قتل عادٍ وإرم. فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث اللهُ رسولَه ﷺ أجبناه، حين دعانا إلى الله تعالى، وعرَفنا ما كانوا يتوعَّدوننا به؛ فبادَرناهم إليه، فآمنَّا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآياتُ من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة:٨٩].

[ثالثا: من البعثة إلى الهجرة]

[أ - الدعوة السرية]

١- مَبعثُ النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا

قال ابنُ إسحاق: فلما بلغَ محمدٌ رسولُ الله ﷺ أربعينَ سنةً بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، وكافةً للناسِ بشيرًا، وكان اللهُ تبارك وتعالى قد أخذَ الميثاقَ على كُلِّ نبي بعثه قبلَه بالإيمانِ به، والتَّصديقِ له، والنصرِ له على مَنْ خالفه.

وأخذ عليهم أن يُؤدُّوا ذلك إلى كُلِّ من آمن بهم وصدَّقهم، فأدوا مِن ذلك ما كان عليهم من الحقِّ فيه.

يقول اللهُ تعالى لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

٢- أوَّلُ ما بُدِئَ به الرسولُ ﷺ الرؤيا الصادقةُ

قال ابنُ إسحاق: فذكر الزُّهريُّ عن عروةَ بن الزبيرِ، عن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها حدَّثته: أن أوَّلَ ما بُدئَ به رسولُ الله ﷺ من النُبوَّةِ، حين أرادَ الله كرامتَه ورحمةَ العبادِ به، الرؤيا الصادقةُ، لا يَرى رسولُ الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفَلَقِ الصبحِ.

قالت: وحَبَّبَ الله تعالى إليه الخلوةَ، فلم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من أن يخلو وحدَه.

٣- تسليمُ الحجارة والشجرِ عليه ﷺ

قال ابنُ إسحاقَ: عن أهلِ العلم: إن رسولَ الله ﷺ حين أراده الله بكرامتِه، وابتدأه بالنبوةِ، كان إذا خرجَ لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوتُ ويُفضي إلى شعابِ مكةَ وبطون أوديتها، فلا يمرُّ رسول الله ﷺ بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال: السلامُ عليك يا رسولَ الله.

قال: فيلتفتُ رسول الله ﷺ حولَه وعن يمينه وشمالِه وخلفَه، فلا يرى إلا الشجرَ والحجارة، فمكث رسولُ الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء اللهُ أن يمكث، ثم جاءه جبريلُ عليه السلام بما جاءه من كرامةِ الله، وهو بحِراءٍ في شهر رمضان.

٤- ابتداءُ نزولِ جبريلَ عليه السلام

قال ابنُ إسحاق: وحدثني وهبُ بن كيسانَ مولى آل الزبير قال: سمعت عبدَ الله بن الزبيرِ وهو يقول لعُبيد بن عُمير بن قتادةَ الليثي: حدِّثنا يا عبيدُ، كيف كان بدءُ ما ابتُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من النبوةِ، حين جاءه جبريلُ عليه السلام؟

قال: فقال: عُبيدٌ -وأنا حاضرٌ يحدثُ عبدَ الله بنَ الزبير ومَنْ عنده من الناس-: كان رسولُ الله ﷺ يُجاور[1] في حِراء من كُلِّ سنة شهرًا، وكان ذلك مما تحنَّثَ به قريشٌ في الجاهلية. والتحنُّث: التبرُّر.

قال ابنُ إسحاق: وحدثني وهبُ بن كيسانَ قال: قال عبيدٌ: فكان رسولُ الله ﷺ يُجاور ذلك الشهر من كُلِّ سنة، يُطعم من جاءَه من المساكين، فإذا قضى

(١) يُجاوِر: يعتكف.

رسولُ الله ﷺ جِواره من شهرِه ذلك، كان أوَّلُ ما يبدأ به، إذا انصرف من جِواره الكعبةَ قبل أن يدخل بيتَه، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء اللهُ من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهرُ الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامَته، من السنة التي بَعثَه الله تعالى فيها، وذلك الشهرُ شهرُ رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حِراء، كما كان يَخرج لِجواره ومعه أهلُه، حتى إذا كانت الليلَةُ التي أكرمه اللهُ فيها برسالتِه، ورحِمَ العبادَ بها، جاءه جبريلُ عليه السلام بأمرِ الله تعالى.

قال رسولُ الله ﷺ: «**فجاءني جبريلُ، وأنا نائمٌ بنَمَطٍ**(١) **من ديباج فيه كتابٌ، فقال: اقرأ**»، قال: «**قلت: ما أقرأُ؟**» قال: «**فغَتَّني**(٢) **به حتى ظَننت أنه الموتُ، ثم أرسلني فقال: اقرأْ**»، قال: «**قلت: ما أقرأ؟**» قال: «**فغَتَّني به حتى ظننت أنه الموتُ، ثم أرسلني، فقال: اقرأْ**»، قال: «**قلت: ماذا أقرأ؟**» قال: «**فغتَّني به حتى ظننت أنه الموتُ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ**»، قال: «**فقلت: ماذا أقرأُ؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعودَ لي بمثلِ ما صنع بي، فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]».

قال: «**فقرأتُها ثم انتهى فانصرفَ عنِّي وهببت من نومي، فكأنما كُتبتْ في قلبي كتابًا**».

قال: «**فخرجتُ حتى إذا كنت في وَسَطٍ من الجبلِ سمعتُ صوتًا من السماءِ يقول: يا محمدُ، أنت رسولُ الله، وأنا جبريلُ**» قال: «**فرفعتُ رأسي إلى السماءِ أنظرُ، فإذا جبريلُ في صورةِ رجلٍ صافٍّ قدميه في أُفُقِ السماء يقول: يا محمدُ، أنت رسولُ الله، وأنا جبريلُ**».

(١) النَّمَط: ضرب من البُسُط.
(٢) غَتَّني: شدني.

قال: «فوقفت أنظرُ إليه فما أتقدَّمُ وما أتأخَّرُ، وجعلتُ أصرفُ وجهي عنه في آفاقِ السماءِ، قال: فلا أنظرُ في ناحيةٍ منها إلا رأيتُه كذلك، فما زِلت واقفًا ما أتقدم أمامي وما أرجعُ ورائي حتى بَعثَت خديجةُ رُسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكةَ ورجعوا إليها وأنا واقفٌ في مكاني ذلك، ثم انصرفَ عني».

٥- رسولُ الله ﷺ يَقُصُّ على خديجةَ ما كان من أمر جبريلَ معه

«وانصرفتُ راجعًا إلى أهلي حتى أتيتُ خديجةَ فجلستُ إلى فخِذها مُضِيفًا إليها[(١)]: فقالت: يا أبا القاسمِ، أين كنت؟ فوالله لقد بَعثتُ رُسلي في طلبك حتى بلغوا مكةَ ورجعوا لي، ثم حدثتُها بالذي رأيتُ، فقالت: أَبْشِرْ يا ابن عمٍّ واثبُت، فوالذي نفسُ خديجةَ بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمةِ».

٦- خديجةُ بين يدي ورقةَ تُحدِّثه حديثَ رسول الله ﷺ

ثم قامت فجمعَت عليها ثيابَها، ثم انطلقَت إلى ورقةَ بنِ نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصي -وهو ابنُ عمِّها- وكان ورقة قد تنصَّر وقرأ الكتب، وسمع من أهلِ التوراة والإنجيل، فأخبرَته بما أخبرَها به رسولُ الله ﷺ، أنه رأى وسمِعَ، فقال ورقةُ بن نوفل: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، والذي نفسُ ورقةَ بيده، لئن كنت صدقتِيني يا خديجةُ لقد جاءه الناموسُ الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيُّ هذه الأمةِ، فقولي له: فليثبُت.

فرجعت خديجةُ إلى رسولِ الله ﷺ فأخبرته بقولِ ورقةَ بن نَوفلٍ، فلما قضى رسول الله ﷺ جِوارهُ وانصرفَ، صنعَ كما كان يصنعُ: بدأ بالكعبةِ فطاف بها،

---

(١) مُضِيفًا إليها: ملتصقًا بها.

فلقيه ورقةُ بن نوفل وهو يطوف بالكعبةِ فقال: يا ابنَ أخي، أخبِرني بما رأيتَ وسمعت، فأخبره رسولُ الله ﷺ.

فقال له ورقةُ: والذي نفسي بيده، إنك لنبيُّ هذه الأمةِ، ولقد جاءك الناموسُ الأكبرُ الذي جاء موسى، ولتُكذَّبَنَّهْ ولتُؤذَيَنَّهْ ولتُخرَجَنَّهْ ولتُقاتَلَنَّهْ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمُه، ثم أدنى رأسه منه، فقبَّل يافوخَه[1]، ثم انصرفَ رسولُ الله ﷺ إلى منزلِه.

٧- ابتداءُ تنزيلِ القرآن

قال ابنُ إسحاق: فابتُدئَ رسولُ الله ﷺ بالتنزيلِ في شهرِ رمضان، بقول الله عزَّوَجلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤﴾ [القدر:١-٥].

قال ابنُ إسحاقَ: ثم تَتامَّ الوحيُ إلى رسولِ الله ﷺ، وهو مؤمنٌ بالله مُصدِّقٌ بما جاءه منه، قد قبِله بقَبولِه، وتحمَّل منه ما حُمِّلَه على رضا العباد وسخَطهم، والنُّبوَّة أثقالٌ ومُؤنةٌ، لا يَحملها ولا يستطيعُ بها إلا أهلُ القُوَّة والعزمِ من الرُّسل بعون الله تعالى وتوفيقه، لما يَلقون من الناس وما يُرَدُّ عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى.

قال: فمضى رسولُ الله ﷺ على أمرِ الله، على ما يَلقى من قومِه من الخلافِ والأذى.

---

(١) اليَافُوخ: وسط الرأس.

٨- إسلامُ خديجةَ بنتِ خُويلدٍ

وآمنت به خديجةُ بنت خُويلد، وصدَّقت بما جاءه من الله، ووازرَتهُ على أمرِه، وكانت أوَّلَ من آمن بالله وبرسوله، وصدَّقَ بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيِّه ﷺ، لا يَسمع شيئًا مما يكرهُه من رَدٍّ عليه وتكذيبٍ له، فيحزنه ذلك، إلا فرَّجَ الله عنه بها إذا رجعَ إليها، تُثبِّته وتُخفف عليه، وتصدِّقه وتُهون عليه أمرَ الناس، رحمها الله تعالى.

قال ابنُ إسحاقَ: عن عبدِ الله بن جعفرِ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أُمرت أن أُبَشِّرَ خديجةَ ببيتٍ من قصبٍ، لا صخبَ فيه ولا نصبَ**».

قال ابنُ هشام: القصَبُ هاهنا: اللؤلؤُ المُجوَّف.

٩- فترةُ الوحيِ ونزولُ سورةِ الضحى

قال ابنُ إسحاقَ: ثم فتَرَ الوحي عن رسول الله ﷺ فترةً من ذلك، حتى شَقَّ ذلك عليه فأحزَنهُ، فجاءه جبريلُ بسورةِ الضحى، يُقسمُ له ربُّه، وهو الذي أكرمهُ بما أكرمَه به، ما ودَّعَه وما قلاه، فقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُّحى:١-٣] يقول: ما صرَمَك فتركَك، وما أبغَضك منذ أحبَّك، ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضُّحى:٤] أي: لَمَا عِندي في مَرجعك إليَّ خيرٌ لك مما عجَّلت لك من الكرامةِ في الدنيا، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحى:٥] من الفُلْجِ في الدنيا، والثوابِ في الآخرة ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [الضُّحى:٦-٨] يُعرِّفه الله ما ابتدأه به من كرامتِه في عاجلِ أمره، ومَنِّه عليه في يُتمه وعَيلتِه وضلالته، واستنقاذِه من ذلك كُلِّه برحمتِه.

١٠- ابتداءُ فرضِ الصلاةِ

قال ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: افتُرِضَت الصلاةُ على رسولِ الله ﷺ أوَّلَ ما افتُرضت عليه ركعتينِ ركعتينِ كُلَّ صلاة، ثم إن اللهَ تعالى أتمَّها في الحضرِ أربعًا، وأقرَّها في السفرِ على فرضها الأوَّل ركعتين.

قال ابنُ إسحاقَ: وحدثني بعضُ أهلِ العلم: أن الصلاةَ حين افتُرضت على رسولِ الله ﷺ، أتاه جِبريلُ وهو بأعلى مكةَ، فهمَز له بعقِبه في ناحيةِ الوادي، فانفَجَرت منه عينٌ، فتوضَّأَ جبريلُ عليه السلامُ، ورسولُ الله ﷺ ينظرُ إليه، ليُريَه كيف الطَّهور للصلاةِ، ثم توضَّأَ رسولُ الله ﷺ كما رأى جبريلَ توضأَ، ثم قام به جبريلُ فصلى به، وصلى رسولُ الله ﷺ بصلاتِه، ثم انصرفَ جِبريلُ عليه السلام.

١١- تَعيينُ جبريلَ أوقاتِ الصلاةِ للرسولِ ﷺ

قال ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباسٍ قال: لما افتُرِضَت الصلاةُ على رسولِ الله ﷺ أتاه جِبريلُ عليه السلام، فصلَّى به الظُهرَ حين مالت الشمسُ، ثم صلى به العصرَ حين كان ظِلُّه مثلَه، ثم صلى به المَغربَ حين غابتِ الشمسُ، ثم صلى به العشاءَ الآخرةَ حين ذهب الشفقُ، ثم صلى به الصبحَ حين طلعَ الفجرُ، ثم جاءه فصلَّى به الظهرَ من غَدٍ حين كان ظِلُّه مثلَه، ثم صلى به العصرَ حين كان ظِلُّه مِثلَيه، ثم صلى به المغربَ حين غابتِ الشمسُ لوقتِها بالأمسِ، ثم صلى به العِشاءَ الآخرةَ حين ذهب ثُلثُ الليلِ الأوَّلِ، ثم صلى به الصبحَ مُسفرًا غيرَ مشرِقٍ، ثم قال: يا محمدُ، الصلاةُ فيما بين صلاتِك اليومَ وصلاتك بالأمس.

١٢- ذِكرُ أن عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوَّلُ ذكَرٍ أسلمَ

قال ابنُ إسحاقَ: ثم كان أوَّلَ ذَكَرٍ من الناس آمنَ برسولِ الله ﷺ، وصلى معه وصدَّقَ بما جاءه من الله تعالى: عليُّ بنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، رِضوان الله وسلامُه عليه، وهو يومئذٍ ابنُ عشر سنين.

وكان مما أنعمَ الله به على عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان في حِجرِ رسول الله ﷺ قَبلَ الإسلامِ.

١٣- إسلامُ زيدِ بن حارثةَ ثانيًا

قال ابنُ إسحاقَ: ثم أسلمَ زيدُ بن حارثةَ بن شُرحْبيلَ بنِ كعب بن عبد العُزَّى بن امرئ القيس الكلبيِّ، مولى رسول الله ﷺ، وكان أوَّلَ ذَكَر أسلمَ، وصلَّى بعدَ عليِّ بن أبي طالب.

١٤- إسلامُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشأنُه

قال ابن إسحاق: ثم أسلمَ أبو بكرِ بن أبي قُحافةَ، واسمُه عَتيقٌ.

قال ابنُ إسحاقَ: فلما أسلمَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أظهرَ إسلامَه، ودعا إلى الله وإلى رسولِه.

وكان أبو بكرٍ رجلًا مَألفًا لقومِه، مُحبَّبًا سهلًا، وكان أنسبَ قريش لقُريشٍ، وأعلمَ قريشٍ بها، وبما كان فيها من خيرٍ وشَرٍّ، وكان رجلًا تاجرًا، ذا خُلقٍ ومَعروفٍ، وكان رجالُ قومه يأتونهُ ويألفونه لغيرِ واحدٍ من الأمر، لعِلمه وتِجارتِه وحسنِ مُجالستِه، فجعلَ يدعو إلى الله وإلى الإسلامِ من وَثِقَ به من قومِه، ممن يَغشاه ويَجلسُ إليه.

١٥- ذِكْرُ من أسلمَ من الصحابةِ بدعوةِ أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

قال: فأسلمَ بدعائِه -فيما بلغني- عثمانُ بن عفَّان، والزبيرُ بن العوامِ، وعبدُ الرحمن بن عوفٍ، وسعدُ بن أبي وقَّاص، وطلحةُ بن عُبيد الله، فجاء بهم إلى رسولِ الله ﷺ حين استجابوا له فأسلَموا وصَلوا، وكان رسولُ الله ﷺ يقولُ -فيما بلغني-: «**ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلامِ إلا كانت فيه عنده كَبوةٌ، ونَظرٌ وتردُّدٌ، إلا ما كان من أبي بكرِ بن أبي قُحافةَ، ما عَكَمَ عنه حين ذكرتُه له، وما تردَّدَ فيه**».

قال ابنُ هشامٍ: قوله: عَكَمَ: تَلبَّثَ.

ثم أسلم أبو عُبيدةَ بنُ الجراحِ، وأبو سلمةَ، والأرقمُ بن أبي الأرقمِ، وعثمانُ بن مَظعونٍ، وأخواه قُدامةُ وعبدُ الله ابنا مظعون، وعُبيدةُ بن الحارثِ، وسعيدُ بن زيدِ بن عمرو، وامرأتُه فاطمةُ بنت الخطابِ، وأسماءُ بنت أبي بكرٍ، وعائشةُ بنت أبي بكرٍ، وهي يومئذٍ صغيرةٌ، وخبَّاب بن الأرَتِّ.

قال ابنُ إسحاقَ: وعُميرُ بن أبي وقَّاص، أخو سعد بن أبي وقاصٍ، وعبدُ الله بنُ مسعود، ومسعودُ بن القاري.

[ب - الدعوة الجهرية]

١- مباداةُ رسولِ الله ﷺ قومَه، وما كان منهم

قال ابنُ إسحاقَ: ثم دخل الناسُ في الإسلام أرسالا من الرجالِ والنساء، حتى فشا ذِكرُ الإسلامِ بمكةَ، وتُحُدِّث به، ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ أمرَ رسولَه ﷺ أن يصدعَ بما جاءه منه، وأن يُبادي الناسَ بأمرِه، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسولُ الله ﷺ أمرَه واستَتَرَ به إلى أن أمرَه الله تعالى بإظهارِ دينِه ثلاثُ سنين -فيما بلغني- من مبعثِه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحِجر:٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٦].

قال ابنُ إسحاقَ: وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ إذا صلوا، ذهبوا في الشعابِ، فاستخفَوا بصلاتِهم من قومِهم، فبينا سعدُ بن أبي وقاصٍ في نفرٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ في شِعبٍ من شعاب مكَّةَ، إذ ظهرَ عليهم نفرٌ من المشركين وهم يُصلُّون، فناكَروهم، وعابوا عليهم ما يَصنعَون حتى قاتَلوهم، فضربَ سعدُ بن أبي وقاصٍ يومئذٍ رجلا من المشركين بِلَحي بعيرٍ(١)؛ فشجَّه، فكان أوَّلَ دمٍ هُريقَ في الإسلامِ.

قال ابنُ إسحاقَ: فلما بادى رسولُ الله ﷺ قومَه بالإسلامِ وصدعَ به كما أمرَهُ اللهُ، لم يبعد منه قومُه، ولم يردُّوا عليه -فيما بلغني- حتى ذَكَرَ آلهتَهم وعابَها، فلما فعل ذلك أعظَموه وناكَروه، وأجمعوا خلافَه وعَداوتَه، إلا من عصمَ اللهُ تعالى منهم بالإسلامِ، وهم قليلٌ مُستَخفون.

---

(١) بِلَحي بعير: تثنية لحي واللحي هو العظم الذي عليه الخد.

وحَدِب[١] على رسول الله ﷺ عمُّه أبو طالبٍ، ومنعه وقام دونَه، ومضى رسولُ الله ﷺ على أمرِ الله، مُظهرًا لأمرِه، لا يردُّه عنه شيء، فلما رأت قريشٌ، أن رسولَ الله ﷺ لا يعتِبُهم من شيءٍ[٢] أنكروهُ عليه، من فراقِهم وعَيب آلهتِهم، ورأوا أن عمَّه أبا طالبٍ قد حَدِب عليه، وقام دونَه، فلم يُسلِمه لهم، مشى رجالٌ من أشرافِ قريشٍ إلى أبي طالبٍ: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ بن عبد شمسٍ، وأبو سفيانَ بنُ حربٍ، وأبو البَختري، والأسودُ بن المطَّلب، والوليدُ بن المغيرة، ونُبيه ومُنبه ابنا الحجاج بن عامر، والعاصُ بن وائل، أو من مشى منهم.

فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتَنا، وعابَ دينَنا، وسفَّه أحلامَنا، وضلَّل آباءَنا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تُخلِّيَ بيننا وبينه، فإنك على مثلِ ما نحن عليه من خلافِه، فنكفيكَهُ.

فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا، وردهم ردًا جميلًا، فانصرفوا عنه.

ومضى رسولُ الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهرُ دينَ الله، ويدعو إليه، ثم شَرَى[٣] الأمرُ بينه وبينَهم حتى تباعَدَ الرجالُ وتَضاغَنوا[٤]، وأكثرت قريشٌ ذِكرَ رسولِ الله ﷺ بينها، فتَذامَروا[٥] فيه، وحضَّ بعضُهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالبٍ مرَّةً أخرى.

---

(١) حَدِب: حدب على فلان إذا كان عاطفًا عليه ومانعًا له.
(٢) لا يعتِبُهم من شيء: أي لا يرضيهم.
(٣) شَرَى: كثر.
(٤) تَضاغَنوا: تعادوا.
(٥) تَذامَروا: أي حض بعضهم بعضًا.

فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَه عنا، وإنا والله لا نَصبرُ على هذا من شَتْمِ آبائنا، وتسفيه أحلامِنا، وعَيبِ آلهتنا، حتى تكُفَّه عنا، أو ننازلُه وإياك في ذلك، حتى يهلكَ أحدُ الفريقين، أو كما قالوا له.

ثم انصرفوا عنه، فعَظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، ولم يطِب نفسًا بإسلامِ رسولِ الله ﷺ لهم ولا خِذلانِه.

قال ابنُ إسحاقَ: وحدثني يعقوبُ بن عتبةَ بنِ المغيرة بن الأخنسِ أنه حُدِّث: أن قريشًا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالةَ، بعث إلى رسولِ الله ﷺ، فقال له: يا ابنَ أخي، إن قومَك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا -للذي كانوا قالوا له- فأبْقِ عليَّ وعلى نفسِك، ولا تُحمِّلني من الأمرِ ما لا أطيقُ.

قال: فظن رسولُ الله ﷺ أنه قد بدا لعَمِّه فيه بَداءً أنه خاذلُه ومُسلمُه، وأنه قد ضعفَ عن نُصرتِه والقيامِ معه.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا عَمِّ، والله لو وَضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يَساري على أن أترُكَ هذا الأمرَ حتى يُظهرَه اللهُ، أو أهلِك فيه، ما تركتُه**».

قال: ثم استعبَرَ رسولُ الله ﷺ، فبكى ثم قامَ، فلما ولَّى ناداه أبو طالبٍ فقال: أقبلْ يا ابنَ أخي، قال: فأقبلَ عليه رسولُ الله ﷺ، فقال: اذهب يا ابنَ أخي، فقُل ما أحببتَ؛ فوالله، لا أُسلمُك لشيء أبدًا.

قال ابنُ إسحاقَ: ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالبٍ قد أبى خِذلان رسولِ الله ﷺ وإسلامَه، وإجماعه لفراقِهم في ذلك وعداوتِهم، مشوا إليه بعُمارةَ

بن الوليدِ بن المُغيرة، فقالوا له -فيما بلغني-: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد، أَنْهَدُ[١] فتًى في قريش وأجملُه، فخذه فلَكَ عقلُه ونصرُه، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلِم إلينا ابنَ أخيك هذا، الذي قد خالفَ دينَك ودينَ آبائك، وفرَّق جماعةَ قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتُله، فإنما هو رجلٌ برجلٍ.

فقال: والله لبئس ما تَسومونني[٢]! أتُعطونني ابنكم أغذُوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونَه! هذا والله ما لا يكون أبدًا.

قال: فقال المُطعم بن عدي بن نَوفل بن عبدِ مناف بن قُصي: والله يا أبا طالبٍ لقد أنصفَك قومُك، وجهدوا على التخلُّص مما تكرهُه، فما أُراك تريدُ أن تقبلَ منهم شيئًا!

فقال أبو طالب للمُطعم: والله ما أنصفوني، ولكنَّك قد أجمعتَ خِذلاني ومُظاهرةَ القومِ عليَّ، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال.

فحَقَبَ[٣] الأمرُ، وحَمِيت الحربُ، وتنابَذَ القومُ، وبادى بعضُهم بعضًا.

٢- ذِكرُ ما فَتنت به قريشٌ المؤمنين وعذَّبتهُم على الإيمانِ

قال ابنُ إسحاقَ: ثم إن قريشًا تذامروا بينهم على من في القبائلِ منهم من أصحابِ رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثَبت كُلُّ قبيلةٍ على مَنْ فيهم من المسلمين يُعذِّبونَهم، ويَفتِنونهم عن دِينِهم، ومنعَ الله رسولَه ﷺ منهم بعمِّه أبي طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا يصنعون ما يصنعون في بَني هاشمٍ

(١) أَنْهَد: أشد وأقوى.
(٢) تَسُومُونَنِي: تكلفونني.
(٣) حَقَبَ: زاد واشتد.

وبني المطَّلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من مَنع رسولِ الله ﷺ، والقيامِ دونَه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لَهَبٍ، عدوِّ الله الملعونِ.

٣- تَحيُّرُ الوليدِ بن المغيرة فيما يَصفُ به القرآنَ

ثم إن الوليدَ بن المغيرةَ اجتمع إليه نفرٌ من قريشٍ، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسمُ فقال لهم: يا معشرَ قريشٍ، إنه قد حضرَ هذا الموسمُ، وإن وفودَ العرب ستَقدَم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمرِ صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيُكذِّبَ بعضُكم بعضًا، ويَردَّ قولُكم بعضُه بعضًا.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقلْ وأقم لنا رأيًا نقولُ به، قال: بل أنتم فقولوا أسْمَعْ.

قالوا: نقولُ كاهنٌ.

قال: لا والله ما هو بكاهنٍ، لقد رأينا الكهَّانَ فما هو بزمزمةِ الكاهنِ ولا سجعِه.

قالوا: فنقول: مجنونٌ.

قال: ما هو بمجنونٍ، لقد رأينا الجنونَ وعرفناه، فما هو بخنقِه، ولا تَخالُجِه، ولا وسوستِه.

قالوا: فنقول: شاعرٌ.

قال: ما هو بشاعرٍ، لقد عرفنا الشعرَ كلَّه رجَزَه وهزَجه وقَريضَه ومَقبوضَه ومَبسوطَه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحرٌ.

قال: ما هو بساحرٍ، لقد رأينا السحار وسحرَهم، فما هو بنفثِهم ولا عقدِهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبدِ شمس؟

قال: والله، إن لقولِه لحلاوةً، وإن أصلَه لعَذقٌ[1]، وإن فرَعه لجناةٌ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطلٌ، وإن أقربَ القول فيه: لَأَن تقولوا: هو ساحرٌ، جاء بقول هو سحرٌ يفرِّق به بين المرءِ وأبيه، وبين المرءِ وأخيه، وبين المرءِ وزوجته، وبين المرء وعشيرتِه.

فتفرَّقوا عنه بذلك، فجَعلوا يَجلسون بسُبلِ الناس حين قدِموا الموسم، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمرَه.

فأنزل اللهُ تعالى في الوليدِ بن المغيرةِ وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدَّثر: ١١-٢٥].

٤- انتشارُ ذكرِ الرسولِ في القبائلِ، ولا سيَّما في الأوسِ والخزرجِ

فلما انتشرَ أمرُ رسول الله ﷺ في العربِ، وبلغ البُلدان، ذُكِرَ بالمدينة، ولم يكن حيٌّ من العربِ أعلمَ بأمرِ رسول الله ﷺ حين ذُكِرَ وقبل أن يُذكرَ من هذا الحيِّ

(١) العَذْق: النخلة.

من الأوسِ والخزرجِ، وذلك لما كانوا يَسمعون من أحبارِ اليهود، وكانوا لهم حُلفاءَ، ومعهم في بلادِهم.

٥- ذِكر ما لقِيَ رسولُ الله ﷺ من قومِه

قال ابنُ إسحاقَ: ثم إن قريشًا اشتد أمرُهم للشقاءِ الذي أصابَهم في عَداوةِ رسولِ الله ﷺ ومن أسلَمَ معه منهم، فأغرَوا برسولِ الله ﷺ سُفهاءَهم، فكذَّبوه وآذوه، ورموه بالشعرِ والسحر والكهانَةِ والجنونِ، ورسولُ الله ﷺ مُظهرٌ لأمرِ الله لا يَستخفي به، مُبادٍ لهم بما يَكرهون من عَيب دِينهم، واعتزالِ أوثانِهم، وفِراقه إياهم على كُفرِهم.

٦- إسلامُ حمزةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال ابنُ إسحاقَ: حدثني رجلٌ من أسلمَ، كان واعيةً: أن أبا جهل مَرَّ برسولِ الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتَمه، ونال منه بعضَ ما يكرهُ من العيبِ لدينه، والتضعيفِ لأمرِه، فلم يكلِّمه رسولُ الله ﷺ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدعان في مَسكنٍ لها تَسمعُ ذلك، ثم انصرف عنه فعمدَ إلى نادٍ من قريشٍ عند الكعبة، فجلس معهم.

فلم يلبثْ حمزةُ بن عبد المطَّلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن أقبل مُتوشِّحًا قوسَه، راجعًا من قنصٍ له، وكان صاحبَ قنصٍ يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قَنصِه لم يصل إلى أهلِه حتى يطوفَ بالكعبةِ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على نادٍ من قريشٍ إلا وقف وسلَّم وتحدث معهم، وكان أعزَّ فتًى في قريش، وأشدَّ شكيمةً.

فلما مرَّ بالمولاة -وقد رجعَ رسولُ الله ﷺ إلى بيتِه- قالت له: يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ آنفًا من أبي الحكم بن هشام، وجدَه هاهنا جالسًا فآذاه وسبَّه، وبلغَ منه ما يكرهُ، ثم انصرف عنه ولم يكلِّمه محمدٌ ﷺ.

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أرادَ الله به من كرامتِه، فخرج يسعى ولم يقفْ على أحدٍ، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يُوقعَ به، فلما دخل المسجدَ نظرَ إليه جالسًا في القومِ، فأقبل نحوَه حتى إذا قامَ على رأسه رفعَ القوسَ فضربَه بها فشجَّه شجةً مُنكرةً.

ثم قال: أتشتِمه وأنا على دينِه أقولُ ما يقول؟ فردَّ ذلك عليَّ إن استطعت.

فقامت رجالٌ من بني مَخزوم إلى حمزةَ لينصروا أبا جهلٍ، فقال أبو جهلٍ: دعوا أبا عُمارة، فإني والله قد سببتُ ابنَ أخيه سبًّا قبيحًا.

وتمَّ حمزةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على إسلامِه، وعلى ما تابَع عليه رسولَ الله ﷺ من قولِه.

فلما أسلمَ حمزةُ عرفت قريشٌ أن رسولَ الله ﷺ قد عزَّ وامتنعَ، وأن حمزةَ سيمنعُه، فكفُّوا عن بعضِ ما كانوا يَنالون منه.

٧- قولُ عتبةَ بن ربيعةَ في أمرِ رسولِ الله ﷺ

قال ابنُ إسحاق: وحدثني يزيدُ بن زيادٍ، عن محمد بن كعب القُرظي قال: حُدِّثت أن عتبةَ بن ربيعةَ -وكان سيِّدًا- قال يومًا وهو جالس في نادي قريش -ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في المسجدِ وحدَه-: يا معشرَ قُريشٍ، ألا أقومُ إلى محمد فأكلِّمه وأعرضَ عليه أمورًا لعله يقبلُ بعضَها فنعطيه أيَّها شاء، ويكفَّ عنا؟ -وذلك حين أسلم حمزةُ،

ورأوا أصحابَ رسول الله ﷺ يزيدون ويَكثُرون- فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قُمْ إليه فكلِّمْه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: يا ابنَ أخي، إنك منَّا حيث قد علمتَ من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النسبِ، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيم فرَّقتَ به جماعتَهم وسفَّهت به أحلامَهم وعِبت به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من مضى من آبائِهم، فاسمَعْ مني أعرضْ عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبلُ منها بعضَها.

قال: فقال له رسولُ الله ﷺ: «**قل يا أبا الوليد، أسمعُ**».

قال: يا ابنَ أخي، إن كنت إنما تُريد بما جئتَ به من هذا الأمرِ مالًا جَمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرنا مالًا، وإن كنت تُريد به شرفًا سوَّدناك علينا، حتى لا نقطعَ أمرًا دونك، وإن كنت تُريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه لا تَستطيع ردَّه عن نفسِك، طلبنا لك الطِّبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئَك منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجلِ حتى يُداوى منه. أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عُتبةُ، ورسولُ الله ﷺ يستمعُ منه، قال: «**أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟**»

قال: نعم.

قال: «**فاسمَعْ منِّي**».

قال: أفعلُ.

فقال: «**بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ،** ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فُصِّلَت:١-٥]».

ثم مضى رسولُ الله ﷺ فيها يَقرؤها عليه.

فلما سَمِعها منه عُتبةُ أنصتَ لها، وألقى يديه خلفَ ظهرِه مُعتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السجدةِ منها، فسجَدَ ثم قال: «**قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك**».

فقام عتبةُ إلى أصحابِه، فقال بعضُهم لبعضٍ: نحلفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغيرِ الوجه الذي ذهب به.

فلمَّا جلس إليهم قالوا: ما وراءَك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني قد سَمِعت قولا والله ما سمعتُ مثلَه قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكَهانة، يا معشرَ قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجلِ وبين ما هو فيه فاعتزِلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيمٌ، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيرِكم، وإن يظهر على العربِ فمُلكه مُلككم، وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعدَ الناسِ به.

قالوا: سحرَك والله يا أبا الوليد بلسانِه.

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

قال ابنُ إسحاقَ: ثم إن الإسلامَ جعل يَفشو بمكَّةَ في قبائل قُريش في الرجالِ والنساء، وقريشٌ تحبس من قدرت على حبسِه، وتفتِن من استطاعت فتنتَه من المسلمين.

٨- استكبارُ قريشٍ عن أن يؤمنوا بالرسولِ ﷺ

فلما جاءَهم رسولُ الله ﷺ بما عَرفوا من الحقِّ، وعرفوا صدقَه فيما حدَّث، وموقعَ نبوته فيما جاءَهم به من علمِ الغُيوب حين سألوه عمَّا سألوا عنه، حال الحسَدُ منهم له بينهم وبين اتِّباعه وتصديقه، فعَتَوا على الله وتركوا أمرَه عَيانًا، ولجُّوا فيما هم عليه من الكفرِ، فقال قائلهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٦]، أي: اجعلوه لغوًا وباطلًا، واتَّخِذوه هُزوا لعلكم تغلبونَه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يومًا غلبكم.

٩- ذِكرُ الهجرةِ الأولى إلى أرضِ الحبشةِ

قال ابنُ إسحاقَ: فلما رأى رسولُ الله ﷺ ما يصيبُ أصحابَه من البلاءِ، وما هو فيه من العافية، بمكانِه من الله ومن عمِّه أبي طالبٍ، وأنه لا يقدرُ على أن يمنعَهم مما هم فيه من البلاءِ، قال لهم: «**لو خرجتُم إلى أرضِ الحبشة؛ فإن بها مَلِكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدقٍ، حتى يجعلَ الله لكم فرجًا مما أنتم فيه**».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحابِ رسولِ الله ﷺ إلى أرضِ الحبشةِ؛ مخافةَ الفتنة، وفِرارًا إلى الله بدينِهم، فكانت أوَّلَ هجرةٍ كانت في الإسلامِ.

وكان أوَّلَ من خرج من المسلمين: عثمانُ بن عفانَ بن أبي العاص بن أميَّة معه امرأتُه رقيةُ بنت رسولِ الله ﷺ، وأبو حُذيفةَ بن عتبةَ بن ربيعة بن عبدِ شمس

معه امرأتُه: سهلة بنت سُهيل بن عمرو، والزبيرُ بن العوامِ، ومُصعبُ بن عمير، وعبدُ الرحمن بن عوف، وأبو سلمةَ بن عبد الأسد معه امرأتُه أُمُّ سلمة بنت أبي أمية، وعثمانُ بن مَظعونٍ، وعامرُ بن ربيعةَ معه امرأتُه ليلى بنت أبي حَثمةَ، وأبو سبرةَ بن أبي رُهمٍ وسُهيل ابن بيضاء.

فكان هؤلاء العشرةُ أوَّلَ من خرج من المسلمين إلى أرضِ الحبشةِ، فيما بلغني.

قال ابنُ هشامٍ: وكان عليهم عثمانُ بن مَظعونٍ، فيما ذكر لي بعضُ أهل العلم.

قال ابنُ إسحاقَ: ثم خرج جعفرُ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرضِ الحبشةِ، فكانوا بها، منهم من خرج بأهلِه معه، ومنهم من خرج بنفسِه لا أهلَ له معه.

١٠ - إرسالُ قريشٍ إلى الحبشة في طلب المُهاجرين إليها

قال ابنُ إسحاق: عن أُمِّ سلمة قالت: لما نزلنا أرضَ الحبشة، جاورنا بها خيرَ جار: النجاشيَّ، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا اللهَ تعالى لا نُؤذى ولا نسمعُ شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قُريشًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيِّ فينا رجلين منهم جلْدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايَا مما يُستطرفُ من متاعِ مكَّةَ، وكان من أعجبِ ما يأتيه منها الأدَمُ[١]، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بِطريقًا إلا أهدوا له هديةً.

---

(١) الأدَم: الجلود.

ثم بعثوا بذلك عبدَ الله بن أبي ربيعةَ، وعمرَو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كُلِّ بِطريقٍ هديَّتَه قبل أن تُكلما النجاشيَّ فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يُسلِمَهم إليكما قبل أن يُكلِّمهم.

قالت: فخرجا حتى قدِما على النجاشيِّ، ونحن عنده بخيرِ دارٍ، عند خير جارٍ، فلم يبقَ من بطارقته بِطريقٌ إلا دفعا إليه هديتَهُ قبل أن يُكلِّما النجاشي، وقالا لكل بطريقٍ منهم: إنه قد ضَوَى[1] إلى بلد المَلك منا غِلمانٌ سفهاءُ، فارقوا دينَ قومِهم، ولم يدخلوا في دينِكم، وجاءوا بدينٍ مُبتدعٍ، لا نعرفه نحن ولا أنتمُ، وقد بَعَثَنا إلى الملكِ فيهم أشرافُ قومِهم ليردَّهم إليهم، فإذا كلَّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يُكلِّمَهم، فإن قومَهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم.

ثم إنَّهما قدَّما هداياهما إلى النجاشيِّ فقبِلها منهما، ثم كلَّماه فقالا له: أيها الملكُ، إنه قد ضَوَى إلى بلدِك منا غِلمانٌ سُفهاءُ، فارقوا دينَ قومِهم، ولم يدخلوا في دينِك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفُه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشرافُ قومِهم من آبائهم وأعمامِهم وعشائِرهم لتَرُدَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبدِ الله بن أبي ربيعةَ وعمرِو بن العاص من أن يسمع كلامَهم النجاشيُّ.

(١) ضَوَى: لجأ.

قالت: فقالت بَطارقتُه حوله: صَدَقا أيها الملكُ، قومُهم أعلى بهم عينًا، وأعلمُ بما عابوا عليهم؛ فأسلِمهم إليهما فليَرُدَّاهم إلى بلادِهم وقومِهم.

قالت: فغضِبَ النجاشيُّ، ثم قال: لاها الله إذن، لا أُسلِمهم إليهما، ولا يُكادُ قومٌ جاوروني، ونَزَلوا بلادي، واختاروني على من سِواي، حتى أدعوهم فأسألُهم عما يَقولُ هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولانِ أسلمتُهم إليهما، ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غيرِ ذلك منعتُهم منهما، وأحسنتُ جِوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسلَ إلى أصحابِ رسولِ الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءَهم رسولُه اجتمعوا، ثم قال بعضُهم لبعضٍ: ما تقولون للرجلِ إذا جِئتموه؟

قالوا: نقول والله ما علِمنا، وما أمرَنا به نبيُّنا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا -وقد دعا النجاشيُّ أساقفَتَه، فنشروا مصاحِفَهم حولَه- سألهم فقال لهم: ما هذا الدينُ الذي قد فارقتُم فيه قومَكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دينِ أحدٍ من هذه المِلل؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفرُ بن أبي طالبٍ رِضوانُ الله عليه، فقال له: أيُّها الملكُ، كنا قومًا أهلَ جاهليةٍ، نعبد الأصنامَ، ونأكل الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ، فكنا على ذلك، حتى بعثَ الله إلينا رسولًا منا، نعرف نَسبَه وصدقَه وأمانَته وعفافَه.

فدعانا إلى الله لنوحِّدَه ونعبده، ونخلعَ ما كنا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونِه من الحجارةِ والأوثان.

وأمرَنا بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانة، وصلةِ الرحمِ، وحُسن الجِوار، والكفِّ عن المحارمِ والدماءِ.

ونهانا عن الفَواحشِ، وقولِ الزور، وأكلِ مال اليتيمِ، وقذفِ المُحصنات.

وأمرنا أن نعبدَ الله وحده، لا نشركَ به شيئًا.

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام -قالت: فعدَّد عليه أمورَ الإسلامِ- فصدَّقناه وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاءَ به من الله، فعبدنا اللهَ وحدَه، فلم نشركْ به شيئًا، وحرَّمنا ما حَرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذَّبونا، وفَتنونا عن دينِنا؛ ليردُّونا إلى عبادةِ الأوثان من عبادةِ الله تعالى، وأن نَستحِلَّ ما كنا نستحل من الخبائثِ.

فلما قَهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بينَنا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادِك، واخترناكَ على من سِواك، ورغِبنا في جِوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندك أيُّها الملكُ.

قالت: فقال له النجاشيُّ: هل معك مما جاءَ به عن الله من شيءٍ؟

قالت: فقال له جعفرٌ: نعم.

فقال له النجاشيُّ: فاقرأه عليَّ.

قالت: فقرأ عليه صَدرًا من: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم:١].

قالت: فبكى -والله- النجاشيُّ حتى اخضلَّتْ لحيتُه، وبكت أساقفَتُه حتى أخضلُوا مصاحِفَهم، حين سمِعوا ما تلا عليهم.

ثم قال لهم النجاشيُّ: إن هذا والذي جاءَ به عِيسى ليَخرُجُ من مِشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا، فلا والله لا أسلِمُهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا مِن عنده، قال عمرو بنُ العاص: والله لآتينَّه غدًا عنهم بما أستأصلُ به خَضراءَهم.

قالت: فقال له عبدُ الله بن أبي ربيعةَ، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل؛ فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبِرَنَّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مَريم عبدٌ.

قالت: ثم غدَا عليه من الغَدِ فقال له: أيُّها الملكُ، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسِلْ إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسلَ إليهم ليسألَهم عنه.

قالت: ولم يَنزل بنا مِثلُها قط.

فاجتمع القومُ، ثم قال بعضُهم لبعضٍ: ماذا تقولون في عيسى ابن مَريم إذا سألَكم عنه؟

قالوا: نقولُ والله ما قال اللهُ، وما جاءنا به نبيُّنا، كائنًا في ذلك ما هو كائنٌ.

قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابنِ مريمَ؟

قالت: فقال جعفرُ بن أبي طالب: نقولُ فيه الذي جاءنا به نبيُّنا ﷺ، يقول: هو عبدُ الله ورسولُه وروحُه وكَلِمتُه ألقاها إلى مريمَ العذراءِ البتولِ.

قالت: فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرضِ، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابنُ مريم ما قلتَ هذا العودَ.

قالت: فتناخَرت بطارقَتُه حولَه حين قال ما قال.

فقال: وإن نخرتُم والله، اذهبوا فأنتم شُيومٌ بأرضي- والشيومُ: الآمنونَ- مَنْ سَبَّكم غَرِمَ، ثم قال: من سبَّكم غَرِم، ثم قال: مَن سَبَّكم غَرِمَ، ما أحبُّ أن لي دَبرًا من ذهب، وأني آذيتُ رجلًا منكم، رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجةَ لي بها، فوالله ما أخذ اللهُ مني الرِّشوةَ حين رَدَّ عليَّ مُلكي، فآخذَ الرِّشوةَ فيه، وما أطاعَ الناس فيَّ فأطيعَهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مَقبوحَين مَردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بِخيرِ دارٍ، مع خيرِ جارٍ.

١١- إسلامُ عمرَ بن الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال ابنُ إسحاقَ: وكان إسلامُ عمرَ فيما بلغني أن أخته فاطمةَ بنت الخطاب، وكانت قد أسلمت وأسلمَ بعلُها سعيدُ بن زيدٍ، وهما مُستخفيان بإسلامِهما من عمرَ، وكان خبَّابُ بن الأرتِّ يختلفُ إلى فاطمةَ بنت الخطاب يُقرئها القرآنَ، فخرج عمر يومًا متوشِّحًا سيفه يريدُ رسولَ الله ﷺ ورهطًا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصفا، وهم قريبٌ من أربعينَ ما بين رجالٍ ونساءٍ.

ومع رسول الله ﷺ عمُّه حمزةُ بن عبدِ المطلب، وأبو بكرِ بن أبي قحافةَ الصديق، وعليُّ بن أبي طالب، في رجالٍ من المسلمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ممن كان أقامَ مع رسولِ الله ﷺ بمكةَ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرضِ الحبشةِ.

فلقيَه نعيمُ بن عبد الله، فقال له: أين تريدُ يا عمرُ؟

فقال: أريدُ محمدًا هذا الصابئَ، الذي فرَّقَ أمرَ قريشٍ، وسفَّه أحلامَها، وعاب دينَها، وسبَّ آلهتها فأقتُله.

فقال له نُعيمٌ: والله لقد غرَّتك نفسُك من نفسِك يا عمرُ، أترى بني عبد مَناف تاركيك تمشي على الأرضِ وقد قَتلت محمدًا؟! أفلا ترجع إلى أهلِ بيتك فتُقيم أمرَهم؟

قال: وأيُّ أهل بيتي؟

قال: خَتنُك وابن عمك سعيدُ بن زيدٍ، وأختُك فاطمةُ بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا مُحمدًا على دينه، فعليك بهما.

قال: فرجع عمرُ عامدًا إلى أختِه وخَتنه، وعندهما خبَّابُ بن الأرتِّ معه صحيفةٌ، فيها: ﴿طه﴾ يُقرئهما إياها، فلما سَمعوا حِسَّ عمرَ، تغيَّب خباب في مَخْدَعٍ[1] لهم، أو في بعضِ البيت.

وأخذت فاطمةُ بنت الخطاب الصحيفةَ فجعلتها تحت فخِذِها، وقد سمعَ عمرُ حين دنا إلى البيت قراءةَ خبابٍ عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمَةُ[2] التي سمعتُ؟

قالا له: ما سمعت شيئًا.

قال: بلى، والله، لقد أُخبرتُ أنكما تابعتما محمدًا على دينِه، وبطشَ بخَتنه سعيدِ بن زيدٍ، فقامت إليه أختُه فاطمةُ بنتُ الخطاب لتكفَّه عن زوجها، فضرَبَها

(١) المَخْدَع: الخزانة.
(٢) الهَيْنَمَة: الصوت الخفي.

فشجَّها، فلما فعل ذلك قالت له أختُه وختنُه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسولِه، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عُمر ما بأختِه من الدمِ ندِمَ على ما صنع، فارعَوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفةَ التي سمعتُكم تقرؤون آنفًا أنظرُ ما هذا الذي جاء به محمدٌ؟ وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك، قالت له أختُه: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي، وحلَف لها بآلهته ليَرُدَّنَّها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طَمِعت في إسلامِه، فقالت له: يا أخي، إنك نَجَسٌ، على شركك، وإنه لا يمسُّها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسلَ، فأعطته الصحيفةَ، وفيها: ﴿طه﴾ فقرأها، فلما قرأ منها صَدرًا، قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمه! فلما سمع ذلك خبابٌ خرج إليه.

فقال له: يا عمرُ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوةِ نبيِّه، فإني سمعتُه أمسِ وهو يقول: «**اللهم أيِّدِ الإسلام بأبي الحَكم بن هشامٍ، أو بعمرَ بن الخطابِ**» فاللهَ اللهَ يا عمرُ.

فقال له عند ذلك عمرُ: فدُلَّني يا خبابُ على محمدٍ حتى آتيه فأُسلم، فقال له خباب: هو في بيتٍ عند الصفا، معه فيه نفرٌ من أصحابه، فأخذ عمرُ سيفَه فتوشحه، ثم عمدَ إلى رسول الله ﷺ وأصحابِه، فضربَ عليهم البابَ، فلما سمعوا صوتَه، قام رجلٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فنظر من خَلل الباب فرآه مُتوشِّحًا السيفَ، فرجعَ إلى رسولِ الله ﷺ وهو فَزِعٌ.

فقال: يا رسول الله، هذا عمرُ بن الخطابِ متوشحًا السيف، فقال حمزةُ بن عبد المطلب: فأْذَنْ له، فإن كان جاء يريدُ خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريدُ شرًّا قتلناه بسيفه.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**ائذن له**».

فأذن له الرجلُ، ونهض إليه رسولُ الله ﷺ حتى لقيَه في الحُجرة، فأخذ حُجزته أو بمَجمعِ ردائه، ثم جَبذه به جبذةً شديدةً، وقال: «**ما جاء بك يا ابنَ الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تَنتهيَ حتى يُنزِلَ الله بك قارعةً**».

فقال عمر: يا رسول الله، جئتُك لأومن بالله وبرسولِه، وبما جاء من عندِ الله.

قال: فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عرف أهلُ البيت من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

فتفرَّقَ أصحابُ رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عَزُّوا في أنفسِهم حين أسلم عمرُ مع إسلامِ حمزةَ، وعرفوا أنهما سيَمنعان رسولَ الله ﷺ، ويَنتصفون بهما من عدوِّهم.

١٢- خَبرُ الصحيفةِ

قال ابنُ إسحاقَ: فلما رأت قريشٌ أن أصحابَ رسولِ الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشيَّ قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمرَ قد أسلمَ، فكان هو وحمزةُ بن عبد المطلبِ مع رسولِ الله ﷺ وأصحابِه، وجعل الإسلامُ

يفشو في القبائلِ، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشمٍ، وبني المطلبِ، على أن لا ينكِحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يَبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفةٍ، ثم تَعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علَّقوا الصحيفةَ في جوف الكعبةِ توكيدًا على أنفسهم.

قال ابنُ إسحاقَ: فلما فعلت ذلك قريشٌ انحازت بنو هاشمٍ وبنو المطَّلب إلى أبي طالب بن عبد المطلبِ، فدخلوا معه في شِعبِه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشمٍ أبو لهبٍ عبدُ العُزَّى بن عبد المطلب إلى قُريشٍ فظاهرهم.

فأقاموا على ذلك سنتينِ أو ثلاثًا، حتى جهدوا لا يصل إليهم شيءٌ إلا سرًّا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريشٍ.

١٣- ذِكرُ ما لقي رسولُ الله ﷺ من قومِه من الأذى

فجعلت قُريشٌ حين منعه الله منها، وقام عمُّه وقومه من بني هاشم وبني المطلب دونَه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطشِ به، يهمزونَه ويستهزئون به ويُخاصمونه، وجعل القرآنُ ينزل في قريشٍ بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم، ومنهم من سُمِّي لنا، ومنهم من نزل فيه القرآنُ في عامة من ذكر اللهُ من الكفار.

فكان ممن سُمِّي لنا من قريشٍ ممن نزل فيه القرآن عمُّه أبو لهبِ بن عبد المطلب وامرأتُه أم جميل بنتُ حرب بن أمية، حمَّالة الحطب، وإنما سمَّاها الله تعالى حمَّالةَ الحطب؛ لأنها كانت -فيما بلغني- تَحمِل الشوك فتطرحَه على طريق رسولِ الله ﷺ حيث يَمرُّ، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ

عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المَسَد:١-٥].

وأمية بنُ خلفٍ كان إذا رأى رسولَ الله ﷺ همَزه ولَمَزه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهُمَزة:١-٩].

ولقِي أبو جهل بنُ هشام رسولَ الله ﷺ -فيما بلغني- فقال له: والله يا محمدُ، لتتركن سبَّ آلهتنا، أو لنسُبَّنَّ إلهك الذي تعبد.

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ [الأنعام:١٠٨]. فذُكر لي أن رسولَ الله ﷺ كفَّ عن سبِّ آلهتهم، وجعلَ يدعوهم إلى الله.

والنضرُ بن الحارثِ، كان إذا جلس رسولُ الله ﷺ مجلسًا، فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآنَ، وحذرَ فيه قريشًا ما أصاب الأممَ الخالية؛ خلَفَه في مجلسِه إذا قام، فحدَّثهم عن رُستم السنديدِ، وعن أسفَنديارَ، وملوك فارسَ، ثم يقول: والله ما محمدٌ بأحسن حديثًا مني، وما حديثُه إلا أساطيرُ الأولين، اكتتبَها كما اكتتبتُها.

فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان:٥-٦].

ونزل فيه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم:١٥].

ونزل فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٧-٨]، ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان:٧].

قال ابنُ إسحاقَ: والأخنس بن شَريقٍ حليفُ بني زهرة، وكان من أشرافِ القوم وممن يُستمع منه، فكان يصيبُ من رسولِ الله ﷺ، ويَردُّ عليه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم:١٠-١١] إلى قوله تعالى: ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣].

والوليدُ بن المغيرةَ قال: أيُنزَّل على محمد وأُتركُ وأنا كبيرُ قريشٍ وسيدُها! ويُترك أبو مسعودٍ عمرو بن عمير الثقفيُّ سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين!

فأنزل الله تعالى فيه -فيما بلغني-: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزُّخرُف:٣١] إلى قوله تعالى: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣٢].

وأُبيُّ بن خلف، وعقبةُ بن أبي مُعيط، وكانا متصافِيَين، حَسَنًا ما بينهما، فكان عقبةُ قد جلسَ إلى رسولِ الله ﷺ وسمعَ منه، فبلغ ذلك أُبيًّا، فأتى عقبةَ فقال له: ألم يَبلُغني أنك جالست محمدًا وسمعتَ منه؟! وجهي من وجهك حرامٌ أن أكلمك -واستغلظَ من اليمين- إن أنت جلستَ إليه أو سمعتَ منه، أو لم تأته فتتفُل في وجهه.

ففعل ذلك عدوُّ الله عقبةُ بن أبي معيط لعنه الله، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان:٢٧] إلى قوله تعالى: ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٩].

ومشى أُبيُّ بن خلف إلى رسولِ الله ﷺ بعَظمٍ بالٍ قد ارْفَتَّ(١)، فقال: يا محمد، أنت تزعُمُ أن الله يبعثُ هذا بعد ما أَرَمَّ(٢)، ثم فتَّه في يده، ثم نفخَه في الريح نحو رسولِ الله ﷺ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**نعم، أنا أقولُ ذلك، يبعثه اللهُ وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يُدخِلُك اللهُ النارَ**»، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٧٨-٨٠].

١٤- ذِكرُ من عادَ من أرضِ الحبشةِ لما بلغهُم إسلامُ أهل مكةَ

قال ابنُ إسحاقَ: وبلغ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلامُ أهل مكَّةَ؛ فأقبلوا لِما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكَّةَ، بلغهم أن ما كانوا تَحَدَّثوا به من إسلامِ أهل مكةَ كان باطلًا، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجِوارٍ أو مُستخفيًا.

فجميعُ من قدِم عليه مكةَ من أصحابِه من أرضِ الحبشةِ ثلاثة وثلاثون رجلًا.

---

(١) ارفَتَّ: تحطم وتكسر.

(٢) أَرَمَّ: بلي.

١٥- حديثُ نقضِ الصحيفةِ

قال ابنُ إسحاقَ: قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريشٌ على بني هاشمٍ وبني المطلب نفرٌ من قريش، ولم يُبلِ فيها أحدٌ أحسنَ من بلاءِ هشام بن عمرو؛ وذلك أنه كان ابنَ أخي نضلةَ بن هاشم بن عبد منافٍ لأمِّه، فكان هشامٌ لبني هاشمٍ واصلًا، وكان ذا شرفٍ في قومه، فكان -فيما بلغني- يأتي بالبعيرِ، وبنو هاشمٍ وبنو المطلبِ في الشِّعب ليلًا، قد أوقره طعامًا، حتى إذا أقبلَ به فمَ الشِّعب خلع خِطامه من رأسه، ثم ضرب على جَنبه، فيدخلُ الشعبَ عليهم، ثم يأتي به قد أوقرَه بَزًّا[(١)]، فيفعل به مثل ذلك.

قال ابنُ إسحاقَ: ثم إنه مشى إلى زهيرِ بن أبي أميةَ، وكانت أمُّه عاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير، أقَد رضيت أن تأكلَ الطعامَ، وتلبس الثيابَ، وتنكح النساءَ، وأخوالُك حيث قد علمتَ، لا يُباعون ولا يُبتاعُ منهم، ولا يَنكحون ولا يُنكح إليهم؟! أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوالَ أبي الحكم بن هشامٍ، ثم دعوته إلى مثلِ ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا.

قال: ويحك يا هشامُ! فماذا أصنعُ؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ، والله لو كان معي رجلٌ آخرُ لقمت في نقضها حتى أنقضَها.

قال: قد وجدت رجلًا.

قال: فمن هو؟

---

(١) البَزُّ: الثياب.

قال: أنا.

قال له زهيرٌ: أبغِنا رجلا ثالثًا.

فذهب إلى الُمطعِم بن عدي، فقال له: يا مُطعم أقد رضيتَ أن يَهلك بطنانِ من بَني عبد مَنافٍ، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريشٍ فيه؟! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعًا.

قال: ويحك! فماذا أصنعُ؟ إنما أنا رجل واحدٌ.

قال: قد وجدت ثانيًا.

قال: من هو؟

قال: أنا.

قال: أبغنا ثالثًا.

قال: قد فعلت.

قال: من هو؟

قال: زهيرُ بن أبي أمية.

قال: أبغنا رابعًا.

فذهب إلى أبي البَختريِّ بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمُطعم بن عديٍّ.

فقال: وهل من أحد يُعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: زهيرُ ابن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك.

قال: أبغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعةَ بن الأسودِ، فكلَّمه، وذكر له قرابتهم وحقَّهم.

فقال له: وهل على هذا الأمرِ الذي تدعوني إليه من أحدٍ؟

قال: نعم، ثم سمَّى له القومَ.

فاتَّعَدوا خطمَ الحَجون ليلًا بأعلى مكةَ، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرَهم وتعاقدوا على القيامِ في الصحيفةِ حتى ينقضوها.

وقال زهيرٌ: أنا أبدؤكم، فأكون أوَّلَ من يتكلمُ.

فلما أصبحوا غدَوا إلى أنديتهم، وغدا زهيرُ بن أبي أمية عليه حُلَّةٌ، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناسِ فقال: يا أهل مكةَ، أنأكلُ الطعامَ ونلبَس الثيابَ، وبنو هاشمٍ هلكَى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعُد حتى تُشقَّ هذه الصحيفةُ القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجدِ: كذبت والله لا تُشقُّ.

قال زمعةُ بن الأسود: أنت والله أكذبُ، ما رضينا كتابَها حيث كُتبت.

قال أبو البَختري: صدق زمعةُ، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقرُّ به.

قال المطعم بن عدي: صدقتُما وكذب من قال غيرَ ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كُتب فيها، وقال هشامُ بن عمرو نحوًا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليلٍ، تُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان.

قال: وأبو طالبٍ جالس في ناحيةِ المسجد، فقام المطعمُ إلى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها، إلا «**باسمِك اللهمَّ**».

١٦- ذِكرُ الإسراءِ والمِعراج

قال ابنُ هشامٍ: عن محمد بن إسحاقَ المُطَّلبيِّ قال: ثم أسريَ برسولِ الله ﷺ من المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى، وهو بيتُ المقدسِ من إيلياء، وقد فشا الإسلامُ بمكةَ في قريشٍ، وفي القبائل كلِّها.

قال ابنُ إسحاقَ: وكان في مَسراه، وما ذُكِرَ عنه بلاءٌ وتمحيصٌ، وأمرٌ من أمر الله عَزَّوَجَلَّ في قدرته وسُلطانه، فيه عبرة لأولي الألباب، وهدًى ورحمة وثباتٌ لمن آمن بالله وصدَّق، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقينٍ، فأسرَى به سبحانه وتعالى كيفَ شاءَ، ليُريَه من آياتِه ما أرادَ، حتى عاين ما عاين من أمرِه وسُلطانه العظيم، وقدرته التي يَصنع بها ما يريدُ.

قال ابنُ إسحاقَ: حُدِّثت عن الحسنِ أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بينما أنا نائمٌ في الحِجر، إذ جاءني جبريلُ، فهمزني بقدَمه، فجلستُ فلم أرَ شيئًا، فعدت إلى مَضجعي، فجاءني الثانيةَ فهمزني بقدمِه، فجلست فلم أرَ شيئًا، فعُدت إلى مَضجعي، فجاءني الثالثةَ فهمزني بقدمِه، فجلست، فأخذ بعَضُديَّ، فقمت معه، فخرج بي إلى باب المسجدِ، فإذا دابةٌ أبيضُ، بين البغلِ والحمارِ، في فخِذيه جناحان**

يحفزُ بهما رِجليه، يضعُ يدَه في مُنتهى طرْفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتُني ولا أفوته».

فمضى رسولُ الله ﷺ، ومضى جبريلُ عليه السلامُ معه، حتى انتهى به إلى بيتِ المقدسِ، فوجد فيه إبراهيمَ وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياءِ، فأمَّهم رسولُ الله ﷺ فصلَّى بهم، ثم أُتي بإناءين: في أحدِهما خمرٌ، وفي الآخر لبنٌ.

قال: فأخذ رسولُ الله ﷺ إناءَ اللبنِ فشرِب منه، وترك إناءَ الخمر.

قال: فقال له جبريلُ: هُديتَ للفطرة، وهَدِيَت أمَّتك يا محمدُ، وحُرِّمت عليكم الخمرُ.

ثم انصرف رسولُ الله ﷺ إلى مكَّةَ، فلما أصبحَ غدَا على قريشٍ فأخبرهم الخبرَ.

فقال أكثر الناسِ: هذا والله الإمْرُ[١] البيِّنُ، والله إن العيرَ لتُطردُ شهرًا من مكةَ إلى الشأم مُدبرةً، وشهرًا مُقبلةً، أفيذهبُ ذلك محمدٌ في ليلةٍ واحدةٍ، ويرجع إلى مكةَ؟!

قال: فارتد كثيرٌ ممن كان أسلمَ، وذهب الناسُ إلى أبي بكرٍ، فقالوا له: هل لك يا أبا بكرٍ في صاحبِك، يزعمُ أنه قد جاء هذه الليلةَ بيتَ المقدسِ وصلى فيه ورجعَ إلى مكَّةَ.

(١) الإمْر: العجب المنكر.

قال: فقال لهم أبو بكر: إنكم تَكذِبون عليه. فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجدِ يحدث به الناسَ.

فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدقَ، فما يُعجبُكُم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أن الخبرَ ليأتيه من الله من السماءِ إلى الأرضِ في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأُصدِّقه، فهذا أبعدُ مما تَعجبون منه.

ثم أقبلَ حتى انتهى إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: يا نبيَّ الله، أحدَّثت هؤلاء القومَ أنك جئت بيتَ المقدسِ هذه الليلةَ؟

قال: «**نعم**».

قال: يا نبيَّ الله، فصِفه لي، فإني قد جئته.

قال الحسنُ: فقال رسول الله ﷺ: «**فرُفِعَ لي حتى نظرتُ إليه**»، فجعل رسولُ الله ﷺ يَصفُه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقتَ، أشهدُ أنك رسولُ الله، كلَّما وصف له منه شيئًا، قال: صدقت، أشهد أنك رسولُ الله، حتى إذا انتهى، قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر: «**وأنت يا أبا بكر الصديقُ**»، فيومئذٍ سمَّاه الصديقَ.

قال الحسنُ: وأنزل اللهُ تعالى فيمن ارتدَّ عن إسلامِه لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠].

١٧- قصةُ المِعراجِ

قال ابنُ إسحاقَ: وحدثني من لا أتَّهم عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «لما فرغتُ مما كان في بيتِ المَقدسِ، أُتيَ بالمِعراجِ، ولم أر شيئًا قطُّ أحسنَ منه، وهو الذي يَمُدُّ إليه ميِّتُكم عينيه إذا حضر، فأصعدني صاحبي فيه، حتى انتهى بي إلى بابٍ من أبواب السماءِ، يقالُ له: بابُ الحفَظة، عليه مَلكٌ من الملائكةِ، يُقال له: إسماعيلُ، تحت يديه اثنا عشَر ألفَ ملكٍ، تحت يديْ كُلٍ ملك منهم اثنا عشر ألفَ ملك».

قال: يقول رسولُ الله ﷺ حين حدَّث بهذا الحديث: «﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدَّثر:٣١]، فلما دَخل بي، قال: من هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا محمدٌ. قال: أوقد بُعث؟ قال: نعم. قال: فدعا لي بِخيرٍ».

قال أبو سعيد الخدريُّ في حديثه: إن رسولَ الله ﷺ قال: «لما دخلتُ السماءَ الدنيا، رأيت بها رجلا جالسًا تُعرض عليه أرواحُ بني آدمَ، فيقول لبعضها إذا عُرضت عليه خيرًا ويُسرُّ به، ويقول: روحٌ طيبة خرجت من جسدٍ طيِّبٍ، ويقول لبعضها إذا عُرضت عليه: أُفٍّ، ويعبَس بوجهه ويقول: روحٌ خبيثةٌ خرجت من جسد خبيثٍ».

قال: «قلت: من هذا يا جبريلُ؟

قال: هذا أبوك آدمُ، تُعرض عليه أرواح ذُريَّته، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها، وقال: روح طيبةٌ خرجت من جسدٍ طيب، وإذا مرَّت به روحُ الكافر منهم أففَّ منها وكرهها، وساءَ ذلك، وقال: روحٌ خبيثة خرجت من جسدٍ خبيثٍ».

قال: «ثم رأيت رجالًا لهم مَشافرُ كمشافرِ الإبل[١]، في أيديهم قِطَعٌ من نار كالأَفْهارِ[٢]، يَقذِفونها في أفواهِهم، فتَخرجُ من أدبارِهم. فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريلُ؟

قال: هؤلاء أَكَلَة أموال اليتامى ظُلْمًا».

قال: «ثم رأيت رجالًا لهم بطونٌ لم أر مثلها قطُّ بسبيل آل فِرعون، يمرُّون عليهم كالإبل المَهْيُومةِ[٣] حين يُعرضون على النارِ، يَطؤونهم لا يَقدرون على أن يتحوَّلوا من مكانِهم ذلك».

قال: «قلت: من هؤلاءِ يا جبريلُ؟

قال: هؤلاء أكلَةُ الربا».

قال: «ثم رأيتُ رجالًا بين أيديهم لحمٌ ثمينٌ طيبٌ، إلى جنبه لحم غثٌّ مُنتنٌ، يأكلون من الغثِّ المنتن، ويَتركون السمينَ الطيب».

قال: «قلت: من هؤلاءِ يا جبريلُ؟

قال: هؤلاء الذين يَتركون ما أحلَّ الله لهم من النساءِ، ويذهبون إلى ما حرَّم الله عليهم منهنَّ».

قال: «ثم رأيتُ نساء مُعلَّقات بثُديِّهنَّ، فقلت: من هؤلاء يا جبريلُ؟

قال: هؤلاءِ اللاتي أَدخلن على الرجالِ مَن ليس من أولادِهم».

---

(١) مِشْفَر الإبل: شفته.

(٢) الأَفْهار: جمع فِهْر وهو: الحجر قدر ملء الكف.

(٣) الإبل المَهْيُومَة: العِطاش منها.

قال: «ثم أصعدني إلى السماءِ الثانيةِ، فإذا فيها ابنا الخالةِ: عيسى ابنُ مريمَ، ويحيى بنُ زكريا».

قال: «ثم أصعَدني إلى السماء الثالثةِ، فإذا فيها رجلٌ صورتُه كصورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ».

قال: «قلت: من هذا يا جبريلُ؟

قال: هذا أخوك يُوسفُ بن يعقوبَ».

قال: «ثم أصعدني إلى السماءِ الرابعةِ، فإذا فيها رجلٌ فسألته: من هو؟

قال: هذا إدريسُ».

قال: يقول رسولُ الله ﷺ: «﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم:٥٧]».

قال: «ثم أصعدني إلى السماءِ الخامسةِ، فإذا فيها كهلٌ أبيضُ الرأس واللِّحية، عظيمَ العُثْنُونِ[(١)]، لم أر كهلًا أجملَ منه»، قال: «قلت: من هذا يا جبريلُ؟

قال: هذا المُحبب في قومه هارونُ بن عِمران».

قال: «ثم أصعدني إلى السماءِ السادسةِ، فإذا فيها رجلٌ آدَمُ[(٢)] طويلٌ أقنى[(٣)]، كأنه من رجال شَنوءةَ، فقلت له: من هذا يا جبريلُ؟

قال: هذا أخوك مُوسى بن عِمران.

---

(١) عظيمَ العُثْنُونِ: عظيم اللحية.

(٢) الآدَم: الأسمر.

(٣) القَنَا: ارتفاع في أعلى الأنف بين القصبة والمارن، من غير قبح.

ثم أصعدني إلى السماءِ السابعَةِ، فإذا فيها كَهلٌ جالسٌ على كرسيٍّ إلى باب البيت المَعمورِ، يدخله كُلَّ يوم سبعون ألفَ ملكٍ، لا يرجعون فيه إلى يومِ القيامة، لم أر رجلًا أشبَه بصاحِبِكم، ولا صاحبُكم أشبَه به منه».

قال: «**قلت: من هذا يا جبريلُ؟**

قال: هذا أبوك إبراهيمُ».

قال: «**ثم دَخل بي الجنَّةَ، فرأيت فيها جاريةً لعْساءَ**[١]**، فسألتها: لمن أنتِ؟ وقد أعجبَتني حين رأيتُها، فقالت: لزيد بنِ حارثةَ**»، فبشَّرَ بها رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثةَ.

قال ابنُ إسحاقَ: ومن حديث عبدِ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ - فيما بلغني -: أنَّ جبريلَ لم يصعد به إلى سماءٍ من السماوات إلا قالوا له حين يَستأذنُ في دخولِها: مَن هذا يا جبريلُ؟ فيقول: محمدٌ. فيقولون: أوَقَد بُعث؟ فيقول: نعم. فيقولون: حيَّاه الله من أخٍ وصاحب! حتى انتهى به إلى السماءِ السابعةِ، ثم انتهى به إلى ربِّه، ففرض عليه خمسين صلاةً في كُلِّ يوم.

قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**فأقبلت راجعًا، فلما مررتُ بموسى بن عِمران -ونعمَ الصاحبُ كان لكم- سألني كم فُرضَ عليك من الصلاة؟**

فقلت: خمسين صلاةً كلَّ يوم.

---

(١) اللَّعْس: لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السمرة قليلًا.

فقال: إن الصلاة ثقيلةٌ، وإن أمتك ضعيفةٌ، فارجع إلى ربكَ، فاسأله أن يُخفِّف عنك وعن أُمَّتك.

فرجعتُ فسألت ربي أن يُخفِّف عني وعن أمتي، فوضعَ عني عشرًا.

ثم انصرفتُ فمررتُ على موسى فقال لي مثلَ ذلك، فرجعت فسألت ربِّي، فوضع عني عشرًا.

ثم انصرفت فمررتُ على موسى، فقال لي مثلَ ذلك، فرجعت فسألته فوضعَ عنِّي عشرًا.

ثم لم يزل يقولُ لي مثل ذلك، كلما رجعتُ إليه، قال: فارجع فاسأل، حتى انتهيتُ إلى أن وُضعَ ذلك عني، إلا خمسَ صلوات في كلِّ يوم وليلةٍ.

ثم رجعتُ إلى موسى، فقال لي مثلَ ذلك، فقلت: قد راجعتُ ربي وسألتُه، حتى استحييتُ منه، فما أنا بفاعلٍ، فمن أدَّاهنَّ منكم إيمانًا بهنَّ، واحتسابًا لهن، كان له أجرُ خمسين صلاةً مكتوبة».

١٨- كفايةُ الله أمرَ المُستهزِئين

قال ابنُ إسحاقَ: فأقام رسولُ الله ﷺ على أمرِ الله تعالى صابرًا مُحتسبًا، مُؤديًا إلى قومه النصيحةَ على ما يلقى منهم من التكذيبِ والأذى والاستهزاءِ.

وكان عظماءُ المُستهزئين خمسةَ نفرٍ من قومِهم، وكانوا ذوي أسنانٍ وشرفٍ في قومهم: الأسودُ بنُ المطلبِ، وكان رسولُ الله ﷺ -فيما بلغني- قد دعا عليه لِما كان يبلُغه من أذاه واستهزائِه به، فقال: «**اللهمَّ أعمِ بصرَه، وأثكِله ولَده**».

والأسودُ بن عبد يغوثَ، والوليدُ بن المغيرةِ، والعاصُ بن وائل، والحارثُ بن الطُلاطلةِ.

فلما تمادوا في الشرِّ، وأكثروا برسولِ الله ﷺ الاستهزاءَ، أنزلَ اللهُ تعالى عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ ﴾ [الحِجر:٩٤-٩٦].

١٩- وفاةُ أبي طالبٍ وخديجة

قال ابنُ إسحاقَ: ثم إن خديجةَ بنت خويلدٍ وأبا طالب هلكا في عامٍ واحدٍ، فتتابعت على رسولِ الله ﷺ المصائبُ بهُلك خديجةَ -وكانت له وزيرَ صدقٍ على الإسلام يشكو إليها- وبهُلك عمِّه أبي طالب، وكان له عضُدًا وحرزًا في أمره، ومَنعةً وناصرًا على قومه، وذلك قبل مهاجرِه إلى المدينة بثلاث سنين.

فلما هلكَ أبو طالب نالت قريشٌ من رسولِ الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمعُ به في حياةِ أبي طالب.

قال ابنُ إسحاق: ولما اشتكى أبو طالبٍ، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريشٌ بعضُها لبعض: إن حمزةَ وعمرَ قد أسلما، وقد فشا أمرُ محمدٍ في قبائلِ قريشٍ كلِّها، فانطلِقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخُذْ لنا على ابنِ أخيه، وليعطِه منا، والله ما نأمنُ أن يبتزونا أمرَنا.

قال ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباس قال: مشوا إلى أبي طالب فكلَّموه، وهم أشرافُ قومه: عتبةُ بن ربيعةَ، وشيبةُ بن ربيعةَ، وأبو جهلِ بنُ هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيانَ بنُ حرب، في رجال من أشرافِهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك

منا حيثُ قد علمتَ، وقد حضرك ما ترى، وتَخوَّفنا عليك، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابنِ أخيك، فادعُه؛ فخُذ له منا، وخذْ لنا منه، ليكفَّ عنا، ونَكفَّ عنه، وليدعْنا ودينَنا، وندَعْه ودينَه.

فبعث إليه أبو طالبٍ، فجاءه، فقال: يا ابنَ أخي: هؤلاءِ أشرافُ قومك، قد اجتمعوا لك، ليُعطوك، وليأخُذوا منك.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**نعم، كلمةٌ واحدةٌ تُعطونيها تَملكون بها العربَ، وتَدين لكم بها العجمُ**».

قال: فقال أبو جهلٍ: نعم وأبيك، وعشرُ كلمات.

قال: تقولون: «**لا إله إلا الله، وتَخلعون ما تَعبدون من دونِه**».

قال: فصفَّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتُريد يا محمدُ أن تجعلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا، إنَّ أمرك لعجبٌ!

قال: ثم قال بعضُهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجلُ بمُعطيكم شيئًا مما تُريدون، فانطلِقوا وامضوا على دين آبائِكم، حتى يحكمَ الله بينكم وبينه.

قال: ثم تَفَرَّقوا.

فقال أبو طالب لرسولِ الله ﷺ: والله يا ابنَ أخي، ما رأيتُك سألتهم شَطَطًا.

قال: فلما قالها أبو طالب طمِع رسولُ الله ﷺ في إسلامِه، فجعل يقولُ له: «**أي عمِّ، فأنت، فقُلها أستحلُّ لك بها الشفاعةَ يومَ القيامة**».

قال: فلما رأى حِرصَ رسولِ الله ﷺ عليه، قال: يا ابنَ أخي، والله لولا مخافةُ السُّبَّةِ عليك وعلى بَني أبيك من بعدي، وأن تَظُنَّ قريشٌ أني إنما قلتها جزعًا من الموتِ لقلتُها، لا أقولها إلا لأسرُّك بها.

قال: فلما تقاربَ من أبي طالبٍ الموتُ قال: نظر العباسُ إليه يُحرِّك شفَتيه، قال: فأصغى إليه بأذُنه، قال: فقال يا ابنَ أخي، والله لقد قال أخي الكلمةَ التي أمرتَه أن يقولها.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**لم أسمعْ**»، ثم هلك أبو طالبٍ.

٢٠- سعي الرسولِ إلى ثقيفٍ يطلب النُّصرةَ

قال ابنُ إسحاقَ: ولما هَلكَ أبو طالب نالت قريشٌ من رسولِ الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنالُ منه في حياةِ عمِّه أبي طالبٍ، فخرج رسولُ الله ﷺ إلى الطائفِ، يلتمسُ النُّصرةَ من ثقيفٍ، والمَنعةَ بهم من قومِه، ورجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءَهم به من الله عَزَّوَجَلَّ، فخرج إليهم وحدَه.

قال ابنُ إسحاقَ: عن محمدِ بن كعبٍ القُرظيِّ قال: لما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى الطائفِ، عمد إلى نفرٍ من ثقيف، هم يومئذٍ سادةُ ثقيفٍ وأشرافُهم، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ: عبدُ ياليل بنُ عمرو، ومسعودٌ، وحبيبٌ، وعند أحدِهم امرأةٌ من قريشٍ من بني جمح، فجلس إليهم رسولُ الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلَّمهم بما جاءَهم له من نُصرتِه على الإسلامِ، والقيامِ معه على مَن خالفَه من قومه.

فقال له أحدُهم: هو يَمْرُط[1] ثياب الكعبةِ إن كان اللهُ أرسلَك.

---

(١) يَمْرُط: يمزق.

وقال الآخرُ: أما وجدَ الله أحدًا يُرسله غيرَك!

وقال الثالثُ: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول، لأنت أعظمُ خطرًا من أن أردَّ عليك الكلامَ، ولئن كنت تَكذبُ على الله، ما ينبغي لي أن أكلِّمك.

فقام رسولُ الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خيرِ ثقيفٍ، وقد قال لهم -فيما ذكر لي-: «**إذا فعلتم ما فعلتُم فاكتموا عنِّي**».

وكره رسولُ الله ﷺ أن يَبلُغ قومَه عنه، فيُذْئِرُهم ذلك عليه(١).

فلم يَفعلوا، وأغرَوا به سُفهاءَهم وعبيدَهم، يسبُّونه ويصيحون به، حتى اجتمعَ عليه الناسُ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعُتبةَ بن ربيعةَ وشيبةَ بن ربيعةَ وهما فيه، ورجع عنه من سُفهاءِ ثقيفٍ مَن كان يتبعه، فعمِد إلى ظلِّ حبَلة من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعةَ ينظران إليه، ويَريان ما لقِي من سُفهاءِ أهل الطائفِ، وقد لقي رسولُ الله ﷺ -فيما ذُكر لي- المرأةَ التي من بني جُمَحٍ فقال لها: «**ماذا لقينا من أحمائِك؟**»

فلما اطمأنَّ رسولُ الله ﷺ قال -فيما ذُكر لي-: «**اللهم إليك أشكو ضَعفَ قوتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهَواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربُّ المُستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمُني؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكُن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلماتُ، وصلحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبَك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوَّةَ إلا بك**».

---

(١) يُذْئِرُهم ذلك عليه: يريد يحرش بينهم.

قال: فلما رآه ابنا ربيعةَ: عتبةُ وشيبةُ وما لقي؛ تحرَّكت له رحِمُهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يُقال له: عدَّاس، فقالا له: خُذ قِطفًا من هذا العنبِ، فضعه في هذا الطَّبق، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرجلِ، فقلْ له يأكل منه.

ففعل عدَّاس، ثم أقبلَ به حتى وضعَه بين يدي رسولِ الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ، فلما وضعَ رسولُ الله ﷺ فيه يدَه قال: «**باسم الله**» ثم أكل.

فنظر عدَّاس في وجهِه، ثم قال: والله إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلادِ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**ومن أهلِ أيِّ البلاد أنت يا عَدَّاسُ؟ وما دينُك؟**».

قال: نصرانيٌّ، وأنا رجل من أهل نِينَوى.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**من قريةِ الرَّجلِ الصالح يونسَ بن متَّى**».

فقال له عداسٌ: وما يُدريك ما يونُس بن متَّى؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيٌّ**».

فأكبَّ عداسٌ على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسَه ويديه وقدميه.

قال: يقول ابنا ربيعةَ أحدُهما لصاحبه: أمَّا غلامُك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عدَّاسٌ، قالا له: ويلك يا عداسُ! ما لك تُقبِّلُ رأسَ هذا الرجلِ ويديه وقدميه؟

قال: يا سيِّدي، ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا، لقد أخبرَني بأمرٍ ما يعلمُه إلا نبيٌّ، قالا له: ويحَك يا عداسُ، لا يصرفنَّك عن دينِك، فإن دينك خيرٌ من دينه.

٢١- أمرُ الجنِّ الذين استمَعوا له وآمنوا به

قال: ثم إن رسولَ الله ﷺ انصرفَ من الطَّائف راجعًا إلى مكةَ حين يئسَ من خيرِ ثقيفٍ، حتى إذا كان بنخلةَ قام من جوفِ الليل يُصلِّي، فمر به النفرُ من الجنِّ الذين ذكَرَهم اللهُ تبارك وتعالى، وهم -فيما ذُكر لي- سبعةُ نفرٍ من جن أهل نَصِيبينَ، فاستَمعوا له؛ فلما فرغَ من صلاته ولَّوا إلى قومِهم مُنذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

فقَصَّ الله خبرَهم عليه ﷺ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١﴾ [الأحقاف:٢٩-٣١] وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١] إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة.

٢٢- عَرضُ رسولِ الله ﷺ نفسَه على القبائلِ

قال ابنُ إسحاقَ: ثم قدِم رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، وقومُه أشدُّ ما كانوا عليه من خلافِه وفراقِ دينه، إلا قليلًا مُستضعفين ممن آمن به.

فكان رسولُ الله ﷺ يَعرِض نفسَه في المواسِم إذا كانت على قبائلِ العربِ يدعوهم إلى الله، ويُخبرهم أنه نبيٌّ مرسلٌ، ويسألهم أن يصدقوه ويَمنعوه حتى يبيِّن لهم اللهُ ما بعثه به.

قال ابنُ إسحاقَ: عن ربيعةَ بن عبَّادٍ قال: إني لغلامٌ شابٌّ مع أبي بمنًى ورسولُ الله ﷺ يقفُ على منازلِ القبائلِ من العربِ، فيقول: «**يا بني فلانٍ، إني رسولُ الله إليكم، يأمرُكم أن تَعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا، وأن تَخلعوا ما**

تَعبدون من دونِه من هذه الأندادِ، وأن تُؤمنوا بي، وتُصدِّقوا بي، وتمنعوني، حتى أبيِّنَ عن الله ما بعثني به».

قال: وخلفَه رجلٌ أحولُ وضيءٌ، له غديرتانِ، عليه حُلَّةٌ عدَنية، فإذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من قولِه وما دعا إليه، قال ذلك الرجلُ: يا بَني فلانٍ، إن هذا إنما يَدعوكم أن تَسلخوا اللاتَ والعُزَّى من أعناقِكم، وحُلفاءكم من الحيِّ من بني مالك بن أُقَيش إلى ما جاء به من البِدعة والضلالةِ؛ فلا تُطيعوه ولا تَسمعوا منه.

قال: فقلتُ لأبي: يا أبتِ، من هذا الذي يتبعُه ويردُّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمُّه عبدُ العُزَّى بن عبد المطلب أبو لهبٍ.

[ج - بيعة العقبة وبدء الهجرة]

١- بَدءُ إسلامِ الأنصارِ

قال ابنُ إسحاقَ: فلما أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ إظهارَ دينه، وإعزازَ نبيِّه ﷺ، وإنجازَ مَوعِدِه له، خرجَ رسولُ الله ﷺ في الموسمِ الذي لقيَه فيه النفرُ من الأنصارِ، فعرض نفسَه على قبائلِ العربِ، كما كان يصنعُ في كُلِّ موسم.

فبينما هو عند العَقبة لقيَ رهطًا من الخزرجِ أرادَ الله بهم خيرًا.

قال لهم: «**من أنتم؟**» قالوا: نفرٌ من الخزرجِ.

قال: «**أمن موالي يهود؟**».

قالوا: نعم.

قال: «**أفلا تَجلسون أكلِّمُكم؟**».

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعرضَ عليهم الإسلامَ، وتلا عليهم القرآنَ.

قال: وكان مما صنعَ اللهُ بهم في الإسلامِ، أن يهود كانوا معهم في بلادِهم، وكانوا أهلَ كتابٍ وعِلم، وكانوا هم أهلَ شركٍ وأصحابَ أوثانٍ، وكانوا قد غزوهم ببلادِهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا لهم: إن نبيًّا مبعوثٌ الآن، قد أظلَّ زمانُه، نتبعه فنقتُلكم معه قتل عادٍ وإرم.

فلما كلم رسولُ الله ﷺ أولئك النفرَ، ودعاهم إلى الله، قال بعضُهم لبعض: يا قومُ، تعلَّموا والله، إنه للنبيُّ الذي توعَّدكم به يهودُ، فلا تسبقنَّكم إليه؛ فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه وقبِلوا منه ما عرضَ عليهم من الإسلامِ.

وقالوا: إنا قد تركنا قومَنا، ولا قومَ بينهم من العداوةِ والشرِّ ما بينَهم، فعسى أن يَجمعَهم الله بك فسنَقدَمُ عليهم، فندعوهم إلى أمرِك، ونَعرضُ عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن جمعَهم اللهُ عليه فلا رجلَ أعزَّ منك.

ثم انصرفوا عن رسولِ الله ﷺ راجعينَ إلى بلادِهم، وقد آمنوا وصدَّقوا.

فلما قدِموا المدينةَ إلى قومِهم ذكروا لهم رسولَ الله ﷺ ودعَوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دارٌ من دُور الأنصارِ إلا وفيها ذكرٌ من رسولِ الله ﷺ.

٢- العَقبةُ الأولى ومُصعبُ بن عُميرٍ

حتى إذا كان العامُ الُمقبلُ وافى الموسمَ من الأنصارِ اثنا عشَر رجلًا، فلقوه بالعقبةِ، فبايعوا رسولَ الله ﷺ على بيعةِ النساءِ(١)، وذلك قبل أن تُفترضَ عليهم الحربُ.

قال ابنُ إسحاقَ: عن عُبادةَ بن الصامتِ قال: كنت فيمن حضرَ العقبةَ الأولى، وكنا اثني عشَر رجلًا، فبايَعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعةِ النساءِ، وذلك قبل أن تُفترضَ الحربُ، على ألا نُشرك بالله شيئًا، ولا نَسرقَ، ولا نزني، ولا نَقتلَ أولادَنا، ولا نأتيَ ببُهتانٍ نفتريه من بين أيدينا وأرجُلنا، ولا نَعصيه في معروفٍ، فإن

(١) بيعة النساء: أي لا قتال فيها، وقد ذكر الله تعالى بيعة النساء في القرآن، فقال: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة:١٢].

وفَّيتم فلكُم الجنةُ، وإن غَشِيتم من ذلك شيئًا فأمرُكم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، إن شاء عذَّب وإن شاء غَفَرَ.

قال ابنُ إسحاقَ: فلما انصرفَ عنه القومُ، بعث رسولُ الله ﷺ معهم مصعبَ بنَ عميرٍ، وأمره أن يُقرئهم القرآنَ، ويُعلِّمهم الإسلامَ، ويُفقِّهَهُم في الدين، فكان يُسمى المقرئَ بالمدينة مصعب، وكان منزلُه على أسعدَ بن زُرارةَ.

٣- إسلامُ سعدِ بن مُعاذٍ وأسيدِ بن حُضيرٍ

قال ابنُ إسحاقَ: حدَّثني عُبيدُ الله بن الْمُغيرة وعبدُ الله بن أبي بكرٍ: أن أسعدَ بنَ زرارةَ خرج بمصعبِ بن عُمير يريد به دارَ بني عبد الأشهلِ، ودارَ بني ظَفَر، وكان سعدُ بن معاذ ابنَ خالة أسعدَ بن زُرارةَ، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظَفَر على بئرٍ يُقال لها: بئر مَرقٍ، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجالٌ ممن أسلمَ، وسعدُ بن معاذٍ، وأُسيدُ بن حُضير، يومئذ سيدَا قومِهما من بني عبد الأشهلِ، وكلاهُما مُشركٌ على دين قومِه، فلما سمعا به قال سعدُ بن مُعاذ لأسيد بن حُضيرٍ: لا أبا لك، انطلقْ إلى هذين الرجلين اللذينِ قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءَنا؛ فازجُرهما وانههما عن أن يأتيا دارَينا، فإنَّه لولا أن أسعدَ بن زرارةَ مني حيث قد علمتَ كفيتُك ذلك، هو ابنُ خالتي، ولا أجد عليه مقدَّمًا.

قال: فأخذ أسيدُ بن حضير حربَته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعدُ بن زرارةَ، قال لمصعبِ بن عميرٍ: هذا سيدُ قومِه قد جاءك، فاصدُق اللهَ فيه، قال مصعبٌ: إن يجلس أكلِّمْه.

قال: فوقف عليهما متشتمًا.

فقال: ما جاء بكما إلينا، تُسفِّهان ضُعفاءَنا؟! اعتزِلانا إن كانت لكما بأنفُسِكما حاجةٌ، فقال له مصعبٌ: أو تجلسُ فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلتَه، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفت، ثم ركَز حربَته وجلس إليهما، فكلَّمه مصعبٌ بالإسلامِ، وقرأ عليه القرآنَ، فقالا -فيما يذكر عنهما-: والله لعَرفنا في وجهِه الإسلامَ قبل أن يتكلَّم في إشراقِه وتسهُّله.

ثم قال: ما أحسن هذا الكلامَ وأجمَله! كيف تَصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدينِ؟

قالا له: تَغتسلُ فتطهَّر، وتُطهِّر ثوبيك، ثم تَشهَدُ شهادةَ الحق، ثم تُصلي.

فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتَشهَّد شهادةَ الحق، ثم قام فركع ركعتينِ، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتَّبعكما لم يتخلَّف عنه أحدٌ من قومه، وسأرسلُه إليكما الآنَ، سعدَ بن معاذ، ثم أخذ حربَته وانصرف إلى سعدٍ وقومِه وهم جلوسٌ في ناديهم، فلما نظر إليه سعدُ بن معاذ مُقبلًا قال: أحلفُ بالله لقد جاءكم أسيدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عِندكم، فلما وقفَ على النادي قال له سعدٌ: ما فعلتَ؟

قال: كلَّمت الرجلينِ، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعلُ ما أحببتَ، وقد حُدِّثت أن بني حارثةَ قد خرجوا إلى أسعدَ بن زرارةَ ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابنُ خالتك، ليخفِروك.

قال: فقام سعدٌ مُغضبًا مبادرًا، تخوُّفًا للذي ذُكر له من بني حارثةَ، فأخذ الحربةَ من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمعَ منهما، فوقف عليهما مُتشتِّمًا، ثم قال لأسعدَ بن زرارةَ: يا أبا أُمامةَ، أما والله، لولا ما بيني وبينك من القرابةِ ما رُمتَ هذا مني، أتغشانا في دارَيْنا بما نكرَه -وقد قال أسعدُ بنُ زرارةَ لمصعب بن عميرٍ: أيْ مصعبُ، جاءك والله سيدُ مَن وراءه من قومِه، إن يتَّبعك لا يتخلَّف عنك منهم اثنانِ- قال: فقالَ له مصعبٌ: أو تقعدُ فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا ورغبت فيه قبِلته، وإن كرِهته عزلنا عنك ما تكرهُ؟

قال سعدٌ: أنصفتَ.

ثم ركَز الحربَة وجلس، فعرض عليه الإسلامَ، وقرأ عليه القرآنَ.

قالا: فعرَفنا والله في وجهِ الإسلامَ قبل أن يتكلَّم، لإشراقِه وتسهُّله.

ثم قال لهما: كيف تَصنعون إذا أنتم أسلمتُم ودخلتُم في هذا الدين؟

قالا: تَغتسلُ فتَطهَّر وتُطهِّر ثوبيك، ثم تَشهدُ شهادةَ الحقِّ، ثم تصلي ركعتين.

قال: فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادةَ الحقِّ، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبلَ عامدًا إلى نادي قومِه ومعه أسيدُ بن حضيرٍ.

قال: فلما رآه قومه مُقبلًا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجهِ الذي ذهب به من عندِكم، فلما وقفَ عليهم قال: يا بني عبدِ الأشهل، كيف تعلمون أمرِي فيكم؟

قالوا: سيِّدُنا وأوصلنا وأفضلُنا رأيًا، وأيمننا نقيبةً.

قال: فإن كلامَ رجالِكم ونسائِكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله وبرسولِه.

قالا: فوالله ما أمسى في دارِ بني عبدِ الأشهلِ رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلمًا ومسلمةً، ورجع أسعدُ ومصعبٌ إلى منزل أسعدَ بن زرارةَ، فأقام عنده يدعو الناسَ إلى الإسلامِ، حتى لم تبق دارٌ من دور الأنصارِ إلا وفيها رجالٌ ونساءٌ مسلمون.

٤- أمرُ العقبةِ الثانيةِ

قال ابنُ إسحاقَ: ثم إن مصعبَ بن عميرٍ رجع إلى مكَّةَ، وخرج من خرج من الأنصارِ من المسلمين إلى الموسمِ مع حُجاجِ قومهم من أهل الشركِ، حتى قدموا مكَّةَ، فواعدوا رسولَ الله ﷺ العقبةَ، من أوسطِ أيام التشريقِ، حين أرادَ الله بهم ما أرادَ من كرامتِه، والنصرِ لنبيِّه، وإعزازِ الإسلام وأهلِه، وإذلالِ الشرك وأهلِه.

قال ابنُ إسحاقَ: قال كعبٌ: فلما فرغنا من الحجِّ، وكانت الليلةُ التي واعدنا رسولَ الله ﷺ لها نِمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثُلثُ الليلِ خرجنا من رِحالنا لمعاد رسولِ الله ﷺ، نتسلَّلُ تسلُّلَ القَطا مُستخْفِين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبةِ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتانِ من نسائِنا.

قال: فاجتمعنا في الشِّعب ننتظرُ رسولَ الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمُّه العباسُ بنُ عبدِ المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومِه، إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمرَ ابنِ أخيه ويتوثَّق له.

فلما جلسَ كان أوَّلَ متكلمٍ العباسُ بن عبد المطلبِ، فقال: يا معشرَ الخزرجِ – قال: وكانت العربُ إنما يُسمُّون هذا الحيَ من الأنصار: الخزرجَ، خزرجها وأوسَها-: إن محمدًا منا حيث قد علمتُم وقد منعناهُ من قومِنا، ممن هو على مثلِ رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومِه ومَنعةٍ في بلدِه، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم واللحوقَ بكم، فإن كنتم تَرون أنَّكم وافون له بما دعوتُموه إليه، ومانِعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتُم من ذلك.

وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذِلوه بعد الخروجِ به إليكم، فمِن الآن فدعوه؛ فإنه في عِزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده.

قال: فقلنا له: قد سَمعنا ما قلتَ، فتكلمْ يا رسولَ الله، فخُذ لنفسِك ولربِّك ما أحببتَ.

قال: فتكلم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآنَ، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلامِ، ثم قال: «**أبايعُكم على أن تمنعوني مما تمنعونَ منه نساءَكم وأبناءكم**».

قال: فأخذ البراءُ بن معرورٍ بيدِه، ثم قال: نعم، والذي بعثَك بالحقِّ نبيًّا، لنمنَعَنَّك مما نمنعُ منه أُزرَنا(١)، فبايِعنا يا رسولَ الله، فنحن والله أبناءُ الحروبِ، وأهلُ الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابرٍ.

قال: فاعترض القولَ -والبراءُ يكلِّم رسولَ الله ﷺ- أبو الهيثم بن التَّيِّهانِ، فقال: يا رسولَ الله، إن بينَنا وبين الرجالِ حِبالًا، وإنا قاطِعوها -يعني: اليهودَ- فهل عسيتَ إن نحن فعَلنا ذلك ثمَّ أظهَرَك اللهُ أن ترجِعَ إلى قومِك وتدَعَنا؟

---

(١) أُزرَنا: من الإزار، كناية عن النساء.

قال: فتبسم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «**بل الدَّمَ الدَّمَ، والهدَمَ الهدَمَ، أنا منكم وأنتم منِّي، أحاربُ من حارَبتم، وأسالمُ من سالمتُم**».

قال: وقد كان قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أخرِجوا إليَّ منكم اثني عشَرَ نقيبًا، ليكونوا على قومِهم بما فيهم**».

فأخرَجوا منهم اثنَي عشَر نقيبًا، تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوس.

قال ابنُ إسحاقَ: فحدثني عبدُ الله بن أبي بكر، أن رسولَ الله ﷺ قال للنُّقَباءِ: «**أنتم على قومِكم بما فيهم كُفلاءُ، ككفالةِ الحواريين لعيسى ابنِ مريمَ، وأنا كفيلٌ على قومي**» -يعني: المسلمين- قالوا: نعم.

فلما بايعنا رسولَ الله ﷺ صرخَ الشيطانُ من رأسِ العقبةِ بأنفذِ صوتٍ سمعته قطُّ: يا أهلَ الجُباجِب -والجُباجبُ: المنازلُ- هل لكم في مُذمَّمٍ والصُّباةُ معه، قد اجتمعوا على حربِكم.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**هذا أزَبُّ العقبةِ، هذا ابن أَزْيبَ، أتسمعُ، أي عدوَّ الله، أما والله لأفرُغَنَّ لك**».

فقال له العباسُ بن عُبادةَ بنِ نضلةَ: والله الذي بعثك بالحقِّ، إن شئت لنُميلنَّ على أهلِ مِنًى غدًا بأسيافِنا؟

قال: فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لم نُؤمَر بذلك، ولكن ارجِعوا إلى رِحالِكم**».

قال: فرجعنا إلى مَضاجِعنا فنِمنا عليها حتى أصبَحنا.

قال: فلما أصبحنا غدَت علينا جلةُ قريشٍ، حتى جاءونا في مَنازِلنا، فقالوا: يا معشرَ الخزرجِ، إنه قد بلَغنا أنكم قد جئتُم إلى صاحِبنا هذا تَستخرِجونَه من بين أظهُرِنا، وتُبايِعونه على حربِنا، وإنه والله ما من حيٍّ من العربِ أبغضُ إلينا أن تنشبَ الحربُ بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعَث مَن هناك من مُشركي قومِنا يَحلفون بالله ما كان من هذا شيءٌ، وما علِمناه.

قال: وقد صَدقوا؛ لم يعلموه.

قال: ونفرَ الناسُ من منًى، فتنطَّس القومُ الخبرَ(١)، فوجدوه قد كان، وخَرجوا في طلبِ القومِ، فأدركوا سعدَ بن عُبادةَ بأذاخرَ، والمنذرَ بن عمرو أخا بَني ساعدةَ بن كعبِ بن الخزرجِ، وكلاهُما كان نقيبًا.

فأما المنذرُ فأعجزَ القومَ، وأما سعدٌ فأخذوه، فربطوا يديه إلى عُنقِه بنِسعِ(٢) رحلِه، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكَّةَ يَضربونَه، ويَجذبونَه بجُمَّتِه، وكان ذا شعرٍ كثيرٍ.

قال: فوالله، إني لفي أيديهم يَسحَبونني إذ أوى لي رجلٌ ممن كان معَهم، فقال ويحَك! أما بينك وبين أحدٍ من قريشٍ جوارٌ ولا عهدٌ؟

قال: قلت: بلى والله، لقد كنت أُجِيرُ لجبيرِ بن مطعِم بن عديٍّ بن نوفل بن عبد مَناف تُجارَهُ، وأمنعهم ممن أرادَ ظُلمَهم ببلادي، وللحارثِ بن حرب بن أميَّة بن عبد شمسِ بن عبد منافٍ.

---

(١) تَنطَّسُوا الخبر: بالغوا في البحث عنه.

(٢) النِّسْع: سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره.

قال: ويحَك! فاهتِف باسم الرجلينِ، واذكر ما بينَك وبينهما.

قال: ففعلتُ؛ وخرج ذلك الرجلُ إليهما، فوجدَهما في المسجدِ عند الكعبةِ، فقال لهما: إن رجلًا من الخزرجِ الآنَ يُضربُ بالأبطحِ ويهتِفُ بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جِوارًا.

قالا: ومن هو؟

قال: سعدُ بن عُبادة.

قالا: صدقَ والله، إن كان ليُجيرُ لنا تجارَنا، ويمنعهم أن يُظلموا ببلِده.

قال: فجاءا فخلَّصا سعدًا من أيديهم، فانطلق.

٥- شروطُ البيعةِ في العقبةِ الأخيرةِ

قال ابنُ إسحاقَ: وكان في بيعةِ الحربِ، حين أذِن الله لرسولِه ﷺ في القتالِ شروطًا سوى شرطِه عليهم في العقبةِ الأولى.

كانت الأولى على بيعةِ النساء، وذلك أن اللهَ تعالى لم يكن أذنَ لرسولِه ﷺ في الحربِ، فلما أذن اللهُ له فيها وبايعهم رسولُ الله ﷺ في العقبةِ الأخيرةِ على حربِ الأحمرِ والأسودِ، أخذ لنفسِه واشترطَ على القوم لربِّه، وجعل لهم على الوفاءِ بذلك الجنَّةَ.

قال ابنُ إسحاقَ: عن عبادةَ بن الصامتِ -وكان أحدَ النقباءِ- قال: بايعنا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الحربَ -وكان عُبادةُ من الاثني عشرَ الذين بايعوه في العقبةِ الأولى على بيعةِ النساءِ- على السمعِ والطاعةِ، في عُسرنا ويُسرنا ومَنشَطنا

ومَكرَهنا، وأثرةٍ علينا، وألا نُنازعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقولَ بالحقِّ أينما كنا، لا نخافُ في الله لومةَ لائمٍ.

٦- نُزولُ الأمرِ لرسولِ الله ﷺ في القتالِ

عن محمدِ بن إسحاقَ المُطَّلبي: وكان رسولُ الله ﷺ قبل بيعةِ العقبةِ لم يُؤذَن له في الحربِ ولم تُحلَّل له الدماءُ، إنما يُؤمرُ بالدعاءِ إلى الله والصبرِ على الأذَى، والصفحِ عن الجاهلِ، وكانت قريشٌ قد اضطهدت من اتَّبعه من المهاجرينَ حتى فَتنوهم عن دينِهم ونفوهم من بلادِهم، فهم من بين مَفتونٍ في دينه، ومن بين مُعذَّب في أيديهم، وبين هاربٍ في البلادِ فِرارًا منهم: منهم مَن بأرض الحبشةِ، ومنهم مَن بالمدينة، وفي كلِّ وجهٍ.

فلما عتت قريشٌ على الله عَزَّوَجَلَّ، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامةِ، وكذَّبوا نبيَّه ﷺ، وعذَّبوا ونفوا من عبدَه ووحَّده وصدق نبيَّه واعتصمَ بدينه، أذن اللهُ عَزَّوَجَلَّ لرسولِه ﷺ في القتالِ والانتصارِ ممن ظلمَهم وبغى عليهم.

فكانت أوَّلَ آية أنزلت في إذنِه له في الحربِ، وإحلالِه له الدماء والقتال، لمن بغى عليهم -فيما بلَغني- عن عُروةَ بن الزبيرِ وغيرِه من العُلماءِ، قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج:٣٩].

قال ابنُ إسحاقَ: فلما أذنَ اللهُ تعالى له ﷺ في الحربِ، وبايعه هذا الحيُّ من الأنصارِ على الإسلام والنُّصرة له ولمن اتَّبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسولُ الله ﷺ أصحابَه من المهاجرينَ من قومِه، ومن معه بمكَّةَ من المسلمين،

بالخروجِ إلى المدينةِ والهجرةِ إليها، واللحوقِ بإخوانِهم من الأنصارِ، وقال: «**إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها**».

فخرجوا أرسالًا[1]، وأقام رسولُ الله ﷺ بمكَّةَ ينتظرُ أن يأذنَ له ربُّه في الخروجِ من مكَّةَ، والهجرة إلى المدينةِ.

٧- ذِكرُ المهاجرين إلى المدينةِ

فكان أوَّلَ من هاجر إلى المدينةِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ من الْمُهاجرين من قريشٍ، من بني مَخزوم: أبو سلمَةَ بن عبدِ الأسد، ثم كان أوَّلَ من قدِمها من الْمُهاجرين بعد أبي سلمةَ: عامرُ بن ربيعةَ معه امرأتُه ليلى بنتُ أبي حَثمةَ، ثم عبدُ الله بن جحشٍ احتملَ بأهلِه وبأخيه عبدُ بن جحشٍ، ثم خرج عمرُ بنُ الخطاب، وعيَّاشُ بن أبي ربيعةَ المخزومي، حتى قدِما المدينةَ، ثم تتابعَ الْمُهاجرون.

٨- هِجرةُ الرسولِ ﷺ

وأقام رسولُ الله ﷺ بمكَّةَ بعد أصحابِه من الْمُهاجرين ينتظرُ أن يُؤذَن له في الهجرةِ، ولم يتخلَّف معه بمكَّةَ أحدٌ من المهاجرين إلا من حُبسَ أو فُتن، إلا عليُّ بن أبي طالب، وأبو بكرِ بنُ أبي قحافة الصدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان أبو بكرٍ كثيرًا ما يستأذن رسولَ الله ﷺ في الهجرةِ، فيقولُ له رسولُ الله ﷺ: «**لا تَعجلْ لعلَّ اللهَ يجعلُ لك صاحبًا**»، فيطمع أبو بكرٍ أن يكونَهُ.

قال ابنُ إسحاقَ: ولما رأت قريشٌ أن رسولَ الله ﷺ قد صارت له شيعةٌ وأصحابٌ من غيرِهم بغير بلدِهم، ورأوا خروج أصحابِه من الْمُهاجرين إليهم،

(١) أَرْسالًا: جماعة في إثر جماعة.

عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم مَنعةً، فحَذِروا خروجَ رسولِ الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أَجمَعَ لحربهم.

فاجتَمعوا له في دار الندوة -وهي دارُ قصيٍّ بنِ كلاب التي كانت قريشٌ لا تقضي أمرًا إلا فيها- يتَشاورون فيها ما يَصنعون في أمرِ رسولِ الله ﷺ حين خافوه.

قال ابنُ إسحاقَ: عن عبد الله بن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما أجمعوا لذلك، واتَّعدوا أن يَدخلوا في دار الندوةِ ليَتشاوروا فيها في أمرِ رسول الله ﷺ، غَدوا في اليوم الذي اتَّعدوا له، وكان ذلك اليوم يُسمى يومَ الزحمة، فاعترضَهم إبليسُ في هيئةِ شيخ جليلٍ عليه بَتْلَةٌ، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفًا على بابها، قالوا: مَن الشيخُ؟

قال: شيخٌ من أهل نجدٍ سمعَ بالذي اتَّعدتم له، فحضرَ معكم ليَسمع ما تقولون، وعسى ألا يُعدِمكم منه رأيًا ونُصحًا.

قالوا: أجل، فادخُلْ، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرافُ قريشٍ، ومن كان معهم وغيرُهم ممن لا يُعدُّ من قريشٍ.

فقال بعضُهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمرِه ما قد رأيتُم، فإنا والله ما نأمَنُه على الوثوبِ علينا فيمن قد اتَّبعه من غيرِنا؛ فأجمِعوا فيه رأيًا.

قال: فتشاوروا ثم قال قائلٌ منهم: احبِسوه في الحديدِ، وأغلِقوا عليه بابًا، ثم تَربَّصوا به ما أصابَ أشباهَه من الشعراءِ الذين كانوا قبلَه: زهيرًا والنابغةَ ومن مضى منهم من هذا الموتِ، حتى يصيبَه ما أصابَهم.

فقال الشيخُ النجديُّ: لا والله، ما هذا لكم برأيٍ، والله لئن حبستُموه -كما تقولون- ليَخرُجنَّ أمرُه من وراءِ الباب الذي أغلقتُم دونَه إلى أصحابِه، فلأوشكوا أن يَثِبوا عليكم، فيَنزِعوه من أيديكم، ثم يُكاثروكم به، حتى يَغلبوكم على أمرِكم، ما هذا لكم برأيٍ؛ فانظروا في غيرِه، فتَشاوروا.

ثم قال قائلٌ منهم: نُخرجُه من بين أظهُرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنا فوالله ما نُبالي أين ذهب، ولا حيثُ وقع إذا غاب عنا وفرَغنا منه؛ فأصلحْنا أمرَنا وأُلفتَنا كما كانت.

فقال الشيخُ النجديُّ: لا والله، ما هذا لكم برأيٍ، ألم تروا حُسنَ حديثِه، وحلاوةَ مَنطقِه، وغَلبَته على قُلوب الرجالِ بما يأتي به، والله لو فعلتُم ذلك ما أمِنتم أن يحلَّ على حيٍّ من العرب، فيغلِبَ عليهم بذلك من قولِه وحديثه حتى يُتابعوه عليه، ثم يَسيرُ بهم إليكم حتى يَطأَكُم بهم في بلادِكم، فيأخذ أمرَكم من أيديكم، ثم يفعلُ بكم ما أرادَ، دبِّروا فيه رأيًا غير هذا.

قال: فقال أبو جهلِ بن هشامٍ: والله إن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتُم عليه بعدُ.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخُذَ من كل قبيلةٍ فتًى شابًّا جليدًا نسيبًا وسيطًا فِينا، ثم نعطي كُلَّ فتًى منهم سيفًا صارمًا، ثم يَعمدوا إليه، فيَضربوه بها ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيَقتلوه؛ فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمُه في القبائلِ جميعًا، فلم يَقدر بنو عبدِ مناف على حربِ قومِهم جميعًا، فرضُوا منا بالعقلِ، فعقلناه لهم.

قال: فقال الشيخُ النجديُّ: القولُ ما قالَ الرجلُ، هذا الرأيُ الذي لا رأي غيرَه، فتفرقَ القومُ على ذلك وهم مُجمعون له.

فأتى جبريلُ عليه السلامُ رسولَ الله ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلةَ على فراشِك الذي كنت تبيتُ عليه.

قال: فلما كانت عَتَمةٌ من الليلِ اجتمعوا على بابه يَرصُدونه متى ينام؛ فيَثِبون عليه.

فلما رأى رسولُ الله ﷺ مكانَهم، قال لعليٍّ بن أبي طالب: «**نَمْ على فِراشي وتَسَجَّ ببُردي هذا الحَضرميِّ الأخضرِ، فنَم فيه، فإنه لن يَخلُصَ إليك شيءٌ تكرهُهُ منهم**»، وكان رسولُ الله ﷺ ينامُ في بُرده ذلك إذا نامَ.

قال ابنُ إسحاقَ: عن محمدِ بن كعبٍ القرظيِّ قال: لما اجتَمعوا له، وفيهم أبو جهلِ بن هشامٍ، فقال وهُم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتُموه على أمرِه، كنتم ملوكَ العرب والعَجَم، ثم بُعثتُم من بعد موتِكم، فجعلت لكم جنانٌ كجنان الأُردُنِّ، وإن لم تَفعلوا كان له فيكم ذَبحٌ، ثم بُعثتُم من بعد مَوتكم، ثم جُعلت لكم نارٌ تُحرقون فيها.

قال: وخرجَ عليهم رسولُ الله ﷺ، فأخذ حَفنةً من ترابٍ في يدِه، ثم قال: «**أنا أقولُ ذلك، أنت أحدُهم**».

وأخذ الله تعالى على أبصارِهم عنه، فلا يرونَه، فجعلَ ينثُر ذلك الترابَ على رءوسِهم وهو يتلو هؤلاء الآياتِ من يس: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩﴾ [يس:١-٩]، حتى فرغ رسولُ الله ﷺ من

هؤلاء الآياتِ، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وَضع على رأسِه ترابًا، ثم انصرفَ إلى حيث أراد أن يذهبَ.

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تَنتظرون هاهنا؟

قالوا: محمدًا.

قال: خيَّبكم اللهُ! قد والله خرج عليكم محمدٌ، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضعَ على رأسِه ترابًا، وانطلَقَ لحاجَته، أفما ترون ما بِكم؟

قال: فوضع كلُّ رجل منهم يدَه على رأسِه، فإذا عليه ترابٌ، ثم جعلوا يتطلَّعون فيرون عليًّا على الفراشِ مُتسجيًا ببُرُدِ رسولِ الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائمًا عليه بردُه.

فلم يَبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقامَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الفِراشِ فقالوا: والله لقد كان صدَقنا الذي حدَّثنا.

قال ابنُ إسحاقَ: وأذِن الله تعالى لنبيِّه ﷺ عند ذلك في الهجرةِ.

قال ابنُ إسحاقَ: وكان أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا ذا مالٍ، فكان حين استأذن رسولَ الله ﷺ في الهجرةِ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**لا تَعجل، لعل اللهَ يجعل لك صاحبًا**» قد طمع بأن يكون رسولُ الله ﷺ إنما يَعني نفسَه حين قال له ذلك، فابتاعَ راحِلتين فاحتَبسهما في دارِه يَعلفهما إعدادًا لذلك.

قال ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ أمِّ المؤمنين أنها قالت: كان لا يُخطئ رسولُ الله ﷺ أن يأتيَ بيتَ أبي بكرٍ أحدَ طرفِي النهارِ: إما بُكرةً، وإما عشيةً، حتى إذا كان اليومُ الذي أُذن فيه لرسولِ الله ﷺ في الهجرَةِ والخروجِ من مكَّةَ من بين ظَهرَي قومِه أتانا رسولُ الله ﷺ بالهاجرةِ، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها.

قالت: فلما رآه أبو بكرٍ قال: ما جاء رسولُ الله ﷺ هذه الساعةَ إلا لأمرٍ حدَثَ.

قالت: فلما دخل، تأخَّر له أبو بكرٍ عن سريرِه، فجلس رسولُ الله ﷺ، وليس عند أبي بكرٍ إلا أنا وأختي أسماءُ بنت أبي بكر، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَخرِج عنِّي مَن عِندَك**».

فقال: يا رسولَ الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداكَ أبي وأمي؟!

فقال: «**إن اللهَ قد أذِن لي في الخُروج والهجرةِ**».

قالت: فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسولَ الله.

قال: «**الصحبةَ**».

قالت: فوالله ما شَعُرت قطُّ قبل ذلك اليومِ أن أحدًا يَبكي من الفرَحِ، حتى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ.

ثم قال: يا نبيَّ الله، إنَّ هاتين راحلتانِ قد كنت أعددتُهما لهذا.

فاستأجرا عبدَ الله بن أرْقَطَ -رجلًا من بني الدُّئل بن بكرٍ، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهمِ بن عمرو، وكان مُشركًا- يدلُّهما على الطريقِ، فدفعا إليه راحلتَيهما، فكانتا عنده يَرعاهما لِميعادِهما.

قال ابنُ إسحاقَ: فلما أجمعَ رسولُ الله ﷺ الخروجَ أتى أبا بكر بنَ أبي قُحافةَ، فخرجا من خَوخَةٍ لأبي بكر في ظهر بيتِه، ثم عمِد إلى غارٍ بثورٍ -جبلٍ بأسفلَ مكةَ- فدخلاه.

وأمر أبو بكرٍ ابنَه عبدَ الله بن أبي بكر أن يتسمَّع لهما ما يقولُ الناسُ فيهما نهارَه، ثم يأتيهما إذا أمسَى بما يكونُ في ذلك اليومِ من الخبرِ.

وأمر عامرَ بن فُهيرةَ مولاه أن يرعى غنَمه نهارَه، ثم يُريحُها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغارِ.

وكانت أسماءُ بنتُ أبي بكر تأتيهما من الطعامِ إذا أمست بما يُصلحهما.

قال ابنُ إسحاقَ: فأقامَ رسولُ الله ﷺ في الغارِ ثلاثًا ومعه أبو بكر وجَعلت قريشٌ فيه حين فقَدوه مئةَ ناقةٍ لمن يَردُّه عليهم.

وكان عبدُ الله بن أبي بكر يكونُ في قريشٍ نهارَه معهم يسمع ما يأتَمِرون به، وما يقولونَ في شأنِ رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ، ثم يأتيهما إذا أمسَى فيُخبرُهما الخبرَ.

وكان عامرُ بن فُهيرةَ -مولى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يرعَى في رُعيانِ أهل مكَّةَ، فإذا أمسى أراح عليهما غنمَ أبي بكر؛ فاحتَلبا وذبَحا، فإذا عبدُ الله بن أبي بكر غدَا من عندهما إلى مكَّةَ، اتَّبع عامرُ بن فهيرةَ أثرَه بالغنمِ حتى يُعَفِّي عليه، حتى إذا مضت الثلاثُ، وسكنَ عنهما الناسُ أتاهما صاحبُهما الذي استأجَراه ببعيرَيهما وبعيرٍ له، وأتتهما أسماءُ بنت أبي بكرٍ رضى الله عنهما بسُفرتِهما، ونَسيت أن تجعلَ لها عِصامًا، فلما ارتحلا ذهبت لتُعلِّقَ السفرةَ فإذا ليس لها عِصامٌ، فتحل نطاقَها فتجعله عصامًا، ثم علَّقتها به، فكان يُقال لأسماءَ بنتِ أبي بكر: ذاتُ النطاق لذلك.

قال ابنُ إسحاقَ: فلما قرَّب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الراحلتينِ إلى رسولِ الله ﷺ قدَّم له أفضلَهما، ثم قال: اركبْ، فِداك أبي وأمي.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنِّي لا أركبُ بعيرًا ليس لي**».

قال: فهي لك يا رسولَ الله، بأبي أنتَ وأمِّي.

قال «**لا، ولكن ما الثمنُ الذي ابتعتَها به؟**».

قال: كذا وكذا.

قال: «**قد أخذتُها به**».

قال: هي لك يا رسول الله.

فركِبا وانطلقا وأردفَ أبو بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عامرَ بنَ فُهيرةَ مولاه خلفَه؛ ليخدِمهما في الطريقِ.

قالت: فمكثنا ثلاثَ ليالٍ وما ندري أين وجهُ رسولِ الله ﷺ، حتى أقبل رجلٌ من الجِنِّ من أسفلِ مكةَ، يتغنى بأبياتٍ من شعرٍ غناء العربِ، وإن الناسَ ليتَّبعونه يَسمعون صوتَه وما يَرونه حتى خرج من أعلى مكةَ وهو يقول:

جزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائِه ❋❋ رفيقينِ حلَّا خيمَتيْ أمِّ مَعبَدِ

قال ابنُ إسحاقَ: قالت أسماءُ بنتُ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فلما سمعنا قولَه عرفنا حيث وجهُ رسولِ الله ﷺ، وأن وجهَه إلى المدينةِ.

وكانوا أربعةً: رسولُ الله ﷺ، وأبو بكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعامرُ بن فُهيرةَ مولى أبي بكر، وعبدُ الله بن أرقطَ دليلُهما.

قال ابنُ إسحاقَ: عن سراقةَ بن مالكٍ قال: لما خرج رسولُ الله ﷺ من مكَّةَ مُهاجرًا إلى المدينةِ جعلت قريشٌ فيه مئةَ ناقةٍ لمن ردَّه عليهم. قال: فبينا أنا جالسٌ في نادي قومي إذ أقبلَ رجلٌ منا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكبَةً ثلاثةً مروا عليَّ آنفًا، إني لأُراهم محمدًا وأصحابَه. قال: فأومأت إليه بِعيني: أن اسكُت. ثم قلتُ: إنما هم بنو فلان يَبتغون ضالةً لهم. قال: لعلَّه. ثم سكتَ. قال:

ثم مكثتُ قليلًا، ثم قمتُ فدخلت بيتي، ثم أمرتُ بفرسي فقُيِّد لي إلى بطنِ الوادي، وأمرتُ بسلاحي فأُخرجَ لي من دُبر حُجرتي، ثم أخذت قِداحي التي أستقْسِم بها، ثم انطلقتُ فلبست لأْمَتي[١]، ثم أخرجت قِداحي فاستَقسمت بها، فخرج السهمُ الذي أكره: «**لا يَضُرُّهُ**»[٢]. قال: وكنت أرجو أن أردَّه على قريشٍ، فآخذ المئةَ الناقة. قال: فركبت على أثرِه، فبينما فرسي يَشتدُّ بي عَثَرَ بي؛ فسقطتُ عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قِداحي فاستَقسمت بها، فخرجَ السهمُ الذي أكره: «**لا يَضرُّه**». قال: فأبَيتُ إلا أن أتَّبعه. قال: فركبت في أثرِه، فبينا فرسي يَشتدُّ بي، عَثَر بي؛ فسقطتُ عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قِداحي فاستقسمت بها فخرج السهمُ الذي أكره: «**لا يَضرُّه**». قال: فأبيتُ إلا أن أتَّبعه، فركبت في أثرِه، فلما بدا لي القومُ ورأيتُهم، عثَر بي فرسي، فذهبَت يداه في الأرضِ؛ وسقطتُ عنه، ثم انتزعَ يدَيه من الأرضِ، وتَبعها دخانٌ كالإعصار. قال: فعرَفت حين رأيتُ ذلك أنه قد مُنِعَ منِّي، وأنه ظاهرٌ. قال: فناديتُ القومَ فقلت: أنا سراقةُ بن جُعشُمٍ، انظروني أكلِّمْكم، فوالله لا أريبُكم، ولا يأتيكم منِّي شيءٌ تكرهونَه. قال: فقال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر: «**قُلْ له: وما تَبتغِي منَّا؟**». قال: فقال ذلك أبو بكر. قال: قلتُ: تكتُب لي كتابًا يكون آيةً بيني وبينِك. قال: «**اكتُبْ له يا أبا بكرٍ**».

قال ابنُ إسحاقَ: فلما خرج بهما دليلُهما عبدُ الله بن أرقطَ سلك بهما أسفلَ مكَّةَ، ثم مضى بهما على الساحلِ.

---

(١) اللَّأْمَة: الدرع والسلاح.

(٢)فخرج السهمُ الذي أكره «لا يضره»: أي: خرج السهم المكتوب فيه «لا يضره».

ثم قدِم بهما قُباءَ على بني عمرِو بن عوفٍ لاثنتَي عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيعٍ الأول يومَ الاثنين حين اشتدَّ الضَّحاءُ وكادت الشمسُ تعتدل.

قال ابنُ إسحاقَ: عن عبد الرحمن بن عويمرٍ قال: حدثني رجالٌ من قومي من أصحابِ رسولِ الله ﷺ قالوا: لما سمِعنا بمَخرجِ رسولِ الله ﷺ من مكَّةَ، وتوكَّفنا[1] قُدومَه، كنا نخرج إذا صلَّينا الصبحَ، إلى ظاهرِ حرَّتنا ننتظرُ رسولَ الله ﷺ.

فوالله ما نبرحُ حتى تَغلبَنا الشمسُ على الظلالِ فإذا لم نجد ظِلًّا دخلنا، وذلك في أيام حارةٍ.

حتى إذا كان اليومُ الذي قدِم فيه رسولُ الله ﷺ، جلسنا كما كنا نَجلس، حتى إذا لم يَبقَ ظلٌّ دخلنا بيوتَنا، وقدم رسولُ الله ﷺ حين دخلنا البُيوتَ، فكان أوَّلَ من رآه رجلٌ من اليهودِ وقد رأى ما كنا نصنعُ، وأنا ننتظر قُدومَ رسولِ الله ﷺ علينا، فصرخَ بأعلى صوتِه: يا بَني قَيلَةَ[2]، هذا جدُّكم قد جاء.

قال: فخرجنا إلى رسولِ الله ﷺ، وهو في ظِلِّ نخلةٍ، ومعه أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مِثل سنِّه، وأكثرُنا لم يكن رأى رسولَ الله ﷺ قبل ذلك، ورَكِبَهُ الناسُ[3] وما يَعرفونَه من أبي بكرٍ، حتى زال الظِّلُّ عن رسولِ الله ﷺ، فقام أبو بكرٍ فأظلَّه بردائِه؛ فعرفناه عند ذلك.

---

(١) توكفنا: استشعرنا وانتظرنا.

(٢) بنو قَيْلَة: يعني الأنصار، وهو اسم جدة كانت لهم.

(٣) أي: ازدحموا عليه.

قال ابنُ إسحاقَ: فأقام رسولُ الله ﷺ بقُباءَ في بَني عمرِو بن عوفٍ، يومَ الاثنين ويومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء ويوم الخميسِ، وأسَّس مسجدَه.

ثم أخرجه اللهُ من بين أظهُرهم يومَ الجمعةِ، وبنو عمرِو بن عوفٍ يزعمون أنه مَكث فيهم أكثرَ من ذلك، فاللهُ أعلم أيَّ ذلك كان.

فأدركتْ رسولَ الله ﷺ الجمعةُ في بني سالم بن عوفٍ، فصلَّاها في المسجد الذي في بطنِ الوادي، وادي رانوناءَ، فكانت أوَّلَ جُمُعةٍ صلاها بالمدينةِ.

فأتاه رجالٌ من بني سالمِ بن عوف، فقالوا: يا رسولَ الله، أقِم عندنا في العَددِ والعدَّة والمَنعةِ.

قال: «**خلُّوا سبيلها، فإنها مأمورةٌ**» لناقته، فخلوا سبيلَها، فانطلقت حتى إذا وازنت دارَ بني بياضةَ؛ تلقَّاه رجالٌ من بني بياضةَ، فقالوا: يا رسولَ الله: هَلُمَّ إلينا، إلى العَدد والعُدة والمنعةِ.

قال: «**خلُّوا سبيلَها فإنها مأمورةٌ**»، فخلوا سبيلها، فانطلقَتْ، حتى إذا مرت بدار بني ساعدةَ، اعترضه رجالٌ من بني ساعدةَ، فقالوا: يا رسولَ الله، هَلُمَّ إلينا إلى العَدد والعُدَّةِ والمَنعةِ.

قال: «**خلوا سبيلَها، فإنها مأمورة**»، فخلوا سبيلَها، فانطلقتْ، حتى إذا وازَنت دارَ بني الحارثِ بن الخزرج اعترضَه رجالٌ من بني الحارثِ بن الخزرجِ فقالوا: يا رسولَ الله، هَلُمَّ إلينا إلى العَدد والعدةِ والمنعةِ.

قال: «**خلوا سبيلَها، فإنها مأمورةٌ**»، فخلوا سبيلها، فانطلقتْ، حتى إذا مرَّت بدار بَني عديٍّ بن النجار، وهم أخوالُه -أمُّ عبد المطَّلب: سلمى بنتُ

عمرو، إحدى نسائهم- اعترضَه رجالٌ من بني عديٍّ بن النجار، فقالوا: يا رسولَ الله، هَلُمَّ إلى أخوالِك، إلى العددِ والعُدة والمنعةِ.

قال: «خلُّوا سبيلَها فإنها مأمورةٌ»، فخلوا سبيلَها، فانطلقتْ، حتى إذا أتت دارَ بني مالكِ بن النجار، برَكت على بابِ مسجدِه ﷺ، وهو يومئذٍ مِربَدٌ[(١)] لغلامين يتيمينِ من بني النجارِ، ثم من بَني مالكِ بن النجارِ.

فلما بركَت -ورسولُ الله ﷺ عليها لم ينزلْ -وثبَت فسارت غيرَ بعيدٍ، ورسولُ الله ﷺ واضعٌ لها زمامَها لا يُثنيها به، ثم التفتت إلى خلفِها، فرجعت إلى مَبركِها أوَّلَ مرةٍ، فبركت فيه، ثم تَحَلْحَلَتْ[(٢)] ورَزَمَتْ[(٣)] ووضعتَ جِرانها[(٤)]، فنزل عنها رسولُ الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوبَ خالدُ بن زيدٍ رحلَه، فوضعه في بيتِه، ونزل عليه رسولُ الله ﷺ، وسأل عن المِربد: «لمن هو؟»

فقال له معاذُ بن عَفراءَ: هو يا رسولَ الله لسهلٍ وسُهيلٍ ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأُرضيهما منه، فاتَّخذه مسجدًا.

قال: فأمر به رسولُ الله ﷺ أن يُبنَى مسجدًا، ونزلَ رسولُ الله ﷺ على أبي أيوبَ حتى بُني مسجدُه ومساكنه، فعمِل فيه رسولُ الله ﷺ ليُرغِّبَ المسلمين في العملِ فيه، فعمِل فيه المُهاجرون والأنصارُ، ودأبوا فيه.

قال ابنُ إسحاقَ: وتلاحقَ المُهاجرونَ إلى رسولِ الله ﷺ، فلم يَبق بمكَّةَ منهم أحدٌ، إلا مَفتونٌ أو مَحبوسٌ.

---

(١) المِرْبَد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

(٢) تَحَلْحَلَتْ: تحركت وانزجرت.

(٣) رَزَمَتْ: قامت من الإعياء والهزال ولم تتحرك.

(٤) الجِرَان: ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها.

[القسم الثاني: العهد المدني]

[أولا : تأسيس الدولة]

١- كتابُه ﷺ بين المُهاجرين والأنصار ومُوادعة يهودَ

قال ابنُ إسحاقَ: وكتب رسولُ الله ﷺ كتابًا بين المُهاجرين والأنصارِ وادعَ فيه يهودَ وعاهدهم، وأقرَّهم على دينِهم وأموالِهم، وشرطَ لهم، واشترطَ عليهم.

٢- المُؤاخاةُ بين المهاجرين والأنصارِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: وآخى رسولُ الله ﷺ بين أصحابِه من المُهاجرين والأنصار.

٣- الأعداءُ من يهودَ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ونصبت عند ذلك أحبارُ يهود لرسولِ الله ﷺ العداوةَ، بغيًا وحسدًا وضِغنًا؛ لما خصَّ الله تعالى به العربَ من أخذِه رسولَه منهم، وانضاف إليهم رجالٌ من الأوسِ والخزرج، ممن كان عَسِيَ على جاهليته فكانوا أهلَ نفاقٍ على دين آبائِهم من الشركِ والتكذيب بالبَعث، إلا أن الإسلامَ قهَرهم بظهورِه واجتماعِ قومِهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنَّةً من القتلِ ونافقوا في السرِّ، وكان هواهُم مع يهودَ؛ لتكذيبهم النبيَّ ﷺ، وجُحودهم الإسلامَ.

وكانت أحبارُ يهودَ هم الذين يَسألون رسولَ الله ﷺ ويتعنَّتونه، ويأتونه باللَّبس؛ ليَلبسوا الحقَّ بالباطلِ، فكان القرآنُ ينزل فيهم فيما يسألون عنه، إلا قليلًا من المسائلِ في الحلالِ والحرام كان المُسلمون يَسألون عنها.

فهؤلاء أحبارُ اليهودِ وأهلُ الشرورِ والعداوةِ لرسولِ الله ﷺ وأصحابِه، وأصحاب المسألة، والنصب لأمرِ الإسلام الشرورَ ليُطفئوه، إلا ما كان من عبدِ الله بن سلام ومُخيريقٍ.

٤- مَن اجتمع إلى يهودَ من مُنافقي الأنصارِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان ممن انضافَ إلى يهودَ، من سُمِّي لنا من المنافقين من الأوسِ والخزرج.

وكان هؤلاء المنافقون يَحضرون المسجدَ فيستمعون أحاديثَ المسلمين، ويسخرون ويستهزؤون بدينِهم، فاجتمع يومًا في المسجدِ منهم ناسٌ، فرآهم رسولُ الله ﷺ يتحدَّثون بينهم، خافِضي أصواتِهم، قد لصق بعضُهم ببعضٍ، فأمر بهم رسولُ الله ﷺ فأُخرجوا من المسجدِ إخراجًا عنيفًا.

ففي هؤلاء -من أحبار يهودَ والمنافقين من الأوسِ والخزرج- نزلَ صدرُ سورة البقرةِ إلى المئة منها -فيما بلغني- والله أعلمُ.

٥- ذِكرُ من اعتلَّ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما قدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ، قدِمها وهي أوبأُ أرضِ الله من الحُمَّى، فأصاب أصحابه منها بلاءٌ وسقمٌ، فصرف الله تعالى ذلك عن نبيِّه ﷺ.

قالت فكان أبو بكر، وعامرُ بن فُهيرةَ، وبلالٌ -مَوْليا أبي بكر- مع أبي بكر في بيتٍ واحد، فأصابتهم الحُمَّى، فدخلتُ عليهم أَعُودُهم، وذلك قبل أن يُضربَ علينا الحجابُ، وبهم ما لا يعلمه إلا اللهُ من شدَّةِ الوعك.

فقلت لرسولِ الله ﷺ: إنهم ليَهذون وما يَعقِلون من شدةِ الحمَّى؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «**اللهم حبِّب إلينا المدينةَ كما حببَّت إلينا مكَّةَ أو أشد، وبارِك لنا في مُدِّها وصاعها، وانقُل وباءها إلى مَهْيعةَ**». ومهيعةُ: الجُحفة.

٦- تاريخُ الهجرةِ

قدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ يومَ الاثنين، حين اشتدَّ الضَّحاء، وكادتِ الشمسُ تعتدل لثنتي عشرةَ ليلةً مضت من شهر ربيعٍ الأوَّلِ، ورسولُ الله ﷺ يومئذٍ ابنُ ثلاث وخمسين سنةً، وذلك بعد أن بعثه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بثلاث عشرةَ سنة، فأقام بها بقيةَ شهر ربيعٍ الأول، وشهر ربيعٍ الآخرِ، وجُماديين، ورجبًا، وشعبانَ، وشهر رمضانَ، وشوَّالا، وذا القعدة، وذا الحجَّة -ووَلِيَ تلك الحجةَ المشركون- والمحرم.

[ثانيا: الغزوات والسرايا والبعوث]

١- غَزوةُ ودَّان وهي أول غزواته عليه الصلاةُ والسلام

ثم خرج غازيًا في صفر على رأسِ اثني عشَر شهرًا من مَقدَمه المدينةَ حتى بلغ ودانَ -وهي غزوةُ الأبواءِ- يريد قريشًا وبني ضمرةَ بن بكر، فوادعَته فيها بنو ضمرةَ، ثم رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ ولم يلق كيدً.

٢- سَريةُ عبيدة بن الحارثِ وهي أول رايةٍ عقدها عليه الصلاةُ والسلام

قالَ ابنُ إسحاقَ: وبعث رسولُ الله ﷺ في مُقامه ذلك بالمدينةِ عُبيدةَ بنَ الحارث في ستِّين أو ثمانين راكبًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصارِ أحدٌ، فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المُرَّةِ، فلقي بها جمعًا عظيمًا من قريشٍ، فلم يكن بينهم قتالٌ، إلا أن سعدَ بن أبي وقاصٍ قد رَمى يومئذٍ بسهم، فكان أوَّلَ سهم رُمِيَ به في الإسلام، ثم انصرف القومُ عن القومِ، وللمسلمين حاميةٌ.

٣- غَزوةُ سَفَوَانَ وهي غزوة بدرٍ الأولى

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولم يُقم رسولُ الله ﷺ بالمدينة حين قدِم من غزوةِ العُشيرة إلا ليالي قلائلَ لا تبلُغ العشرَ، حتى أغار كُرز بنُ جابرٍ الفِهريُّ على سَرْحِ(١) المدينة، فخرج رسولُ الله ﷺ في طلبِه حتى بلغ واديًا يُقال له: سَفَوَانُ، من ناحية بدرٍ، وفاته كرزُ بن جابرٍ، فلم يدركه، وهي غزوةُ بدر الأولى.

---

(١) السَّرْح: مرعى الأنعام.

٤- سريةُ عبدِ الله بنِ جَحشٍ

وبعث رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ جحش بن رئاب الأسدي في رجبٍ، مَقفلَه من بدرٍ الأولى، وبعث معه ثمانيةَ رهطٍ من المُهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحدٌ، وكتب له كتابًا وأمرَه ألا ينظرَ فيه حتى يسيرَ يومينِ ثم ينظر فيه فيَمضي لما أمرَه به، ولا يَستكره من أصحابه أحدًا.

فلما سار عبدُ الله بن جحشٍ يومينِ فتح الكتابَ فنظر فيه فإذا فيه: «**إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزلَ نخلةَ، بين مكةَ والطائفِ، فترصُد بها قريشًا وتعلمَ لنا من أخبارِهم**».

فلما نظر عبدُ الله بن جحشٍ في الكتاب قال: سمعًا وطاعةً، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسولُ الله ﷺ أن أمضيَ إلى نخلةَ، أرصدَ بها قريشًا، حتى آتيه منهم بخبرٍ، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادةَ ويرغبُ فيها فلينطلقْ، ومن كره ذلك فليرجعْ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسولِ الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابُه لم يتخلَّف عنه منهم أحدٌ.

ومضى عبدُ الله بن جحشٍ وأصحابُه حتى نزل بنخلةَ، فمرت به عِيرٌ لقريشٍ تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارةً من تجارة قريش فيها عمرو بنُ الحضرمي.

فلما رآهم القومُ هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، وتشاور القومُ فيهم وذلك في آخر يومٍ من رجبٍ فقال القومُ: والله لئن تركتم القومَ هذه الليلةَ ليَدخُلنَّ الحرمَ، فَلَيَمْتَنِعُنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لَتَقْتُلُنَّهُمْ في الشهر الحرامِ، فتردد القومُ وهابوا الإقدامَ عليهم، ثم شجَّعوا أنفسَهم عليهم، وأجمعوا على قتلِ من قدروا عليه منهم وأخذِ ما معهم.

فرمى واقدُ بن عبدِ الله التميميُّ عمرَو بن الحضرميِّ بسهم فقتله، واستأسرَ عثمانَ بنَ عبد الله، والحكمَ بن كيسانَ، وأفلت القومُ نوفلَ بن عبد الله فأعجزهم.

وأقبل عبدُ الله بن جحشٍ وأصحابُه بالعيرِ وبالأسيرين، حتى قدِموا على رسولِ الله ﷺ المدينةَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما قدموا على رسولِ الله ﷺ المدينةَ قال: «**ما أمرتُكم بقتالٍ في الشهر الحرامِ**».

فوقَّف العيرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذَ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسولُ الله ﷺ سُقطَ في أيدي القومِ، وظنوا أنهم قد هَلَكوا، وعنَّفهم إخوانُهم من المسلمين فيما صنعوا.

وقالت قريشٌ قد استحلَّ محمدٌ وأصحابُه الشهرَ الحرامَ، وسفكوا فيه الدمَ، وأخذوا فيه الأموالَ، وأسروا فيه الرجالَ، فقال من يَرُدُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكَّةَ: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبانَ.

فلما أكثر الناسُ في ذلك أنزل اللهُ على رسولِه ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧].

فلما نزل القرآنُ بهذا من الأمرِ، وفرَّج اللهُ تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفقِ قبضَ رسولُ الله ﷺ العيرَ والأسيرين.

٥- صرفُ القبلةِ إلى الكعبةِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ويقال: صُرفت القبلةُ في شعبانَ على رأسِ ثمانية عشَر شهرًا من مَقدَم رسولِ الله ﷺ المدينة.

٦- غَزوةُ بدرٍ الكُبرى

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم إن رسولَ الله ﷺ سمعَ بأبي سفيانَ بن حرب مُقبلًا من الشأم في عِيرٍ لقريشٍ عظيمةٍ، فيها أموالٌ لقريش وتجارةٌ من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلًا من قريشٍ أو أربعون.

قالَ ابنُ إسحاقَ: لما سمع رسولُ الله ﷺ بأبي سُفيانَ مُقبلًا من الشأم، ندب المسلمين إليهم وقال: «**هذه عِيرُ قريشٍ فيها أموالُهم فاخرجوا إليها لعل اللهَ يُنفِّلكُموها**».

فانتُدب الناسُ، فخف بعضُهم وثقُل بعضُهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسولَ الله ﷺ يلقى حَربًا.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجازِ يتحسَّسُ الأخبارَ ويسأل من لقي من الرُّكبان تخوُّفًا على أمر الناسِ، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبانِ أن محمدًا قد استنفر أصحابَه لك ولعِيرك، فحَذِرَ عند ذلك؛ فاستأجر ضَمضمَ بن عمرٍو الغفاريَّ، فبعثه إلى مكةَ، وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفِرَهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابِه.

فتجهز الناسُ سِراعًا وقالوا: أيظنُّ محمدٌ وأصحابُه أن تكون كعير ابن الحضرميِّ، كلا والله ليعلمن غيرَ ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارجٍ، وإما باعث مكانه رجلًا، وأوعَبتْ قريشٌ[(١)]، فلم يتخلف من أشرافِها أحدٌ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عروةَ بن الزبير قال: لما أجمعت قريشٌ المسيرَ ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكرٍ، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدَّى لهم إبليسُ في صورة سُراقةَ بن مالك بن جُعشُم المُدلجي، وكان من أشراف بني كِنانةَ، فقال لهم: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانةُ من خلفكم بشيءٍ تكرهونه؛ فخرجوا سراعًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وخرج رسولُ الله ﷺ في ليالٍ مضت من شهر رمضانَ في أصحابه، واستعمل عمرَو بن أم مَكتومٍ على المدينة.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ودفع اللواءَ إلى مُصعبِ بن عمير وكان أبيضَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان أمامَ رسولِ الله ﷺ رايتانِ سوداوان: إحداهما مع عليِّ بن أبي طالب يُقال لها: العُقاب، والأخرى مع بعضِ الأنصار، وكانت رايةُ الأنصار مع سعدِ بن مُعاذ، فيما قال ابنُ هشام.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكانت إبلُ أصحاب رسولِ الله ﷺ يومئذٍ سبعين بعيرًا فاعتقبوها.

وأتاه الخبرُ عن قريشٍ بمسيرهم ليمنعوا عيرَهم، فاستشار الناسَ، وأخبرهم عن قريشٍ، فقام أبو بكر الصديقُ فقال وأحسن، ثم قام عمرُ بن الخطاب فقال وأحسن.

---

(١) أَوْعَبَتْ قريش: حشدت.

ثم قام المِقدادُ بن عمرو فقال: يا رسولَ الله، امضِ لما أراكَ اللهُ فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقِّ لو سرتَ بنا إلى بَرْكِ الغِماد[1] لجالدنا معك مَن دونَه حتى تبلُغَه، فقال له رسولُ الله ﷺ خيرًا، ودعا له به.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: «**أشيروا عليَّ أيها الناسُ**» وإنما يريد الأنصارَ، وذلك أنهم عددُ الناسِ، وأنهم حين بايعوه بالعَقَبة قالوا: يا رسولَ الله، إنا براءٌ من ذمامِك حتى تصلَ إلى ديارنا، فإذا وصلتَ إلينا، فأنت في ذمَّتنا نمنعُك مما نمنع منه أبناءنا ونساءَنا.

فكان رسولُ الله ﷺ يتخوَّفُ ألا تكون الأنصارُ ترى عليها نَصرَه إلا ممن دهَمَهُ بالمدينةِ من عدوِّه، وأن ليس عليهم أن يسيرَ بهم إلى عدوٍّ من بلادهم.

فلما قال ذلك رسولُ الله ﷺ؛ قال له سعدُ بن معاذٍ: والله لكأنك تريدُنا يا رسولَ الله؟

قال: «**أَجَلْ**».

قال: فقد آمنا بك وصدَّقناك وشهِدنا أن ما جئتَ به هو الحقُّ وأعطيناك على ذلك عُهودَنا ومواثيقنا على السمعِ والطاعةِ؛ فامض يا رسولَ الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثَك بالحقِّ، لو استعرَضْتَ بنا هذا البحرَ فخُضته لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تَلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ في اللقاءِ، لعل الله يُريك منا ما تَقرُّ به عينُك؛ فسِر بنا على بركة الله.

---

(١) بَرْك الغماد: موضع باليمن.

فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعدٍ، ونشَّطه ذلك، ثم قال: «**سيروا وأبشروا، فإن اللهَ تعالى قد وعدني إحدى الطائفتينِ، والله لكأني الآن أنظرُ إلى مَصارعِ القومِ**».

نزل ﷺ قريبًا من بدر، فركب هو ورجلٌ من أصحابِه حتى وقفَ على شيخٍ من العربِ، فسأله عن قريشٍ، وعن محمد وأصحابِه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخُ: لا أخبرُكما حتى تُخبراني ممن أنتما؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «**إذا أخبرتَنا أخبرناك**».

قال: أذاك بذاك؟

قال: «**نعم**».

قال الشيخ: فإنه بلغَني أن محمدًا وأصحابَه خرجوا يومَ كذا وكذا، فإن كان صدَقَ الذي أخبرني، فهم اليومَ بمكانِ كذا وكذا، للمكانِ الذي به رسولُ الله ﷺ، وبلغني أن قريشًا خرجوا يومَ كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدَقني فهم اليومَ بمكان كذا وكذا للمكانِ الذي فيه قريشٌ.

فلما فرغ من خبرِه قال: ممَّن أنتما؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «**نحن من ماءٍ**» ثم انصرف عنه.

قال يقول الشيخُ: ما من ماء، أمن ماء العِراق؟!

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم رجع رسولُ الله ﷺ إلى أصحابِه، فلما أمسى بعث عليَّ بن أبي طالب، والزبيرَ بن العوَّام، وسعدَ بن أبي وقاص، في نفرٍ من أصحابه، إلى ماء بدرٍ، يلتمسون الخبر له عليه -كما حدَّثني يزيدُ بن رومان، عن عروةَ بن

الزبير- فأصابوا راويةً لقريشٍ فيها أسلمُ -غلامُ بني الحجاج- وعَريضٌ أبو يسارٍ -غلامُ بني العاص بن سعيدٍ- فأتوا بهما فسألوهما، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يُصلي، فقالا: نحن سُقاةُ قريشٍ، بعثونا نَسقيهم من الماءِ.

فكره القومُ خبرَهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان؛ فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيانَ؛ فتركوهما.

وركع رسولُ الله ﷺ وسجد سجدتَيه، ثم سلَّم، وقال: «**إذا صَدَقاكم ضربتموهما، وإذا كَذَباكم تركتُموهما، صدقَا والله، إنهما لقريشٍ، أخبِراني عن قريشٍ؟**»

قالا: هم والله وراءَ هذا الكثيبِ الذي ترى بالعُدوة القُصوى -والكثيبُ: العَقنقلُ- فقال لهما رسولُ الله ﷺ: «**كم القومُ؟**».

قالا: كثيرٌ.

قال: «**ما عِدَّتُهم؟**».

قالا: لا ندري.

قال: «**كم يَنحرون كلَّ يومٍ؟**».

قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**القومُ فيما بين التسع مئةِ والألف**».

ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشرافِ قريشٍ؟**».

قالا: عتبةُ بن ربيعةَ، وشيبةُ بن ربيعةَ، وأبو البَختري بن هشام، وحكيمُ بن حِزام، ونوفل بن خُويلد، والحارثُ بن عامر بن نوفل، وطُعيمةُ بن عديٍّ بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعةُ بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأميةُ بن خلف، ونُبَيه ومُنبِّه ابنا الحجاج، وسُهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد وُدٍّ.

فأقبل رسولُ الله ﷺ على الناس فقال: «**هذه مكَّةُ قد ألقت إليكم أفلاذَ كبِدها**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان بَسبسُ بن عمرو، وعديُّ بن أبي الزَّغباء قد مضيا حتى نزلا بدرًا، فأناخا إلى تل قريبٍ من الماءِ، ثم أخذا شَنًّا لهما يستقيان فيه، ومَجديُّ بن عمرو الجُهني على الماء.

فسمع عديٌّ وبسبسٌ جاريتين من جواري الحاضر، وهما يتلازمان على الماء، والمَلزومةُ تقول لصاحبتها: إنما تأتي العيرُ غدًا أو بعد غدٍ، فأعمل لهم، ثم أَقضيك الذي لك.

قال مجديٌّ: صَدَقتِ، ثم خلص بينهما.

وسمع ذلك عديٌّ وبسبسٌ، فجلسا على بعيرِيهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسولَ الله ﷺ، فأخبراه بما سمِعا.

وأقبل أبو سفيانَ بن حرب حتى تقدم العيرَ حذِرًا، حتى وردَ الماء، فقال لمجديِّ بن عمرو: هل أحسست أحدًا؟

فقال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التلِّ، ثم استقيا في شَنٍّ لهما، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيانَ مُناخَهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتَّه، فإذا فيه النوى؛ فقال: هذه والله علائفُ يثربَ، فرجع إلى أصحابه سريعًا، فضرب وجه عيرِه عن الطريق، فساحَلَ بها[١]، وترك بدرًا بيسار، وانطلق حتى أسرعَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما رأى أبو سفيانَ أنه قد أحرز عيرَه، أرسل إلى قريشٍ: إنكم إنما خَرجتُم لتمنعوا عيرَكم ورجالَكم وأموالَكم، فقد نجَّاها الله؛ فارجِعوا.

فقال أبو جهلِ بن هشامٍ: والله لا نرجعُ حتى نرِد بدرًا -وكان بدرٌ موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوقٌ كلَّ عام- فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجُزر، ونُطعم الطعامَ، ونسقي الخمرَ، وتعزِف علينا القيانُ، وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وجمعِنا؛ فلا يزالون يَهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا.

وقال الأخنسُ بن شَريق الثقفيُّ -وكان حليفًا لبني زهرةَ وهم بالجُحفة-: يا بني زهرةَ، قد نجَّى اللهُ لكم أموالكم، وخلَّص لكم صاحبكم: مَخرمةَ بن نوفل، وإنما نفرتم لتَمنعوه ومالَه، فاجعلوا بي جُبنها وارجعوا، فإنه لا حاجةَ لكم بأن تَخرجوا في غيرِ ضيعةٍ، لا ما يقول هذا، يعني: أبا جهلٍ.

فرجعوا، فلم يَشهدها زُهريٌّ واحدٌ، أطاعوه وكان فيهم مُطاعًا.

ولم يكن بقي من قريش بطنٌ إلا وقد نفرَ منهم ناسٌ، إلا بني عديٍّ بن كعب، لم يخرج منهم رجلٌ واحدٌ، فرجعت بنو زهرةَ مع الأخنسِ بن شَريقٍ، فلم يشهد بدرًا من هاتين القبيلتين أحدٌ، ومضى القوم.

---

(١) سَاحَلَ: أخذها جهة الساحل.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ومضت قريشٌ حتى نزلوا بالعُدوةِ القُصوى من الوادي، والقُلُب[١] ببدرٍ في العُدوة الدنيا، وبعث اللهُ السماء، وكان الوادي دَهْسًا[٢]، فأصاب رسولُ الله ﷺ وأصحابُه منها ما لبَّدَ لهم الأرضَ ولم يمنعهم عن السيرِ، وأصاب قريشًا منها ما لم يقدروا على أن يرتحِلوا معه.

فخرج رسولُ الله ﷺ يُبادرهم إلى الماءِ، حتى إذا جاء أدنى ماءٍ من بدرٍ نزل به.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحُدِّثت عن رجالٍ من بني سلمةَ، أنهم ذكروا: أن الحُباب بنَ المنذر بن الجَموح قال: يا رسولَ الله، أرأيت هذا المنزلَ، أمنزلًا أَنْزَلَكَهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخرَ عنه، أم هو الرأيُ والحرب والمكيدةُ؟

قال: «**بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ؟**».

فقال: يا رسولَ الله، فإن هذا ليس بمنزلٍ، فانهض بالناسِ حتى نأتيَ أدنى ماءٍ من القومِ، فننزله، ثم نُغَوِّرُ ما وراءَه من القُلُبِ، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثم نقاتلُ القومَ، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**لقد أشرتَ بالرأيِ**».

فنهض رسولُ الله ﷺ ومن معه من الناسِ، فسارَ حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القومِ نزل عليه، ثم أمرَ بالقُلُبِ فغُوِّرت، وبنى حوضًا على القَليب الذي نزل عليه، فمُلئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنيةَ.

---

(١) القُلُب: جمع قليب، وهو البئر.

(٢) الدَّهْس: المكان السهل اللين لا يبلغ أن يكون رملا وليس هو بتراب أو طين.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني عبدُ الله بنُ أبي بكر أنه حُدِّثَ أن سعدَ بن معاذٍ قال: يا نبيَّ الله، ألا نبني لك عريشًا[١] تكون فيه، ونُعد عندك ركائبَك، ثم نلقى عدوَّنا، فإن أعزنا اللهُ وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحِقت بمن وراءنا، فقد تخلَّف عنك أقوامٌ يا نبيَّ الله، ما نحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يَمنعك اللهُ بهم، يناصحونك ويُجاهدون معك، فأثنى عليه رسولُ الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير.

ثم بُني لرسولِ الله ﷺ عريشٌ، فكان فيه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقد ارتحلت قريشٌ حين أصبحت، فأقبلت، فلما رآها رسولُ الله ﷺ تصَوَّبُ من العَقنقلِ -وهو الكثيب الذي جاءوا منه إلى الوادي- قال: «**اللهمَّ هذه قريشٌ قد أقبلت بخُيلائها وفخرِها، تُحادُّك وتُكذِّب رسولَك، اللهم فنصرَك الذي وعدتني، اللهم أحِنهم[٢] الغداةَ**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم تزاحف الناسُ ودنا بعضُهم من بعضٍ، وقد أمر رسولُ الله ﷺ أصحابَه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «**إن اكتنفكم القومُ فانضحوهم عنكم بالنَّبل**»، ورسولُ الله ﷺ في العريش معه أبو بكر الصديق.

فكانت وقعةُ بدرٍ يومَ الجمعة صبيحةَ سبع عشرة من شهر رمضانَ.

---

(١) العَرِيْش: شبه الخيمة يستظل به.
(٢) أَحِنهم: أي: أهلكهم.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم عدل رسولُ الله ﷺ الصفوفَ، ورجع إلى العريشِ فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصديق، ليس معه فيه غيرُه، ورسول الله ﷺ يناشد ربَّه ما وعده من النصرِ، ويقول فيما يقول: «**اللهمَّ إن تهْلِك هذه العصابةُ اليومَ لا تُعبد**».

وأبو بكر يقول: يا نبيَّ الله: بعضَ مناشدتِك ربَّك، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك.

وقد خفَقَ[١] رسولُ الله ﷺ خَفقةً وهو في العريش، ثم انتبه فقال: أبشرْ يا أبا بكر، أتاك نصرُ الله، هذا جبريلُ آخذٌ بعنان فرسٍ يقوده، على ثناياه النقعُ[٢].

قال: ثم خرج رسولُ الله ﷺ إلى الناس فحرَّضهم وقال: «**والذي نفسُ محمد بيدِه، لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتل صابرًا محتسبًا، مُقبلًا غيرَ مدبر، إلا أدخله الله الجنةَ**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عبد الله بن ثعلبةَ أنه لما التقى الناسُ، ودنا بعضُهم من بعضٍ، قال أبو جهل بن هشام: اللهمَّ أقْطَعَنا للرحمِ، وآتانا بما لا يُعرفُ، فأحِنْه الغداةَ. فكان هو المستفتِحَ[٣].

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم إن رسولَ الله ﷺ أخذ حَفنة من الحَصباءِ فاستقبل قريشًا بها، ثم قال: «**شاهتِ الوجوهُ**»، ثم نَفحهم بها، وأمر أصحابَه فقال:

---

(١) خَفَقَ: نام نوما يسيرا.

(٢) النَّقْع: الغبار.

(٣) المُسْتَفْتِح: أي: الحاكم على نفسه بهذا الدعاء.

«**شدُّوا**»، فكانت الهزيمةُ، فقتل اللهُ تعالى من قتل من صناديدِ قريشٍ، وأسر من أسر من أشرافِهم.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما فرغَ رسولُ الله ﷺ من عدوِّه، أمر بأبي جهلٍ أن يُلتمسَ في القتلى.

قال عبدُ الله بن مسعود: فوجدتُه بآخر رمقٍ فعرفته، فوضعت رجلي على عُنقِه -قال: وقد كان ضَبَثَ[١] بي مرةً بمكةَ، فآذاني ولكزني- ثم قلتُ له: هل أخزاك اللهُ يا عدوَّ الله؟

قال: وبماذا أخزاني، أعمَد من رجلٍ قتلتموه، أخبِرني لمن الدائرةُ اليومَ؟

قال: قلت: لله ولرسولِه.

قال: ثم احتززت رأسَه ثم جئت به رسولَ الله ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله، هذا رأسُ عدوِّ الله أبي جهلٍ.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**آلله، الذي لا إله غيرُه**» -قال: وكانت يمينُ رسولِ الله ﷺ- قال: قلت: نعم، والله الذي لا إله غيرُه، ثم ألقيت رأسَه بين يدي رسولِ الله ﷺ، فحمِد اللهَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ قالت: لما أمر رسولُ الله ﷺ بالقتلى أن يُطرحوا في القليبِ؛ طُرحوا فيه إلا ما كان من أميةَ بن خلفٍ، فإنه انتفخ في دِرعه فملأها، فذهبوا ليُحركوه، فتزايَلَ[٢] لحمُه؛ فأقروه، وألقوا عليه ما غيَّبه من الترابِ والحجارةِ.

---

(١) ضَبَثَ: قبض عليه.

(٢) تَزَايَلَ: تفرَّق.

فلما ألقاهم في القليب، وقف عليهم رسولُ الله ﷺ، فقال: «**يا أهلَ القليبِ، هل وجدتُم ما وعدكم ربُّكم حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا**».

قالت: فقال له أصحابُه: يا رسولَ الله، أتكلِّم قومًا موتى؟ فقال لهم: «**لقد علموا أن ما وعدَهم ربُّهم حقًّا**».

ثم إن رسولَ الله ﷺ أمرَ بما في العسكرِ مما جَمعَ الناسُ فجُمع، فاختلف المسلمون فيه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: قال عُبادة بن الصامت: فقسَمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَواءٍ[1].

ثم أقبل رسولُ الله ﷺ قافلًا إلى المدينة، ومعه الأُسارى من المشركين، وفيهم عُقبةُ بن أبي مُعيط، والنضرُ بن الحارث، واحتمل رسولُ الله ﷺ معه النفلَ الذي أُصيب من المشركين.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير قال: ناحت قريشٌ على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلُغ محمدًا وأصحابَه، فيشمَتوا بكم، ولا تبْعثوا في أسراكم حتى تستَأنوا[2] بهم؛ لا يَأْرُبُ[3] عليكم محمدٌ وأصحابُه في الفداء.

قال: ثم بعثت قريشٌ في فداء الأُسارى.

---

(١) بَوَاء: سواء.

(٢) حتى تَسْتَأْنُوا بهم: معناه: تؤخرون فداءهم.

(٣) لا يَأْرُب: لا يشتد.

قال ابنُ هشامٍ: كان فداءُ المشركين يومئذٍ أربعةَ آلاف درهمٍ للرجل، إلى ألف درهمٍ، إلا من لا شيءَ له، فمَنَّ رسولِ الله ﷺ عليه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فجميعُ من شهد بدرًا من المسلمين من المُهاجرين والأنصار، من شهِدها منهم ومن ضُرب له بسهمِه وأجره، ثلاثُ مئة رجل وأربعةَ عشرَ رجلًا، من المهاجرين ثلاثةٌ وثمانون رجلًا، ومن الأوس واحدٌ وستون رجلًا، ومن الخزرج مئةٌ وسبعون رجلًا.

٧- غزوةُ السَّويق

عن محمد بن إسحاق المُطَّلبي قال: ثم غزا أبو سفيانَ بن حرب غزوةَ السويق في ذي الحجةِ، ووليَ تلك الحجَّةَ المشركون من تلك السنة، فكان أبو سفيانَ حين رجع إلى مكَّةَ، ورجع فَلُّ[١] قريش من بدرٍ، نذر أن لا يَمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتى يغزوَ محمدًا ﷺ، فخرج في مئتي راكبٍ من قريشٍ؛ ليبرَّ يمينَه.

فنزل من المدينةِ على بَريدٍ أو نحوه، ثم خرج من الليلِ، حتى أتى سلَّامَ بن مِشكمٍ، وكان سيِّد بني النضيرِ في زمانه ذلك، وصاحبَ كَنزِهم، فاستأذن عليه، فأَذنَ له، فَقَراه وسقاه، وبَطَنَ[٢] له من خبرِ الناسِ.

ثم خرج في عقِب ليلته حتى أتى أصحابَه، فبعثَ رجالًا من قريشٍ إلى المدينة، فأتوا ناحيةً منها، فحرَقوا في أصوارٍ من نخل بها، ووجدوا بها رجلًا من الأنصارِ وحَليفًا له في حرثٍ لهما فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين.

---

(١) الفَلُّ: القوم المنهزمون.

(٢) بَطَنَ له: أي: علم له من سرهم، ومنه بطانة الرجل.

فخرجَ رسولُ الله ﷺ في طلَبهم، ثم انصرفَ راجعًا وقد فاته أبو سفيان وأصحابُه، وقد رأوا أزوادًا من أزوادِ القوم قد طرحوها في الحرثِ يتخفَّفون منها للنَّجاءِ، فقال المسلمون حين رجع بهم رسولُ الله ﷺ: يا رسولَ الله، أتطمعُ لنا أن تكون غزوةً؟

قال «**نعم**».

قال ابنُ هشامٍ: وإنما سمِّيت غزوةَ السويق -فيما حدثني أبو عبيدةَ- أن أكثرَ ما طرح القومُ من أزوادهم السَّوِيْقَ[(١)]، فهجم المسلمون على سويق كثيرٍ؛ فسُمِّيت غزوةَ السويق.

٨- أمرُ بني قَينُقاعَ

وكان من حديث بني قينقاعَ أن رسول الله ﷺ جَمعهم بسوقِ بني قينقاعَ، ثم قال: «**يا معشرَ يهودَ، احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريشٍ من النِّقمةِ، وأسلموا، فإنكم قد عرَفتم أني نبيٌّ مرسلٌ، تجدون ذلك في كتابكم وعهدِ الله إليكم**».

قالوا: يا محمدُ، إنك تُرى أنَّا قومُك! لا يغرنَّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحربِ، فأصبتَ منهم فُرصةً، إنا والله لئن حاربناك لتَعلمنَّ أنا نحن الناسُ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني عاصُم بن عمرَ بن قتادةَ أن بني قينُقاعَ كانوا أوَّلَ يهودٍ نقضوا ما بينهم وبين رسولِ الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدرٍ وأُحُدٍ.

---

(١) السَّوِيْق: هو أن تحمص الحنطة أو الشعير أو نحو ذلك، ثم تطحن ثم يسافر بها، وقد تمزج باللبن والعسل والسمن تلت به، فإن لم يكن شيء من ذلك مزج بالماء.

قال ابنُ هشامٍ: عن أبي عون قال: كان من أمرِ بني قينقاعَ أن امرأة من العرب قدمت بجلَبٍ[(١)] لها، فباعته بسوقِ بني قينُقاعَ، وجلست إلى صائغٍ بها، فجعلوا يُريدونَها على كشفِ وجهها فأبت، فعمِد الصائغُ إلى طرَف ثوبها فعقده إلى ظهرِها، فلما قامت انكشفت سوأتُها، فضحِكوا بها، فصاحت؛ فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًّا، وشدت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلمِ المسلمين على اليهودِ، فغضِبَ المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاعَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني عاصمُ بن عمرَ بن قتادةَ قال: فحاصرهم رسولُ الله ﷺ حتى نزلوا على حُكمِه، فقام إليه عبدُ الله بن أُبيٍّ ابن سَلول، حين أمكنه اللهُ منهم، فقال: يا محمدُ، أحسِن في مَواليَّ، وكانوا حلفاءَ الخزرج، قال: فأبطأَ عليه رسولُ الله ﷺ، فقال: يا محمدُ، أحسِن في مواليَّ، قال: فأعرض عنه.

فأدخل يدَه في جيبِ درعِ رسولِ الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**أرسِلْني**»، وغضبَ رسولُ الله ﷺ حتى رأوا لوجهِه ظُللًا.

ثم قال: «**ويحَك! أرسِلْني**».

قال: لا والله لا أُرسلُك حتى تُحسن في مواليَّ، أربع مئةِ حاسرٍ[(٢)] وثلاث مئةِ دارعٍ قد منعوني من الأحمرِ والأسود، تحصُدهم في غداةٍ واحدةٍ، إني والله امرؤ أخشى الدوائرَ، قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**هُم لك**».

---

(١) الجَلَب: كل ما يجلب للأسواق ليباع فيها من إبل وغنم وغيرهما.

(٢) الحَاسِر: من لا درع له.

قال ابنُ هشامٍ: وكانت محاصرتُه إياهم خمسَ عشرة ليلةً.

٩- غزوة أُحُدٍ

لما أُصيبَ يومَ بدرٍ -من كفارِ قريش- أصحابُ القليبِ، ورجع فَلُّهم إلى مكةَ، ورجع أبو سفيان بن حرب بِعيرِه، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعةَ، وعكرمةُ بن أبي جهل وصفوانُ بن أمية في رجالٍ من قريشٍ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانُهم يومَ بدرٍ، فكلموا أبا سفيانَ بن حربٍ، ومن كانت له في تلك العِيرِ من قريشٍ تجارةٌ فقالوا: يا معشرَ قريشٍ، إن محمدًا قد وَتَركم، وقتل خيارَكم، فأعينونا بهذا المالِ على حربِه، فلعلَّنا نُدرك منه ثأرنا بمن أصاب منا؛ ففعلوا.

فاجتمعت قريشٌ لحربِ رسولِ الله ﷺ حين فعلَ ذلك أبو سفيان بنُ حرب، وأصحابُ العير بأحابِيشها، ومن أطاعَها من قبائلِ كنانةَ، وأهل تِهامةَ.

فخرجت قريش بحَدِّها وجدِّها وحديدها وأحابِيشها، ومن تابعها من بني كنانةَ، وأهل تهامةَ، وخرجوا معهم بالظُّعُنِ[(١)]؛ التماسَ الحفيظةِ وألا يَفِرُّوا.

فأقبلوا حتى نزلوا بعينين -بجبلٍ ببطن السبخةِ من قناة على شَفير الوادي- مُقابلَ المدينةِ.

فلما سمع بهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسولُ الله ﷺ للمُسلمين: «**إني قد رأيتُ والله خيرًا، رأيت بقرًا، ورأيت في ذُباب سيفي ثَلْمًا، ورأيت أني أدخلت يدي في دِرعٍ حصينةٍ، فأوَّلتُها المدينةَ**».

---

(١) الظُّعُن: جمع ظعينة، وهو الهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن.

قال ابن هشامٍ: وحدثني بعضُ أهل العلمِ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**رأيت بقرًا لي تُذبح**».

قال: «**فأما البقرُ فهي ناسٌ من أصحابي يُقتلون، وأما الثَّلمُ الذي رأيتُ في ذباب سيفي فهو رجلٌ من أهلِ بيتي يُقتل**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: فإن رأيتُم أن تُقيموا بالمدينةِ وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بَشرِّ مُقامٍ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان رأيُ عبد الله بن أبيٍّ ابن سلولٍ مع رأي رسولِ الله ﷺ، يرى رأيَه في ذلك، وألا يخرجَ إليهم، وكان رسولُ الله ﷺ يكره الخُروجَ، فقال رجالٌ من المسلمين -ممن أكرم اللهُ بالشهادة يومَ أحدٍ وغيره ممن كان فاته بدرٌ-: يا رسولَ الله، اخرُج بنا إلى أعدائِنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعُفنا؟

فقال عبدُ الله بن أُبي ابن سلولٍ: يا رسولَ الله، أقم بالمدينة لا تخرجْ إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قطُّ إلا أصابَ منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهُم يا رسولَ الله، فإن أقاموا، أقاموا بشَرِّ محبسٍ، وإن دخلوا قاتَلَهم الرجالُ في وجههم، ورماهم النساءُ والصبيانُ بالحجارةِ من فوقِهم، وإن رجعوا رجعوا خائبينَ كما جاءوا.

فلم يزل الناسُ برسولِ الله ﷺ -الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القومِ- حتى دخل رسولُ الله ﷺ بيته، فلبس لأْمَته، وذلك يومَ الجمعة حين فرغَ من الصلاة، وقد مات في ذلك اليومِ رجلٌ من الأنصار يُقال له: مالكُ بن عمرو أحدُ

بني النجار، فصلَّى عليه رسولُ الله ﷺ ثم خرج عليهم وقد ندِم الناسُ، وقالوا: استكرَهنا رسولَ الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك.

فلما خرج عليهم رسولُ الله ﷺ، قالوا: يا رسولَ الله، استكرَهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعُد صلى اللهُ عليك.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأْمَته أن يضعَها حتى يقاتلَ**».

فخرج رسول الله ﷺ في ألفٍ من أصحابِه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: حتى إذا كانوا بالشوطِ بين المدينةِ وأُحُدٍ، انخذل عنه عبدُ الله بن أبيٍّ ابن سلول بثُلث الناسِ، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نقتل أنفسَنا هاهنا أيها الناسُ، فرجع بمن اتَّبعه من قومِه من أهلِ النفاقِ والرَّيبِ، واتبعهم عبدُ الله بن عمرو بن حرامٍ أخو بني سلمةَ، يقول: يا قومِ، أذكِّركم اللهَ ألا تَخذلوا قومَكم ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم.

فقالوا: لو نعلمُ أنكم تُقاتلون لما أسلمناكُم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتالٌ.

قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصرافَ عنهم قال: أبعدَكم اللهُ أعداءَ الله، فسُيغني الله عنكم نبيَّه.

قال: ومضى رسولُ الله ﷺ حتى نزلَ الشِّعبَ من أحدٍ، في عُدوة الوادي إلى الجبلِ، فجعل ظهرَه وعسكرَه إلى أُحُدٍ، وقال: «**لا يقاتلن أحدٌ منكم حتى نأمُرَه بالقتال**».

وقد سرَّحت قريشٌ الظَّهرَ والكُراعَ[١] في زروعٍ كانت بالصَّمغةِ[٢]، من قناة للمسلمين.

وتعبَّى رسولُ الله ﷺ للقتالِ، وهو في سبع مئةِ رجلٍ، وأمَّر على الرماة عبدَ الله بن جبيرٍ أخا بني عمرو بن عوفٍ وهو مُعلَّمٌ يومئذ بثيابٍ بيضٍ، والرماة خمسون رجلًا.

فقال: «**انضح الخيلَ عنا بالنبلِ، لا يأتونا من خلفِنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبُت مكانَك لا نُؤتَيَنَّ من قِبلك**».

وظاهرَ رسولُ الله ﷺ بين دِرعينِ[٣]، ودفعَ اللواءَ إلى مُصعبِ بن عميرٍ أخي بني عبد الدارِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وتعبَّأت قريشٌ، وهم ثلاثةُ آلاف رجلٍ، ومعهم مئتا فرسٍ قد جنَبوها[٤]، فجعلوا على ميمنةِ الخيلِ خالدَ بن الوليدِ، وعلى مَيسرتها عكرمةَ بن أبي جهلٍ.

وقال رسولُ الله ﷺ: «**مَن يأخذُ هذا السيفَ بحقِّه؟**» فقامَ إليه رجالٌ، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دُجانةَ سِماكُ بن خَرَشةَ أخو بني ساعدةَ، فقال: وما حقُّه يا رسولَ الله؟ قال: «**أن تَضربَ به العدوَّ حتى يَنحنيَ**».

---

(١) الظَّهر: الإبل. والكُرَاع: الخيل.

(٢) الصَّمغَة: اسم موضع قريب من أحد.

(٣) ظَاهَرَ بين درعين: أي: لبس درعا فوق درع.

(٤) جَنَبوها: أي قادوها، والجنيب: الفرس الذي يقاد.

قال: أنا آخذه يا رسولَ الله بحقِّه، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانةَ رجلًا شجاعًا يختال عند الحربِ إذا كانت، وكان إذا أُعلمَ بعصابةٍ له حمراءَ فاعتصب بها علم الناسُ أنه سيقاتِل، فلما أخذ السيفَ من يدِ رسولِ الله ﷺ أخرجَ عصابتَه تلك، فعصب بها رأسَه، وجعل يتبخترُ بين الصفينِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني جعفرُ بن عبدِ الله بن أسلمَ مولى عمرَ بن الخطاب، عن رجلٍ من الأنصارِ من بني سلمةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ حين رأى أبا دُجانةَ يتبختر: «**إنها لمِشيةٌ يُبغضها اللهُ، إلا في مثل هذا المَوطنِ**».

وكان شِعارُ أصحاب رسولِ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ: أمِتْ، أمِتْ، فيما قال ابنُ هشام.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فاقتتل الناسُ حتى حَميت الحربُ، وقاتل أبو دُجانة حتى أمعن في الناسِ.

وقاتلَ حمزةُ بن عبد المطلبِ حتى قتلَ أرطاةَ بن عبد شُرحبيلَ وكان أحدَ النفر الذين يحملون اللواءَ.

قال وحشيٌّ -غلامُ جُبير بن مُطعم-: والله إني لأنظرُ إلى حمزةَ يَهُدُّ الناسَ بسيفِه ما يُليق به شيئًا، مثل الجملِ الأَوْرَقِ[1] إذ تقدمني إليه سباعُ بن عبد العُزَّى، فضربه ضربةً، فكأن ما أخطأَ رأسَه، وهززتُ حربَتي حتى إذا رضيتُ منها دَفعتُها عليه، فوقعتْ في ثُنَّتِهِ[2] حتى خرجت من بين رِجليه، فأقبلَ نحوي، فغُلب فوقعَ،

---

(١) الأَوْرَق: من الإبل، وهو الذي في لونه بياض إلى السواد

(٢) الثُّنَّة: ما بين أسفل البطن إلى العانة.

وأمهلْتُه حتى إذا مات جئتُ فأخذتُ حربتي، ثم تنحيتُ إلى العسكرِ، ولم تكن لي بشيءٍ حاجةٌ غيرَه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقاتل مصعبُ بن عميرٍ دون رسولِ الله ﷺ حتى قُتلَ، وكان الذي قتله ابنُ قَمئةَ الليثيُّ، وهو يظن أنه رسولُ الله ﷺ، فرجعَ إلى قريشٍ فقال: قتلت محمدًا.

فلما قُتل مصعبُ بن عمير أعطى رسولُ الله ﷺ اللواءَ عليَّ بنَ أبي طالب، وقاتل عليُّ بن أبي طالب ورجالٌ من المسلمين.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم أنزل اللهُ نصرَه على المسلمين وصدَقهم وعدَه، فحسُّوهم[1] بالسيوفِ حتى كشفوهم عن العسكرِ، وكانت الهزيمةُ لا شك فيها.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن الزبيرِ أنه قال: والله لقد رأيتُني أنظر إلى خَدَم هندِ بنتِ عتبةَ وصواحبها مُشمِّرات هواربَ، ما دون أخذهنَّ قليلٌ ولا كثيرٌ إذ مالت الرماةُ إلى العسكرِ، حين كشفنا القومَ عنه وخلوا ظهورَنا للخيلِ؛ فأُتينا من خلفِنا، وصرخَ صارخٌ: ألا إن محمدًا قد قُتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القومُ بعد أن أصبنا أصحابَ اللواءِ حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وانكشفَ المسلمون، فأصابَ فيهم العدوُّ، وكان يومَ بلاءٍ وتمحيصٍ أكرم اللهُ فيه من أكرمَ من المسلمين بالشهادةِ، حتى خلُصَ العدوُّ إلى رسولِ الله ﷺ، فدُثَّ[2] بالحجارة حتى وقعَ لشقِّه، فأصيبت رَباعيتُه، وشُجَّ في وجهه، وكُلِمت شَفتُه، وكان الذي أصابَه عتبةُ بن أبي وقاصٍ.

---

(١) حَسُّوهم: قتلوهم.

(٢) دُثَّ: التوى بعض جسده.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أنسِ بن مالكٍ قال: كُسرت رَباعيةُ النبيِّ ﷺ يومَ أُحُدٍ، وشُجَّ في وجهه، فجعل الدمُ يسيلُ على وجهه، وجعلَ يمسحُ الدمَ وهو يقول: «**كيف يُفلح قومٌ خضبوا وجهَ نبيِّهم، وهو يدعوهم إلى ربِّهم؟!**» فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران:١٢٨].

قالَ ابنُ إسحاقَ: وتَرَّسَ دونَ رسول الله ﷺ أبو دجانةَ بنفسِه، يقعُ النبل في ظهرِه وهو مُنحنٍ عليه، حتى كثُر فيه النبلُ، ورمى سعدُ بن أبي وقاصٍ دونَ رسولِ الله ﷺ، قال سعد: فلقد رأيتُه يُناولني النبلَ وهو يقول: «**ارمِ فداكَ أبي وأمي**» حتى إنه ليناولُني السهمَ ما له نصلٌ، فيقولُ: «**ارمِ به**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني القاسمُ بنُ عبد الرحمن بن رافعٍ أخو بني عديِّ بن النجار قال: انتهى أنسُ بن النضرِ عمُّ أنس بن مالك، إلى عمرَ بن الخطاب، وطلحةَ بن عبيدِ الله، في رجالٍ من المهاجرين والأنصارِ، وقد أَلْقَوا بأيديهم.

فقال: ما يُجلسكم؟

قالوا: قُتلَ رسولُ الله ﷺ، قال: فماذا تَصنعون بالحياةِ بعدَه؟ قوموا فموتوا على ما ماتَ عليه رسولُ الله ﷺ، ثم استقبلَ القومَ، فقاتلَ حتى قُتل، وبه سُمِّي أنسُ بن مالكٍ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أنسِ بن مالك قال: لقد وجدنا بأنسِ بن النضرِ يومئذٍ سبعين ضربةً، فما عرفهُ إلا أختُه، عرفته ببَنانِه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان أوَّلَ من عرفَ رسولَ الله ﷺ بعد الهزيمةِ -وقولُ الناس: قُتل رسولُ الله ﷺ- كعبُ بن مالكٍ، قال: عرفت عينَيه تزهران من تحت المِغفرِ، فناديتُ بأعلى صوتي: يا معشرَ المسلمين، أبشروا، هذا رسولُ الله ﷺ، فأشارَ إليَّ رسولُ الله ﷺ أن أنصِت.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما عرفَ المسلمون رسولَ الله ﷺ نهضوا به، ونهضَ معهم نحو الشِّعبِ معه أبو بكرٍ الصديقُ، وعمرُ بن الخطاب، وعليُّ بن أبي طالبٍ، وطلحةُ بن عبيدِ الله، والزبيرُ بن العوامِ، والحارثُ بن الصِّمةِ، ورهطٌ من المسلمين.

قال: فلما أُسندَ رسولُ الله ﷺ في الشِّعبِ أدركه أُبيُّ بن خلفٍ وهو يقول: أيْ محمدُ، لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القومُ: يا رسولَ الله، أيعطفُ عليه رجلٌ منا؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «**دعوه**»، فلما دنا، تناولَ رسولُ الله ﷺ الحربةَ من الحارثِ بن الصِّمةِ، يقول بعضُ القومِ، فيما ذكر لي: فلما أخذها رسولُ الله ﷺ منه انتفضَ بها انتفاضةً، تطايرنا عنه تطايُرَ الشَّعْراءِ(١) عن ظهرِ البعيرِ إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عُنقه طعنةً تَدأْدأَ منها عن فرسِه مِرارًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان أُبيُّ بن خلفٍ، يلقى رسولَ الله ﷺ بمكَّةَ، فيقول: يا محمدُ إن عندي العَوذَ، فرسًا أعلفه كلَّ يوم فرقًا من ذُرةٍ، أقتلك عليه، فيقول رسولُ الله ﷺ: «**بل أنا أقتُلك إن شاء اللهُ**».

---

(١) الشَّعْرَاء: ذباب أزرق يقع على ظهر البعير.

فلما رجع إلى قريشٍ وقد خدشه في عُنقه خدشًا غير كبيرٍ، فاحتقن الدمُ، قال: قتلني والله محمدٌ! قالوا له: ذهب والله فؤادُك! والله إنْ بك من بأسٍ.

قال: إنه قد كان قال لي بمكَّة: «**أنا أقتُلك**»، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني، فماتَ عدوُّ الله بسرفٍ وهم قافلون به إلى مكةَ.

قال: فلما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى فمِّ الشعب خرجَ عليُّ بن أبي طالب حتى ملأ دَرقَته ماءً من المِهراسِ[١]، فجاء به إلى رسولِ الله ﷺ ليشربَ منه، فوجد له ريحًا، فعافه فلم يشربْ منه، وغسل عن وجهه الدمَ، وصبَّ على رأسِه وهو يقول: «**اشتد غضبُ الله على من دمَّى وجهَ نبيِّه**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: فبينا رسولُ الله ﷺ بالشعبِ معه أولئك النفرُ من أصحابِه، إذ علت عاليةٌ من قريشٍ: الجبلَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**اللهمَّ إنه لا يَنبغي لهم أن يَعلونا!**» فقاتلَ عمرُ بن الخطاب ورهطٌ معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبلِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ونهض رسولُ الله ﷺ إلى صخرةٍ من الجبلِ ليَعلوها، وقد كان بَدَّنَ[٢] رسولُ الله ﷺ، وظاهرَ بين درعين، فلما ذهبَ لينهضَ ﷺ لم يَستطعْ، فجلس تحته طلحةُ بن عُبيدِ الله، فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أوجبَ[٣] طلحةُ**».

---

(١) المِهْراس: ماء بأحد. وقيل: حجر ينقر ويجعل إلى جانب البئر، ويصب فيه الماء لينتفع به الناس.
(٢) بَدَّنَ: أسن.
(٣) أَوْجَبَ: أي: وجبت له الجنة.

قال ابنُ هشامٍ: وذكر عمرُ مولى غُفرةَ أن النبيَّ ﷺ صلى الظهرَ يومَ أحدٍ قاعدًا من الجراحِ التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قُعودًا.

ثم إن أبا سفيانَ بن حربٍ، حين أراد الانصرافَ، أشرفَ على الجبلِ، ثم صرخَ بأعلى صوتِه فقال: أنعمتَ فَعال[١]، وإن الحربَ سجالٌ، يومٌ بيوم، أَعلِ هُبلَ -أي: أظهِر دينَك- فقال رسولُ الله ﷺ: **«قُم يا عمرُ فأجِبْه، فقل: الله أعلى وأجلُّ، لا سواء؛ قتلانا في الجنةِ، وقتلاكُم في النار»**.

فلما أجاب عمرُ أبا سفيانَ، قال له أبو سفيان: هَلُمَّ إليَّ يا عمرُ، فقال رسولُ الله ﷺ لعمر: **«ائتِه فانظر ما شأنُه»**.

فجاءه، فقال له أبو سفيان: أَنْشُدك اللهَ يا عمر، أقتَلنا محمدًا؟

قال عمرُ: اللهم لا، وإنه ليَسمعُ كلامَك الآن، قال: أنت أصدقُ عندي من ابنِ قَمئةَ وأبرُّ. لِقولِ ابن قمئةَ لهم: إني قد قتلتُ محمدًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم نادى أبو سفيانَ: إنه قد كان في قتلاكم مُثُلٌ، والله ما رضيت، وما سخطتُ، وما نَهيت، وما أمرتُ.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعِدَكم بدرٌ للعام القابِلِ، فقال رسولُ الله ﷺ لرجلٍ من أصحابِه: **«قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعدٌ»**.

ثم بعث رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فقال: **«اخرج في آثارِ القومِ، فانظرْ ماذا يَصنعون وما يُريدون فإن كانوا قد جَنَّبوا الخيلَ، وامتطوا الإبلَ، فإنهم يُريدون**

---

(١) أَنعَمتَ فَعال: يعني به الحرب والوقيعة، يفتخر بها.

مكةَ، وإن ركبوا الخيلَ وساقوا الإبلَ، فإنهم يُريدون المدينةَ، والذي نفسي بيدِه، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأُناجِزنَّهم».

قال عليٌّ: فخرجت في آثارِهم أنظرُ ماذا يَصنعون، فجنَّبوا الخيلَ، وامتطوا الإبلَ، ووجهوا إلى مكةَ.

وفرغَ الناسُ لقتلاهم، فقال رسولُ الله ﷺ: **«مَن رجلٌ ينظرُ لي ما فعل سعدُ بن الربيعِ؟ أفي الأحياءِ هو أم في الأمواتِ؟»**.

فقال رجلٌ من الأنصارِ: أنا أنظرُ لك يا رسولَ الله ما فعلَ سعدٌ، فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رَمقٌ.

قال: فقلت له: إن رسولَ الله ﷺ أَمرني أن أنظُرَ، أفي الأحياءِ أنت أم في الأمواتِ؟

قال: أنا في الأمواتِ، فأبلغْ رسولَ الله ﷺ عني السلامَ، وقل له: إن سعدَ بن الربيعِ يقول لك: جزاك اللهُ عنا خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمَّتِه، وأبلغ قومَك عني السلامَ، وقل لهم: إن سعدَ بن الربيعِ يقول لكم: إنه لا عُذرَ لكم عند الله إن خَلُص إلى نبيِّكم ﷺ ومنكم عينٌ تَطرِف.

قال: ثم لم أبرَح حتى ماتَ، قال: فجئتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُه خبرَه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وخرج رسولُ الله ﷺ، فيما بلغني، يلتمسُ حمزةَ بن عبدِ المطلب، فوجده ببطنِ الوادي قد بُقر بطنُه عن كبِده، ومُثِّل به، فجُدعَ أنفُه وأذناه.

فحدثني محمدُ بن جعفرِ بن الزبير أن رسولَ الله ﷺ قال حين رأى ما رأى: «**لولا أن تَحزنَ صفيَّةُ ويكون سنَّةً من بعدي؛ لتركتُه حتى يكونَ في بطون السباعِ، وحواصِلِ الطيرِ، ولئن أظهرني اللهُ على قريشٍ في موطنٍ من المواطن لأمثِّلن بثلاثين رجلًا منهم**».

فلما رأى المسلمون حزنَ رسولِ الله ﷺ وغيظَه على من فعلَ بعمِّه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرَنا اللهُ بهم يومًا من الدهرِ لنُمثِّلن بهم مُثلةً لم يُمثِّلها أحدٌ من العرب.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباس أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنزلَ في ذلك، من قول رسولِ الله ﷺ، وقولِ أصحابِه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٦-١٢٧]؛ فعفا رسولُ الله ﷺ، وصبرَ ونهى عن المُثلةِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباسٍ قال: أمر رسولُ الله ﷺ بحمزةَ فسُجِّيَ ببُردةٍ ثم صلى عليه، فكبر سبعَ تكبيرات، ثم أُتيَ بالقَتلى فيوضَعون إلى حمزةَ، فصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتينِ وسبعين صلاةً.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان قد احتمل ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينةِ، فدفنوهم بها، ثم نهى رسولُ الله ﷺ عن ذلك، وقال: «**ادفنوهم حيث صُرعوا**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عبدِ الله بن ثعلبةَ أن رسولَ الله ﷺ لما أشرفَ على القتلى يومَ أُحُدٍ قال: «**أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنه ما من جريحٍ يُجرحُ في الله إلا واللهُ**

يبعثه يومَ القيامة يَدمي جُرحُه، اللونُ لون دمٍ والريح ريحُ مسك، انظروا أكثرَ هؤلاء جمعًا للقرآنِ، فاجعلوه أمامَ أصحابِه في القبر» وكانوا يَدفنون الاثنينِ والثلاثةَ في القبرِ الواحدِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان يومُ أحُد يومَ السبتِ للنصف من شوال.

قال: فلما كان الغدُ من يوم الأحد لست عشرةَ ليلةً مضت من شوال، أذَّن مؤذنُ رسولِ الله ﷺ في الناس بطلبِ العدوِّ، فأذن مؤذنُه ألا يَخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضرَ يومنا بالأمسِ، فكلَّمه جابرُ بن عبدِ الله بن عمرو بن حَرامٍ فقال: يا رسولَ الله، إن أبي كان خلَّفني على أخواتٍ لي سبعٍ، وقال: يا بُنيَّ، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نتركَ هؤلاء النسوةَ لا رجلَ فيهن، ولست بالذي أوثركَ بالجهادِ مع رسولِ الله ﷺ على نفسي، فتخلَّفْ على أخواتِك، فتخلفتُ عليهن.

فأذِن له رسولُ الله ﷺ، فخرجَ معه، وإنما خرج رسولُ الله ﷺ مُرهبًا للعدوِّ، وليبلِّغَهم أنه خرجَ في طلبهم، ليظنوا به قوَّةً، وأن الذي أصابَهم لم يوهنهم عن عدوِّهم.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فخرجَ رسولُ الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراءِ الأسدِ، وهي من المدينةِ على ثمانيةِ أميالٍ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينةِ.

قال: وقد مرَّ به معبدُ بن أبي مَعبدٍ الخزاعيُّ، وكانت خزاعةُ، مسلمُهم ومشرِكهم عَيْبَةَ نُصحٍ[١] لرسولِ الله ﷺ بتِهامةَ، صفقتُهم معه[٢]، لا يخفون عنه

---

(١) عَيْبَة نُصح: أي: موضع سره.

(٢) صَفْقَتُهم معه: من تصافق القوم إذا تبايعوا.

شيئًا كان بها، ومعبدٌ يومئذٍ مشركٌ، فقال: يا محمدُ، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابَك، ولوددنا أن اللهَ عافاك فيهم، ثم خرجَ ورسولُ الله ﷺ بحمراءِ الأسد، حتى لقي أبا سفيانَ بن حربٍ ومن معه بالروحاءِ، وقد أجمعوا الرجعةَ إلى رسولِ الله ﷺ وأصحابِه، وقالوا: أصبنا حدَّ أصحابِه وأشرافَهم وقادَتهم، ثم نرجعُ قبل أن نستأصِلَهم! لنكُرَنَّ على بقيتهم، فلنَفرُغنَّ منهم.

فلما رأى أبو سفيان مَعبدًا، قال: ما وراءَك يا معبدُ؟ قال: محمدٌ قد خرجَ في أصحابه يطلبُكم في جمعٍ لم أرَ مثلَه قط، يتحرَّقون عليكم تحرقًا، قد اجتمعَ معه من كان تخلف عنه في يومِكم، وندِموا على ما صنعوا، فيهم من الحَنَقِ عليكم شيءٌ لم أرَ مثلَه قط، قال: ويحك! ما تقولُ؟

قال: والله ما أرى أن تَرتحلَ حتى أرى نواصيَ الخيلِ، قال: فوالله لقد أجمَعنا الكرَّةَ عليهم، لنستأصلَ بقيَّتهم: قال: فإني أنهاكَ عن ذلك.

قال: والله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيهم أبياتًا من شعرٍ.

قال: وما قلتَ؟

قال: قلت:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحِلتي ** إذ سالتِ الأرضُ بالجُردِ الأبابيلِ
تَردي بأُسدٍ كرام لا تَنابِلةٍ ** عند اللقاءِ ولا مِيلِ معازيلِ

فثنى ذلك أبا سفيانَ ومن معه.

ومرَّ به ركبٌ من عبدِ القيس، فقال: أين تُريدون؟ قالوا: نُريد المدينةَ؟

قال: ولِمَ؟

قالوا: نُريد المِيرةَ.

قال: فهل أنتم مُبلِّغون عني محمدًا رسالةً أرسلُكم بها إليه، وأُحمِلُ لكم هذه غدًا زبيبًا بعُكاظٍ إذا وافيتموها؟

قالوا: نعم.

قال: فإذا وافيتُموه فأخبروه أنَّا قد أجمعنا السيرَ إليه وإلى أصحابِه لنستأصِلَ بقيَّتهم، فمرَّ الركبُ برسولِ الله ﷺ وهو بحمراءِ الأسدِ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: «**حسبنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: كان يومُ أُحدٍ يومَ بلاءٍ ومصيبةٍ وتمحيص، اختبر اللهُ به المؤمنين، ومحَنَ به المنافقين ممن كان يُظهرُ الإيمانَ بلسانه، وهو مُستخفٍ بالكفرِ في قلبِه، ويومًا أكرمَ الله فيه من أرادَ كرامته بالشهادةِ من أهلِ ولايتِه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فجميعُ من استشهدَ من المسلمينَ مع رسولِ الله ﷺ من المُهاجرين والأنصار خمسةٌ وستون رجلًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فجميعُ من قَتل اللهُ تبارك وتعالى يومَ أحدٍ من المشركين اثنانِ وعشرون رجلًا.

١٠- ذكرُ يومِ الرجيع في سنةِ ثلاثٍ

عن محمدِ بن إسحاق المطَّلبي قال: حدثني عاصمُ بن عمر بن قتادةَ قال: قدِم على رسولِ الله ﷺ بعدَ أُحُدٍ رهطٌ من عَضَلٍ والقارَّةِ، فقالوا: يا رسولَ الله،

إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابِك يُفقِّهوننا في الدين، ويُقرِئوننا القرآنَ، ويُعلموننا شرائعَ الإسلام؛ فبعث رسولُ الله ﷺ نفرًا ستةً من أصحابِه، وهم: مَرثدُ بن أبي مرثدٍ الغنويُّ، وخالدُ بن البكير الليثي، وعاصمُ بن ثابتِ بن أبي الأقلحِ، وخُبيبُ بن عديٍّ، وزيد بن الدَّثِنةِ بن معاويةَ، وعبدُ الله بن طارق.

وأمَّر رسولُ الله ﷺ على القومِ مرثدَ بن أبي مرثدٍ الغنويَّ، فخرج مع القومِ، حتى إذا كانوا على الرجيعِ: ماءٍ لهُذيلٍ بناحية الحجازِ، على صدورِ الهدأَة غَدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هُذيلًا، فلم يَرُعِ القومَ وهم في رحالهم إلا الرجالُ بأيديهم السيوفُ قد غشَوهم، فأخذوا أسيافَهم ليُقاتلوهم فقالوا لهم: إنا والله ما نُريد قتلَكم، ولكنا نريدُ أن نُصيب بكم شيئًا من أهل مكَّةَ ولكم عهدُ الله وميثاقُه ألا نقتُلَكم.

فأما مرثدُ بن أبي مرثدٍ، وخالدُ بن البُكير، وعاصمُ بن ثابتٍ فقالوا: والله لا نقبلُ من مشركٍ عهدًا ولا عقدًا أبدًا، ثم قاتل القومَ حتى قُتل وقُتِلَ صاحباه.

فلما قُتل عاصمٌ أرادت هُذيلٌ أخذ رأسِه، ليبيعوه من سُلافةَ بنت سعدِ بن شُهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يومَ أُحُدٍ: لئن قدرت على رأسِ عاصمٍ لتشربَنَّ في قِحْفِه الخمرَ، فمنعَتْه الدَّبْرُ[1]، فلما حالت بينه وبينَهم الدبرُ قالوا: دعوه يُمسي فتَذهبُ عنه فنأخذَه، فبعث الله الوادي، فاحتمل عاصمًا، فذهب به، وقد كان عاصمٌ قد أعطى اللهَ عهدًا أن لا يمسَّه مشركٌ، ولا يمسَّ مشركًا أبدًا تنجُّسًا.

---

(١) الدَّبْر: جماعة النحل.

فكان عمرُ بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: حين بلغهُ أن الدبر منعَته: يحفظُ اللهُ العبدَ المؤمن، كان عاصمٌ نذرَ ألا يمسَّه مشركٌ، ولا يمسَّ مشركًا أبدًا في حياته، فمنعه اللهُ بعد وفاتِه، كما امتنعَ منه في حياتِه.

وأما زيدُ بن الدَّثِنةِ وخُبيب بن عديٍّ وعبدُ الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغِبوا في الحياةِ، فأعطوا بأيديهم فأَسروهم، ثم خرجوا إلى مكَّةَ، ليَبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظَّهران انتزعَ عبدُ الله بن طارقٍ يدَه من القِرانِ، ثم أخذ سيفَه، واستأخرَ عنه القومُ، فرموه بالحجارةِ حتى قَتلوه، فقبرُه رَحِمَهُٱللَّهُ بالظَّهرانِ، وأما خُبيبُ بن عدي وزيد بن الدَّثنة فقدِموا بهما مكَّةَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فابتاعَ خُبيبًا حُجيرُ بن أبي إهابٍ التميميُّ لعقبةَ بن الحارث بن عامرِ بن نوفل، وكان أبو إهاب أخا الحارثِ بن عامرٍ لأمِّه، ليقتلَه بأبيه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وأما زيدُ بن الدَّثنةِ فابتاعه صفوانُ بن أميةَ ليَقتُله بأبيه أميةَ بن خلفٍ، وبعث به صفوانُ بن أميةَ مع مولى له، يُقال له: نِسطاسٌ إلى التنعيمِ، وأخرجوه من الحرمِ ليَقتلوه، واجتمع رهطٌ من قريش، فيهم أبو سفيانَ بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليُقتَل: أنشُدك اللهَ يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآنَ في مكانِك نضربُ عُنقَه، وأنك في أهلك؟

قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانِه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تؤذيه، وأنى جالسٌ في أهلي.

قال: يقول أبو سفيان: ما رأيتُ من الناسِ أحدًا يحبُّ أحدًا كحب أصحابِ محمدٍ محمدًا، ثم قتله نسطاس يرحمه الله.

وأما خُبيب بن عديٍّ، فعن ماوِيَّةَ مولاةِ حُجير بن أبي إهابٍ -وكانت قد أسلمت- قالت: كان خبيبٌ عندي، حُبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يومًا، وإن في يده لَقِطفًا من عنبٍ مثل رأسِ الرجل يأكلُ منه، وما أعلمُ في أرضِ الله عنبًا يُؤكل.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وعنها أنها قالت: قال لي حين حضرهُ القتلُ: ابعثي إليَّ بحديدةٍ أتطهَّر بها للقتلِ، قالت: فأعطيت غلامًا من الحي المُوسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجلِ البيتَ، قالت: فوالله، ما هو إلا أن ولَّى الغلامُ بها إليه، فقلتُ: ماذا صنعتُ! أصاب والله الرجلُ ثأرَه بقتلِ هذا الغلامِ، فيكون رجلًا برجلٍ، فلما ناوله الحديدةَ أخذَها من يدِه ثم قال: لَعمرُك، ما خافت أمُّك غدري حين بعثَتْك بهذه الحديدةِ إليَّ! ثم خلَّى سبيله.

قالَ ابنُ إسحاقَ: قال عاصم: ثم خرجوا بخُبيبٍ، حتى إذا جاءوا به إلى التنعيمِ ليَصلبوه، قال لهم: إن رأيتم أن تَدعوني حتى أركعَ ركعتين فافعلوا، قالوا: دونَك فاركعْ، فركع ركعتين أتمَّهما وأحسنَهما، ثم أقبلَ على القومِ فقال: أما والله لولا أن تظنُّوا أني إنما طوَّلت جزعًا من القتلِ لاستكثرتُ من الصلاةِ.

قال: فكان خبيبُ بن عديٍّ أوَّلَ من سنَّ هاتين الركعتينِ عند القتلِ للمسلمين.

قال: ثم رفعوه على خشبةٍ، فلما أوثقوه قال: اللهمَّ إنَّا قد بلَّغنا رسالةَ رسولك، فبلِّغه الغداةَ ما يُصنعُ بنا، ثم قال: اللهم أحصِهم عددًا، واقتُلهم بَددًا، ولا تُغادر منهم أحدًا. ثم قتلوه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

١١- حديثُ بئرِ مَعونةَ في صفر سنةَ أربع

وكان من حديثِهم أن قدِم أبو براءٍ عامرُ بن مالكٍ مُلاعبُ الأسنَّةِ على رسولِ الله ﷺ المدينةَ، فعَرض عليه رسولُ الله ﷺ الإسلامَ، ودعاه إليه، فلم يُسلِم ولم يَبعُد من الإسلامِ، وقال: يا محمدُ، لو بَعثت رجالًا من أصحابِك إلى أهلِ نجدٍ، فدعوهم إلى أمرِك، رَجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**إني أخشى عليهم أهلَ نجدٍ**».

قال أبو براءٍ: أنا لهم جارٌ، فابعثهُم فليدعوا الناسَ إلى أمرِك.

فبعث رسولُ الله ﷺ المنذرَ بن عمرو في أربعينَ رجلًا من أصحابِه من خيارِ المسلمين.

فساروا حتى نزلوا ببئرِ مَعونةَ، فلما نزلوها بعثوا حَرامَ بن مِلحانَ بكتابِ رسولِ الله ﷺ إلى عدوِّ الله عامرِ بن الطُّفيلِ، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجلِ فقتلهُ.

ثم استصرخَ عليهم بني عامرٍ، فأبوا أن يُجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نُخفِر أبا براءٍ، وقد عقدَ لهم عقدًا وجِوارًا.

فاستصرخَ عليهم قبائلَ من بني سُليمٍ فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القومَ، فأحاطوا بهم في رِحالِهِم، فلما رأوهم أخذوا سُيوفَهم، ثم قاتَلوهم حتى قُتلوا من عند آخرِهم -يَرحمُهم اللهُ- إلا كعبَ بن زيدٍ أخا بني دينارِ بن النجارِ، فإنهم تركوه وبه رمقٌ، فارْتُثَّ(١) من بين القتلى، فعاشَ حتى قُتل يومَ الخندقِ شهيدًا، رحمه الله.

وكان في سرحِ القومِ عمرُو بن أميةَ الضَّمريُّ، ورجلٌ من الأنصارِ أحدُ بني عمرو بن عوفٍ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلم يُنْبئهما بمُصابِ أصحابِهما إلا الطيرُ تحومُ على العسكرِ، فقالا: والله إن لِهذه الطيرِ لشأنًا، فأقبلا لينظُرا، فإذا القومُ في دمائِهم، وإذا الخيلُ التي أصابتهم واقفةٌ.

فقال الأنصاريُّ لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نَلحقَ برسولِ الله ﷺ، فنخبرَه الخبرَ.

فقال الأنصاريُّ: لكني ما كنت لأرغبَ بنفسي عن مَوطنٍ قُتل فيه المنذرُ بن عمرو، وما كنتُ لتُخبرَني عنه الرجالُ، ثم قاتلَ القومَ حتى قُتلَ، وأخذوا عمرَو بن أميةَ أسيرًا، فلما أخبرَهم أنه من مُضرَ، أطلقه عامرُ بن الطفيلِ، وجزَّ ناصيتَه، وأعتقَه عن رقبةٍ زعم أنها كانت على أمِّه.

فخرجَ عمرو بن أميَّةَ حتى إذا كان بالقَرقرةِ من صدر قناةٍ، أقبل رجلانِ من بني عامرٍ، حتى نزلا معه في ظلٍّ هو فيه، وكان مع العامريَّيْن عقدٌ من رسولِ الله

---

(١) ارْتُثَّ: أي: حُمل من المعركة مثخنا ضعيفا.

ﷺ وجِوارٌ، لم يعلم به عمرُو بن أميةَ، وقد سألهما حين نزلا: «**ممَّن أنتما؟**» فقالا: من بني عامرٍ، فأمهلَهُما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلَهما، وهو يرى أنه قد أصابَ بهما ثُؤرةً من بني عامرٍ فيما أصابوا من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فلما قَدِم عمرُو بن أميَّةَ على رسولِ الله ﷺ فأخبرَه الخبرَ، قال رسولُ الله ﷺ: «**لقد قتلتَ قتيلينِ، لأَدِيَنَّهُما!**»، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «**هذا عملُ أبي براءٍ، قد كنت لهذا كارهًا مُتَخوِّفًا**»، فبلغ ذلك أبا براءٍ، فشقَّ عليه إخفارُ عامرٍ إياه، وما أصابَ أصحابَ رسولِ الله ﷺ بسببه وجوارِه.

١٢- أمرُ إجلاءِ بني النضير في سنةِ أربعٍ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم خرج رسولُ الله ﷺ إلى بني النضيرِ يَستعينُهم في دِية ذَينَك القتيلين من بني عامرٍ اللذين قَتلَ عمرُو بن أميةَ الضمريُّ؛ للجوارِ الذي كان رسولُ الله ﷺ عقدَ لهما، وكان بين بني النضيرِ وبين بني عامرٍ عقدٌ وحِلفٌ.

فلما أتاهم رسولُ الله ﷺ يَستَعينُهم في ديةِ ذينَك القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسمِ، نُعينُك على ما أحببتَ، مما استعَنت بنا عليه.

ثم خلا بعضُهم ببعضٍ، فقالوا: إنكم لن تَجدوا الرجلَ على مثل حالِه هذه - ورسولُ الله ﷺ إلى جنبِ جدارٍ من بيوتِهم قاعدٌ- فمَن رجلٌ يعلو على هذا البيتِ، فيُلقي عليه صخرةً؛ فيُريحنا منه؟

فانتُدِبَ لذلك عمرُو بن جَحَّاش بن كعبٍ أحدُهم، فقال: أنا لذلك، فصعِد ليُلقي عليه صخرةً كما قال، ورسولُ الله ﷺ في نفرٍ من أصحابِه فيهم أبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ رِضوان الله عليهم.

فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماءِ بما أرادَ القومُ، فقام وخرج راجعًا إلى المدينةِ، فلما استلبَثَ النبيَّ ﷺ أصحابُه، قاموا في طلبِه، فلقوا رجلا مُقبلًا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيتُه داخلًا المدينةَ.

فأقبل أصحابُ رسول الله ﷺ حتى انتَهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبرَ بما كانت اليهودُ أرادَت من الغدرِ به، وأمرَ رسولُ الله ﷺ بالتهيُّؤِ لحربِهم، والسيرِ إليهم.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم سار بالناسِ حتى نزلَ بهم.

قال ابنُ هشامٍ: وذلك في شهر ربيعٍ الأوَّلِ، فحاصَرَهم ست ليالٍ، ونزل تحريم الخمرِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فتحصَّنوا منه في الحصونِ، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطعِ النخيلِ والتحريقِ فيها، فنادَوه: أن يا محمدُ، قد كنت تَنهى عن الفسادِ، وتَعيبُه على من صنَعه، فما بالُ قطعِ النخلِ وتحريقِها؟

وقد كان رهطٌ من بني عوفِ بن الخزرج، منهم عدوُّ الله عبدُ الله بن أبي ابن سَلول ووديعةُ ومالك بن أبي قَوقلٍ وسُويدٌ وداعسٌ قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبُتوا وتمنَّعوا، فإنا لن نُسلمَكم، إن قوتِلتم قاتَلنا معكم، وإن أُخرجتُم خرجنا معكم، فتربَّصوا ذلك من نصرِهم، فلم يَفعلوا، وقذف اللهُ في قلوبهم الرعبَ، وسألوا رسولَ الله ﷺ أن يُجليَهم ويَكُفَّ عن دمائِهم، على أن لهم ما حملتِ الإبلُ من أموالِهم إلا الحَلْقةَ(١)، ففعل.

---

(١) الحَلْقة: الدروع.

فاحتملوا من أموالهم ما استقلَّت به الإبلُ، فكان الرجلُ منهم يهدمُ بيتَه عن نِجافِ[(١)] بابه، فيضعُه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبرَ، ومنهم من سارَ إلى الشأمِ.

وخلوا الأموالَ لرسولِ الله ﷺ، فكانت لرسولِ الله ﷺ خاصةً، يَضعُها حيث يشاءُ، فقسَّمها رسولُ الله ﷺ على المُهاجرين الأولين دونَ الأنصارِ، إلا أن سهلَ بن حُنيفٍ وأبا دُجانةَ سماكَ بن خَرشة ذكرا فقرًا؛ فأعطاهما رسولُ الله ﷺ.

١٣- غزوةُ بدرٍ الآخرةُ في شعبان سنةَ أربعٍ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم خرج في شعبانَ إلى بدرٍ، لميعادِ أبي سفيان، حتى نزله، فأقامَ عليه ثماني ليالٍ ينتظر أبا سفيانَ، وخرجَ أبو سفيان في أهلِ مكَّةَ حتى نزلَ مَجَنَّةَ، من ناحية الظهران، وبعضُ الناس يقول: قد بلغ عُسفانَ، ثم بدا له في الرجوعِ، فقال: يا معشرَ قريشٍ، إنه لا يُصلحُكم إلا عامٌ خَصيبٌ ترعون فيه الشجرَ، وتشربون فيه اللبنَ، وإن عامَكم هذا عامُ جَدبٍ، وإني راجعٌ فارجعوا؛ فرجع الناسُ. فسماهم أهلُ مكةَ جيشَ السويق، يقولون: إنما خرجتُم تَشربون السويقَ.

١٤- غزوةُ الخندقِ في شوال سنةَ خمس

إنه كان من حديثِ الخندقِ أن نفرًا من اليهودِ، منهم: سلَّام بن أبي الحُقيق وحُيَي بن أخطبَ في نفرٍ من بني النضيرِ ونفرٍ من بني وائلٍ -وهم الذين حزَّبوا الأحزابَ على رسولِ الله ﷺ- خَرجوا حتى قدِموا على قريشٍ مكةَ، فدَعوهم إلى حربِ رسولِ الله ﷺ، وقالوا: إنَّا سنكون معكم عليه، حتى نَستأصِلَه.

---

(١) النِّجَاف: العتبة وهي أسكفة الباب.

فقالت لهم قريشٌ: يا معشرَ يهودَ، إنكم أهلُ الكتابِ الأول والعلمِ بما أصبحنا نختلفُ فيه نحن ومحمدٌ، أفدينُنا خيرٌ أم دينُه؟

قالوا: بل دينُكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحقِّ منه، فهم الذين أنزلَ الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء:٥١-٥٥].

قال: فلما قالوا ذلك لقريشٍ، سرَّهم ونشَطوا لما دَعوهم إليه من حربِ رسولِ الله ﷺ، فاجتَمعوا لذلك واتَّعدوا له، ثم خرج أولئك النفرُ من يهودَ حتى جاءوا غطَفانَ من قيسِ عيلانَ، فدعوهم إلى حربِ رسولِ الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك؛ فاجتمعوا معهم فيه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فخرجت قريشٌ وقائدها أبو سفيانَ بن حرب، وخرجت غطفانُ وقائِدها عيينةُ بن حصنٍ في بني فَزارةَ، والحارث بن عوف في بني مُرَّةَ، ومِسعر بن رُخيلةَ فيمن تابعه من قومِه من أشجعَ.

فلما سمع بهم رسولُ الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمرِ ضربَ الخندقَ على المدينةِ، فعمل فيه رسولُ الله ﷺ تَرغيبًا للمسلمين في الأجرِ، وعمِل معه المسلمون فيه، فدأبَ فيه ودأبوا.

وأبطأ عن رسولِ الله ﷺ وعن المسلمين في عمِلهم ذلك رجالٌ من المنافقين، وجَعلوا يُورون بالضعيفِ من العملِ، ويتسلَّلون إلى أهليهم بغيرِ علمٍ من رسول الله ﷺ، ولا إذنٍ.

وجعل الرجلُ من المسلمين إذا نابته النائبةُ من الحاجة التي لا بُدَّ له منها، يَذكر ذلك لرسولِ الله ﷺ ويَستأذنُه في اللحوقِ بحاجته؛ فيأذنُ له، فإذا قضى حاجتَه رجعَ إلى ما كان فيه من عملِه رغبةً في الخيرِ واحتسابًا له.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان في حفرِ الخندقِ أحاديثُ بلغتني، فيها من الله تعالى عبرةٌ في تصديقِ رسولِ الله ﷺ، وتحقيقِ نبوَّته، عاين ذلك المسلمون.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما فرغَ رسولُ الله ﷺ من الخندقِ، أقبلت قريشٌ حتى نزلت بمُجتمَعِ الأسيالِ من رُومةَ بين الجُرُفِ وزَغابةَ في عشرة آلافٍ من أحابِيشِهم، ومن تبِعهم من بني كِنانَةَ وأهلِ تِهامةَ، وأقبلت غطَفانُ ومن تبعهم من أهلِ نجدٍ حتى نزلوا بذَنَب نَقمى إلى جانب أُحُدٍ.

وخرجَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورَهم إلى سَلْعٍ، في ثلاثة آلافٍ من المسلمين، فضربَ هنالك عسكرَه، والخندقُ بينه وبين القومِ.

قال: وخرج عدوُّ الله حُيَيُّ بن أخطبَ النضريُّ، حتى أتى كعبَ بن أسد القرظيَّ صاحبَ عقدِ بني قريظةَ وعهدِهم، وكان قد وادَعَ رسولَ الله ﷺ على قومِه، وعاقَدَه على ذلك وعاهده، فلما سمع كعبٌ بحُيي بن أخطبَ أغلقَ دونه باب حِصنِه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتحَ له؛ فناداه حيي: ويحك يا كعبُ، افتح لي!

قال: ويحك يا حُيَيُّ، إنك امرؤٌ مشئومٌ، وإني قد عاهدت محمدًا، فلست بناقضٍ ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقًا.

قال: ويحك افتح لي أكلِّمْك.

قال: ما أنا بفاعلٍ.

قال: والله إن أغلقتَ دوني إلا عن جَشيشتِك[(١)] أن آكلَ معك منها.

فأَحفَظَ الرجُلَ[(٢)]؛ ففتح له.

فقال: ويحكَ يا كعبُ، جئتُك بعزِّ الدهرِ وببحرٍ طامٍّ، جئتك بقريشٍ على قادتها وسادتِها، حتى أنزلتهم بمجتمعِ الأسيالِ من رُومةَ، وبغطفان على قادتِها وسادتِها حتى أنزلتهم بذَنَب نقمى إلى جانب أحُدٍ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يَبرحوا حتى نَستأصلَ محمدًا ومن معه.

قال: فقال له كعبٌ: جئتني والله بذُلِّ الدهرِ، وبجَهامٍ[(٣)] قد هراقَ ماءه، فهو يَرعد ويَبرُق، ليس فيه شيءٌ، ويحك يا حُييُّ! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

فلم يزل حييٌّ بكعب يَفتله في الذروةِ والغارِب حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا: لئن رجَعَت قريشٌ وغطَفانُ، ولم يَصيبوا محمدًا أن أدخلَ معك في حِصنِك حتى يُصيبني ما أصابَك، فنقض كعبُ بن أسد عهدَه، وبرئ مما كان بينه وبين رسولِ الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسولِ الله ﷺ الخبرُ وإلى المسلمين بعث رسولُ الله ﷺ سعدَ بن مُعاذٍ -وهو يومئذ سيِّدُ الأوسِ- وسعدَ بن عُبادةَ -وهو يومئذٍ سيد الخزرجِ- ومعهما عبدُ الله بن رواحة وخَوَّاتُ بن جُبير، فقال: «**انطلقوا حتى تَنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القومِ أم لا؟**»

---

(١) الجَشِيشَة: طحن البر وغيره طحنًا غليظًا.

(٢) أَحفَظَ الرجلَ: أي: أغضبه، والحفيظة الغضب.

(٣) الجَهَام: السحاب الذي لا ماء فيه.

فإن كان حقًّا فالحَنوا لي لحنًا[1] أعرفُه، ولا تَفُتُّوا في أعضادِ الناسِ، وإن كانوا على الوفاءِ فيما بينَنا وبينهم فاجهَروا به للناسِ.

قال: فخرجوا حتى أَتَوهم، فوجدوهم على أخبثِ ما بَلغَهم عنهم، ثم أقبلَ سعدٌ وسعدٌ ومن معهما إلى رسولِ الله ﷺ، فسلَّموا عليه، ثم قالوا: عَضَلٌ والقارَّةُ، أي: كغدرِ عَضَلٍ والقارَّةِ بأصحاب الرجيعِ: خبيبٍ وأصحابِه.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**الله أكبرُ، أبشروا يا معشرَ المسلمين**».

قال: وعظُم عند ذلك البلاءُ، واشتدَّ الخوفُ، وأتاهم عدوهم من فوقِهم ومن أسفلَ منهم، حتى ظن المؤمنون كُلَّ ظنٍّ، ونجمَ النفاقُ من بعضِ المنافقين.

فأقامَ رسولُ الله ﷺ وأقامَ عليه المشركون بِضعًا وعشرين ليلة، قريبًا من شهر، لم تكن بينهم حربٌ إلا الرِّمِّيا بالنبلِ والحصار.

فلما اشتدَّ على الناس البلاءُ بعث رسولُ الله ﷺ إلى عُيينةَ بن حصنٍ، وإلى الحارثِ بن عوفٍ، وهما قائدا غطفانَ فأعطاهما ثلثَ ثمارِ المدينةِ على أن يَرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابِه، فجرى بينه وبينهما الصلحُ حتى كتبوا الكتابَ ولم تقع الشهادةُ ولا عزيمةُ الصلح، إلا المراوضةُ في ذلك.

فلما أراد رسولُ الله ﷺ أن يفعلَ، بعث إلى سعدِ بن معاذٍ وسعدِ بن عبادةَ، فذكر ذلك لهما، واستشارَهما فيه، فقالا له: يا رسولَ الله، أمرًا تُحبُّه فنصنعه، أم شيئًا أمرك اللهُ به لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تَصنعُه لنا؟

---

(١) فالحَنُوا لي لحنًا: أي: أعلموني بذلك في الخفاء.

قال: «**بل شيءٌ أصنعُه لكم، والله ما أصنعُ ذلك إلا لأنني رأيتُ العربَ قد رَمتكُم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالَبُوكُم من كلِّ جانبٍ، فأردت أن أكسِرَ عنكم من شوكتِهم إلى أمر ما**».

فقال له سعدُ بن معاذ: يا رسولَ الله، قد كنا نحن وهؤلاء القومَ على الشركِ بالله وعبادةِ الأوثانِ، لا نعبد اللهَ ولا نعرفُه، وهم لا يَطمعون أن يأكلوا منها تمرةً إلا قِرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا اللهُ بالإسلامِ وهدانا له وأعزَّنا بك وبه، نُعطيهم أموالَنا! والله ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نُعطيهم إلا السيفَ حتى يَحكمَ اللهُ بيننا وبينهم.

قال رسولُ الله ﷺ: «**فأنت وذاك**».

فتناول سعدُ بن معاذ الصحيفةَ، فمحا ما فيها من الكتابِ، ثم قال: لِيَجهدوا علينا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فأقام رسولُ الله ﷺ والمسلمون، وعدوُّهم محاصِروهم، ولم يكن بينهم قتالٌ إلا أن فوارِسَ من قريشٍ تلبَّسوا للقتالِ، ثم خرجوا على خيلهم، ثم تيمَّموا مكانًا ضيقًا من الخندقِ، فضربوا خيلَهم فاقتحَمَت منه، وخرجَ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام في نفَرٍ معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرةَ التي أقحموا منها خيلَهم وأقبلت الفرسانُ تُعنِق نحوهم.

قال ابنُ هشامٍ: يقال: إن سلمان الفارسيَّ أشارَ به على رسولِ الله ﷺ، وحدثني بعضُ أهل العلمِ: أن المهاجرين يومَ الخندق قالوا: سلمانُ منا، وقالت الأنصارُ: سلمان منا، فقال رسولُ الله ﷺ: «**سلمانُ منَّا أهلَ البيت**».

وكان شِعارُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ يومَ الخندقِ وبني قريظةَ: حم، لا يُنصَرون.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وأقام رسولُ الله ﷺ وأصحابُه فيما وصف اللهُ من الخوفِ والشدَّةِ؛ لتظاهرِ عدوِّهم عليهم، وإتيانِهم إياهم من فوقِهم ومن أسفلَ منهم.

قال: ثم إن نُعيمَ بن مسعودٍ أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إني قد أسلمتُ، وإن قومي لم يَعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئتَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخَذِّلْ عنا إن استطعت، فإن الحربَ خُدعةٌ**».

فخرج نُعيم بن مسعودِ حتى أتى بني قريظةَ وكان لهم نديمًا في الجاهليةِ، فقال: يا بني قريظةَ، قد عرَفتم وُدِّي إياكم، وخاصةَ ما بيني وبينكم.

قالوا: صدقت، لست عندنا بمُتَّهم.

فقال لهم: إن قريشًا وغطفانَ ليسوا كأنتم، البلدُ بلدُكم، فيه أموالُكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تَقدرون على أن تَحوَّلوا منه إلى غيرِه، وإن قريشًا وغطفانَ قد جاءوا لحربِ محمدٍ وأصحابِه، وقد ظاهرتُموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيرِه، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزَةً[1] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادِهم وخلوا بينكم وبين الرجلِ ببلدكم، ولا طاقةَ لكم به إن خلا بكم؛ فلا تُقاتلوا مع القومِ حتى تأخذوا منهم رُهُنًا من أشرافِهم، يكونون بأيديكم ثِقةً لكم على أن تُقاتلوا معهم محمدًا حتى تُناجزوه.

(١) نُهْزَة: فرصة.

فقالوا له: لقد أشرتَ بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيانَ بن حربٍ ومن معه من رجالِ قريشٍ: قد عرفتم وُدِّي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بَلغني أمرٌ قد رأيت عليَّ حقًّا أن أُبلغكُموه، نصحًا لكم فاكتموا عنِّي.

فقالوا: نفعل.

قال: تَعَلَّموا أن معشرَ يهودَ قد ندموا على ما صنَعوا فيما بينهم وبين محمدٍ، وقد أرسلوا إليه: إنَّا قد ندِمنا على ما فعلنا، فهل يُرضيك أن نأخذَ لك من القبيلتين، من قريشٍ وغطفانَ رجالًا من أشرافِهم فنُعطيكهم، فتَضربَ أعناقَهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نَستأصلَهم؟

فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثَتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطَفانَ، فقال: يا معشرَ غطفان، إنكم أصْلِي وعشيرتي، وأحَبُّ الناسِ إليَّ، ولا أراكم تتهموني.

قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمُتَّهم.

قال: فاكتموا عنِّي.

قالوا: نفعل، فما أمرُك؟

ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريشٍ وحذَّرهم ما حذَّرهم.

فلما كانت ليلةُ السبتِ من شوال سنةَ خمسٍ، وكان من صُنع الله لرسولِه ﷺ أن أرسلَ أبو سفيانَ بن حرب ورؤوس غطفانَ إلى بني قريظةَ عِكرمةَ بن أبي جهلٍ، في نفرٍ من قريشٍ وغطفانَ، فقالوا لهم: إنا لسنا بدارِ مُقامٍ، قد هلك الخُفُّ والحافرُ، فاغدوا للقتالِ حتى نُناجز محمدًا، ونُفرغَ مما بيننا وبينه.

فأرسلوا إليهم: إن اليومَ يومُ السبت، وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدثًا، فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتلُ معكم محمدًا حتى تعطونا رُهُنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثِقةً لنا حتى نُناجز محمدًا، فإنا نخشى إن ضَرَّسَتْكم الحربُ، واشتد عليكم القتالُ أن تَنشَمِروا إلى بلادكِم وتتركونا، والرجلُ في بلدنا، ولا طاقةَ لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسلُ بما قالت بنو قُريظةَ، قالت قريشٌ وغطفانُ: والله إن الذي حدَّثكم نُعيمُ بن مسعود لحقٌّ، فأرسَلوا إلى بني قريظةَ: إنا والله لا ندفعُ إليكم رجلًا واحدًا من رجالِنا، فإن كنتم تُريدون القتالَ فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قُريظةَ حين انتهت الرسلُ إليهم بهذا: إن الذي ذَكر لكم نُعيم بن مسعودٍ لحَقٌّ، ما يُريد القومُ إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فُرصةً انتهزوها، وإن كان غيرَ ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلُّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريشٍ وغطفانَ: إنا والله لا نقاتلُ معكم محمدًا حتى تُعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم، وخذَّلَ اللهُ بينهم، وبعث اللهُ عليهم الريحَ في ليالٍ شاتيةٍ باردةٍ شديدةِ البرد، فجعلت تكفأُ قدورَهم، وتطرح أبنيتهم.

قال: فلما انتهى إلى رسولِ الله ﷺ ما اختلف من أمرِهم، وما فرَّق اللهُ من جماعتهم، دعا حذيفةَ بنَ اليمان، فبعثه إليهم؛ لينظُرَ ما فعل القومُ ليلًا، فقال: «**يا حذيفةُ، اذهب فادخُل في القومِ، فانظرْ ماذا يَصنعون، ولا تُحدِثنَّ شيئًا حتى تأتينا**».

قال: فذهبتُ فدخلت في القومِ والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تَفعل، لا تُقر لهم قِدرًا ولا نارًا ولا بناء.

فقام أبو سفيان، فقال: يا معشرَ قريشٍ: ليَنظر امرؤٌ مَن جليسُه؟

قال حذيفةُ: فأخذت بيد الرجلِ الذي كان إلى جنبي، فقلت: مَن أنت؟

قال: فلانُ بن فلان.

ثم قال أبو سفيان: يا معشرَ قريشٍ، إنكم والله ما أصبَحتم بدارِ مُقامٍ، لقد هلك الكُراعُ والخُفُّ، وأخلفتنا بنو قريظةَ، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريحِ ما ترون، ما تطمئِنُّ لنا قدرٌ، ولا تقوم لنا نارٌ، ولا يستمسك لنا بناءٌ، فارتحِلوا فإني مُرتحلٌ، ثم قام إلى جَملِه وهو معقولٌ، فجلس عليه، ثم ضربَه، فوثب به على ثلاثٍ، فوالله ما أَطلق عِقالَه إلا وهو قائمٌ، ولولا عهدُ رسول الله ﷺ إلي «**أن لا تُحدِث شيئًا حتى تأتيني**» ثم شئت، لقتلته بسهم.

قال حذيفةُ: فرجعت إلى رسولِ الله ﷺ وهو قائمٌ يصلي في مِرطٍ[1] لبعض نسائه مُرَحَّل، فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليَّ طَرَف المرطِ، ثم ركع وسجدَ، وإني لفِيه، فلما سلمَ أخبرتُه الخبرَ، وسمعتْ غطفانُ بما فعلت قريشٌ، فانشمَروا راجعين إلى بلادِهم.

---

(١) المِرْط: كساء من صوف أو خز كان يؤتزر بها.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما أصبحَ رسولُ الله ﷺ انصرفَ عن الخندقِ راجعًا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاحَ.

١٥- غزوةُ بني قريظةَ في سنةِ خمس

فلما كانت الظُّهرُ أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ، مُعتجرًا بعمامة من إستبرقٍ، على بغلة عليها رِحالةٌ، عليها قطيفةٌ من ديباجٍ، فقال: أَوَقَد وضَعْت السلاحَ يا رسولَ الله؟

قال: «**نعم**».

فقال جبريلُ: فما وضعتِ الملائكةُ السلاحَ بعد، وما رجعت الآن إلا من طلبِ القومِ، إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يأمرُك يا محمدُ بالمَسيرِ إلى بني قريظةَ، فإني عامدٌ إليهم فمُزلزلٌ بهم.

فأمرَ رسولُ الله ﷺ مُؤذِّنا فأذن في الناسِ: من كان سامعًا مُطيعًا، فلا يُصلِّين العصرَ إلا ببني قريظةَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقدَّمَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ برايتِه إلى بني قريظةَ، وابتدَرَها الناسُ.

ولما أتى رسولُ الله ﷺ بني قريظةَ: نزل على بئرٍ من آبارِها من ناحيةِ أموالهم يُقال لها: بئرُ أُنا.

قال: وحاصرَهم رسولُ الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلةً حتى جَهِدهم الحصارُ، وقذفَ اللهُ في قلوبهم الرعبَ.

وقد كان حُييُّ بن أخطبَ دخل مع بني قريظةَ في حِصنِهم حين رجعت عنهم قريشٌ وغَطفانُ، وفاءً لكعب بن أسدٍ بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا بأن رسولَ الله ﷺ غيرُ منصرفٍ عنهم حتى يُناجزَهم، قال كعبُ بن أسدٍ لهم: يا معشرَ يهودَ، قد نزلَ بكم من الأمرِ ما تَرون، وإني عارضٌ عليكم خِلالًا ثلاثًا، فخذوا أيَّها شئتم.

قالوا: وما هي؟

قال: نتابع هذا الرجلَ ونصدِّقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبيٌّ مرسلٌ، وأنه للَّذي تَجدونه في كتابِكم، فتأمنون على دمائِكم وأموالِكم وأبنائِكم ونسائكم.

قالوا: لا نُفارقُ حكمَ التوراة أبدًا، ولا نستبدلُ به غيرَه.

قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهَلُمَّ فلنقتُل أبناءَنا ونساءنا، ثم نَخرج إلى محمدٍ وأصحابِه رجالًا مُصلتين السيوفَ، لم نترك وراءنا ثَقَلًا، حتى يَحكم اللهُ بيننا وبين محمدٍ، فإن نَهلِك نَهلِك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه، وإن نَظهر فلَعمري لنجدنَّ النساءَ والأبناءَ.

قالوا: نقتلُ هؤلاء المساكين! فما خيرُ العيشِ بعدَهم؟

قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإن الليلةَ ليلةُ السبتِ، وإنه عسى أن يكون محمدٌ وأصحابُه قد أَمِنونا فيها، فانزِلوا لعلنا نصيبُ من محمدٍ وأصحابِه غِرَّةً.

قالوا: نُفسد سبتنا علينا، ونُحدثُ فيه ما لم يُحدِثُ مَن كان قبلَنا إلا من قد علمتَ، فأصابه ما لم يَخْفَ عليك من المسخِ!

قال: ما بات رجلٌ منكم منذ ولدتُه أمُّه ليلةً واحدةً من الدهر حازمًا.

قال: ثم إنهم بَعثوا إلى رسولِ الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لُبابةَ بنِ عبدِ المنذر أخا بني عمرِو بن عوفٍ، وكانوا حُلفاء الأوسِ، لنَستشيرَه في أمرنا؛ فأرسله رسولُ الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجالُ، وجَهَش إليه النساءُ والصِّبيانُ يبكون في وجهِه؛ فرَقَّ لهم.

وقالوا له: يا أبا لُبابةَ! أترى أن ننزلَ على حكم محمدٍ؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حَلْقِه أنه الذبحُ.

قال أبو لبابةَ: فوالله ما زالت قَدماي من مكانِهما حتى عرَفت أني قد خُنت اللهَ ورسولَه ﷺ، ثم انطلقَ أبو لبابةَ على وجهِه ولم يأتِ رسولَ الله ﷺ حتى ارتُبِط في المسجدِ إلى عمودٍ من عُمُدِه.

وقال: لا أبرحُ مكاني هذا حتى يتوبَ الله عليَّ مما صنعتُ، وعاهدَ الله: ألا أطأ بني قريظةَ أبدًا، ولا أُرى في بلدٍ خُنت اللهَ ورسولَه فيه أبدًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما بلغَ رسولَ الله ﷺ خبرُه -وكان قد استبطأَهُ- قال: «**أما إنه لو جاءني لاستغفرتُ له، فأما إذ قد فعلَ ما فعلَ، فما أنا بالذي أُطلِقه من مكانِه حتى يتوبَ اللهُ عليه**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني يزيدُ بن عبدِ الله بن قُسيطٍ أن توبةَ أبي لبابةَ نزلت على رسولِ الله ﷺ من السَّحَرِ، وهو في بيتِ أم سلمةَ.

قال ابنُ هشامٍ: أقام أبو لبابةَ مُرتبطًا بالجذعِ ست ليالٍ، تأتيه امرأتُه في كل وقت صلاةٍ، فتَحُلُّه للصلاةِ، ثم يعودُ فيرتبط بالجذعِ.

قال فلما أصبَحوا نزلوا على حُكم رسولِ الله ﷺ، فتواثَبت الأوسُ فقالوا: يا رسولَ الله، إنهم موالينا دون الخزرجِ، وقد فعَلْت في موالي إخواننا بالأمسِ ما قد علمتَ -وقد كان رسولُ الله ﷺ قبل بني قُريظةَ قد حاصر بني قينُقاعَ، وكانوا حلفاءَ الخزرج، فنزلوا على حُكمِه، فسأله إياهم عبدُ الله بن أُبي ابن سَلولٍ، فوهبهم له- فلما كلَّمَته الأوسُ قال رسولُ الله ﷺ: «**ألا تَرضون يا معشرَ الأوسِ أن يحكُم فيهم رجلٌ منكم؟**».

قالوا: بلى.

قال رسولُ الله ﷺ: «**فذاك إلى سعدِ بن معاذٍ**».

وكان رسولُ الله ﷺ قد جعلَ سعدَ بن معاذٍ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلمَ، يُقال لها: رُفيدةُ -في مسجِدِه- كانت تُداوي الجَرحى، وتحتسبُ بنفسها على خِدمة من كانت به ضيعةٌ من المسلمين.

وكان رسولُ الله ﷺ قد قال لقومِه حين أصابه السهمُ بالخندقِ: «**اجعلوه في خيمةِ رُفيدةَ حتى أعودَه من قريبٍ**».

فلما حَكَّمه رسولُ الله ﷺ في بني قُريظةَ، أتاه قومُه فحَمَلوه على حمارٍ قد وَطَّئوا له بوسادةٍ من أدَمٍ، وكان رجلا جسيمًا جميلًا، ثم أقبَلوا معه إلى رسولِ الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرٍو، أحسِن في مواليك، فإن رسولَ الله ﷺ إنما ولَّاك ذلك لتُحسنَ فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد أَنَى لسعدٍ ألا تأخُذَه في الله لومةُ لائمٍ.

فرجع بعضُ من كان معه من قومِه إلى دارِ بني عبد الأشهَلِ، فنعى لهم رجالَ بني قريظةَ -قبل أن يصلَ إليهم سعدٌ- عن كلمتِه التي سمع منه.

فلما انتهى سعدٌ إلى رسولِ الله ﷺ والمسلمين، قال رسولُ الله ﷺ: «**قوموا إلى سيِّدكم**».

فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرٍو، إن رسولَ الله ﷺ قد ولَّاك أمرَ مواليك لتحكُم فيهم.

فقال سعدُ بن معاذٍ: عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقُه أنَّ الحكمَ فيهم لَمَا حكمتُ؟

قالوا: نعم: وعلى من ها هنا؟ -في الناحية التي فيها رسولُ الله ﷺ، وهو مُعرِضٌ عن رسولِ الله ﷺ إجلالًا له- فقال رسولُ الله ﷺ: «**نعم**».

قال سعدٌ: فإني أحكم فيهم أن تُقتلَ الرجالُ، وتُقسَّم الأموالُ، وتُسبى الذراري والنساءُ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن علقمةَ بن وقاصٍ الليثيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ لسعدٍ: «**لقد حَكمت فيهم بحُكمِ الله من فوق سبعةِ أرقعةٍ**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم استُنزِلوا، فحبَسهم رسولُ الله ﷺ بالمدينةِ في دارِ بنت الحارثِ امرأةٍ من بني النجارِ، ثم خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى سوقِ المدينةِ التي هي سوقُها اليومَ، فخَندَقَ بها خنادقَ، ثم بعث إليهم، فضربَ أعناقَهم في تلك الخنادِق، يُخرَجُ بهم إليه أرسالًا، وفيهم عدوُّ الله حُييُّ بن أخطبَ وكعبُ بن أسدٍ رأسُ القوم، وهم ست مئةٍ أو سبع مئة، والمكَثِّرُ لهم يقول: كانوا بين الثمانِ مئةٍ والتسع مئة.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم إن رسولَ الله ﷺ قسمَ أموالَ بني قريظةَ ونساءَهم وأبناءَهم على المسلمين، وأعْلَمَ في ذلك اليومِ سُهمانَ الخيل وسُهمان الرجالِ، وأُخرج منها الخُمسُ، فكان للفارسِ ثلاثةُ أسهمٍ: للفرس سَهمانِ ولفارسه سهمٌ، وللراجل -مَن ليس له فرسٌ- سهمٌ، وكانت الخيلُ يوم بني قريظةَ ستةً وثلاثين فرسًا، وكان أوَّلَ فيْءٍ وقعت فيه السهمانُ، وأُخرج منها الخمس، فعلى سُنَّتِها وما مضى من رسولِ الله ﷺ فيها وقعت المقاسمُ، ومضت السنةُ في المغازي.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما انقَضى شأنُ بني قريظةَ انفجر بسعدِ بن معاذ جُرحُه فمات منه شهيدًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: حدثني معاذُ بن رفاعةَ الزُّرقيُّ قال: حدثني من شئتُ من رجالِ قومي: أن جبريلَ عليه السلامُ أتى رسولَ الله ﷺ حين قُبِضَ سعدُ بن معاذٍ من جوفِ الليل معتجرًا بعمامةٍ من إستبرقٍ، فقال: يا محمدُ، من هذا الميِّتُ الذي فُتحت له أبوابُ السماءِ، واهتزَّ له العرشُ؟ قال: فقام رسول الله ﷺ سريعًا يجرُّ ثوبَه إلى سعدٍ فوجده قد مات.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولم يُستشهد من المسلمين يومَ الخندق إلا ستةُ نفرٍ، وقُتلَ من المشركين ثلاثةُ نفرٍ.

ولما انصرف أهلُ الخندقِ عن الخندقِ، قال رسولُ الله ﷺ -فيما بلغني-: «**لن تَغزوكم قريشٌ بعد عامِكم هذا، ولكنكم تَغزونَهم**»، فلم تغزهم قريشٌ بعد ذلك، وكان هو الذي يَغزوها، حتى فتح اللهُ عليه مكَّةَ.

١٦- إسلامُ عمرِو بن العاصِ وخالدِ بن الوليدِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عمرِو بن العاص قال: لما انصرفنا مع الأحزابِ عن الخندقِ جمعتُ رجالًا من قريشٍ، كانوا يَرون رأيي، ويسمعون منِّي، فقلت لهم: تَعلمون والله أني أرى أمرَ محمدٍ يعلو الأمورَ علوًّا مُنكرًا، وإني قد رأيتُ أمرًا، فما ترون فيه؟

قالوا: وماذا رأيتَ؟

قال: رأيت أن نلحقَ بالنجاشيِّ فنكونَ عنده، فإن ظهرَ محمدٌ على قومنا كنا عند النجاشيِّ، فإنا أن نكون تحتَ يديه أحبُّ إلينا من أن نكونَ تحت يدي محمدٍ، وإن ظهر قومُنا فنحن مَن قد عَرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خيرٌ.

قالوا: إن هذا الرأيُ.

قلت: فاجمعوا لنا ما نُهديه له، وكان أحبَّ ما يُهدى إليه من أرضِنا الأدَمُ.

فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدِمنا عليه.

فوالله إنا لعندهُ إذ جاءه عمرو بن أميةَ الضمريُّ، وكان رسولُ الله ﷺ قد بعثَه إليه في شأنِ جعفرٍ وأصحابِه.

قال: فدخلَ عليه ثم خرجَ مِن عنده.

قال: فقلتُ لأصحابي: هذا عمرُو بن أميةَ الضمري، لو قد دخلتُ على النجاشيِّ وسألتُه إياه فأعطانيه، فضربتُ عُنُقَه، فإذا فعلتُ ذلك رأت قريشٌ أني قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسولَ محمدٍ.

قال: فدخلتُ عليه فسجدتُ له كما كنت أصنعُ، فقال: مرحبًا بصديقي، أهديتَ إليَّ من بلادِك شيئًا؟

قال: قلت: نعم، أيها الملكُ، قد أهديتُ إليك أدمًا كثيرًا.

قال: ثم قرَّبته إليه، فأعجبَه واشتَهاه، ثم قلتُ له: أيها الملكُ، إني قد رأيتُ رجلًا خرج من عندك، وهو رسولُ رجلٍ عدوٍّ لنا، فأعطنيه لأقتلَه، فإنه قد أصاب من أشرافِنا وخيارِنا.

قال: فغضِب، ثم مد يدَه فضربَ بها أنفَه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره، فلو انشقَّت لي الأرضُ لدخلتُ فيها فَرَقًا منه.

ثم قلت له: أيها الملكُ، والله لو ظننتُ أنك تكرهُ هذا ما سألتُكه.

قال: أتسألُني أن أعطيَك رسولَ رجلٍ يأتيه الناموسُ الأكبرُ الذي كان يأتي موسى لتَقتُلَه!

قال: قلت: أيها الملك، أكَذاكَ هو؟

قال: ويحَك يا عمرُو أطعني واتَّبعه، فإنه والله لعلى الحقِّ، وليَظهرنَّ على من خالفه، كما ظهرَ موسى على فِرعون وجنودِه.

قال: قلت: أفتُبايِعني له على الإسلامِ؟

قال: نعم، فبسطَ يدَه، فبايعتُه على الإسلامِ، ثم خرجتُ إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمتُ أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامدًا إلى رسولِ الله ﷺ لأُسلمَ، فلقيت خالدَ بن الوليد، وذلك قُبيل الفتحِ، وهو مُقبلٌ من مكةَ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد استقامَ المَنسِمُ، وإن الرجل لنبيٌّ، أذهبُ والله فأسلمُ، فحتى متى؟

قال: قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم.

قال: فقدِمنا المدينةَ على رسولِ الله ﷺ، فتقدمَ خالدُ بن الوليد فأسلمَ وبايع، ثم دنوتُ، فقلت: يا رسولَ الله، إني أبايعُك على أن يُغفرَ لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكرُ ما تأخر.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا عمرُو، بايع؛ فإن الإسلامَ يَجُبُّ ما كان قبله، وإن الهجرةَ تَجُبُّ ما كان قبلها**»، قال: فبايعته، ثم انصرفت.

١٧- غزوةُ بني المُصطَلِق

قالَ ابنُ إسحاقَ: بلغ رسولَ الله ﷺ أن بني المُصطلِق يَجمَعون له، وقائدُهم الحارثُ بن أبي ضِرار أبو جويريةَ بنت الحارثِ زوجِ رسولِ الله ﷺ، فلما سمعَ رسولُ الله ﷺ بهم خرجَ إليهم، حتى لقيَهم على ماءٍ لهم يُقال له: المُريسيعُ، من ناحية قُديدٍ إلى الساحل، فتزاحف الناسُ واقتتلوا، فهزمَ اللهُ بني المصطلِق، وقُتل من قتل منهم، ونفلَ رسولُ الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالَهم، فأفاءهم عليه.

فبينا رسولُ الله ﷺ على ذلك الماءِ، وردَت واردةُ الناسِ، ومع عمرَ بنِ الخطاب أجيرٌ له من بني غفارٍ يقال له: جَهجاه بنُ مسعود يقود فرسَه، فازدحم جهجاه وسنانُ بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخَ الجهنيُّ: يا معشرَ الأنصار، وصرخ جَهجاه: يا معشرَ المهاجرين، فغضب عبدُ الله بن أبي ابن سلولٍ وعنده رهطٌ من قومه فيهم زيدُ بن أرقمَ -غلام حدث- فقال: أوَقَد فعلوها، قد نافَرونا وكاثَرونا في بلادِنا، والله ما أَعُدُّنا وجَلابيبَ قريشٍ إلا كما قال الأوَّلُ: سمِّن كلبَك يأكلْك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَ.

ثم أقبل على من حضرهُ من قومِه، فقال لهم: هذا ما فعلتُم بأنفسِكم، أحللتموهم بلادَكم، وقاسَمتموهم أموالَكم، أما والله لو أمسكتُم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غيرِ دارِكم.

فسمع ذلك زيدُ بن أرقمَ، فمشى به إلى رسولِ الله ﷺ، وذلك عند فراغِ رسولِ الله ﷺ من عدوِّه، فأخبرَه الخبرَ وعنده عمرُ بن الخطابِ، فقال: مُر به عَبَّادَ بن بشرٍ فليقتُله.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «**فكيف يا عمرُ إذا تحدثَ الناس أن محمدًا يقتلُ أصحابَه! لا، ولكن أذِّن بالرحيلِ**»، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحلُ فيها، فارتحل الناسُ.

وقد مشى عبدُ الله بن أبي ابن سلول إلى رسولِ الله ﷺ حين بلغهُ أن زيدَ بن أرقمَ قد بلَّغه ما سمعَ منه، فحلف بالله: ما قلتُ ما قالَ، ولا تكلمت به.

وكان في قومه شريفًا عظيمًا، فقال من حضرَ رسولَ الله ﷺ من الأنصارِ من أصحابِه: يا رسولَ الله، عسى أن يكون الغلامُ قد أوهَم في حديثِه، ولم يحفظ ما قال الرجلُ، حدبًا على ابن أبي ابن سلولٍ، ودفعا عنه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما استقلَّ رسولُ الله ﷺ وسارَ، لقيه أُسيدُ بن حضيرٍ، فحيَّاه بتحية النبوةِ وسلم عليه، ثم قال: يا نبيَ الله، والله لقد رُحتَ في ساعة مُنكرةٍ، ما كنتَ تروح في مثلها.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «**أوَ ما بلغك ما قال صاحبُكم؟**»

قال: وأيُّ صاحب يا رسولَ الله؟

قال: «**عبدُ الله بن أبي**».

قال: وما قال؟

قال: «**زعم أنه إن رجعَ إلى المدينةِ ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ**».

قال: فأنت يا رسولَ الله والله تُخرجه منها إن شئتَ، هو والله الذليلُ وأنت العزيزُ، ثم قال: يا رسولَ الله، ارفق به، فوالله لقد جاءَنا اللهُ بك، وإن قومَه لينظِمون له الخرزَ ليتوجوه، فإنه ليَرى أنك قد استلبتَه مُلكًا.

ثم مشى رسولُ الله ﷺ بالناسِ يومَهم ذلك حتى أمسى، وليلَتهم حتى أصبَحَ وصدرَ يومِهم ذلك حتى آذتهم الشمسُ، ثم نزلَ بالناسِ، فلم يَلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرضِ فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسولُ الله ﷺ ليَشغلَ الناسَ عن الحديثِ الذي كان بالأمس من حديث عبدِ الله ابن أُبيٍّ.

وبلغ عبدَ الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمرِ أبيه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني عاصمُ بن عمر بنِ قتادةَ أن عبد الله أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تُريد قتلَ عبدِ الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلًا فمُرني به، فأنا أحملُ إليك رأسَه، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من رجلٍ أبرَّ بوالِده مني، وإني أخشى أن تأمرَ به غيري فيقتلَه، فلا تدعني نفسي أنظرُ إلى قاتلِ عبدِ الله بن أبي يَمشي في الناس؛ فأقتله فأَقتلُ رجلًا مؤمنًا بكافرٍ، فأدخل النارَ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**بل نترفَّق به، ونُحسنُ صُحبَته ما بقي معنا**».

وجعل بعد ذلك إذا أحدثَ الحدثَ كان قومُه هم الذين يُعاتِبونه ويأخذونه ويُعنِّفونه، فقال رسولُ الله ﷺ لعمرَ بن الخطابِ حين بلغه ذلك من شأنِهم: «**كيف تَرى يا عمرُ، أما والله لو قتلتُه يوم قلتَ لي: اقتُله، لأُرعِدَت له آنُفٌ، لو أمرتُها اليومَ بقتله لقتلته**».

قال: قال عمر: قد والله علمتُ لَأَمرُ رسولِ الله ﷺ أعظمُ بركةً من أمري.

قال ابنُ هشامٍ: وكان شعارُ المسلمين يومَ بني المصطلِق: يا منصورُ، أمِتْ أمِتْ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وأصيبَ من بني المصطلِق يومئذٍ ناسٌ، وقَتلَ عليُّ بن أبي طالب منهم رَجلينِ، مالكًا وابنه، وقتلَ عبدُ الرحمن بن عوفٍ رجلًا من فرسانهم، يُقال له: أحمرُ، أو أُحيمر.

١٨- خبرُ الإفك في غزوةِ بني المُصطلِق سنةَ ست

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ سفرًا أقْرَعَ بين نسائه، فأيَّتَهن خرج سهمُها خرج بها معه، فلما كانت غزوةُ بني المُصطلِق أقرع بين نسائِه، كما كان يصنعُ، فخرج سَهمي عليهن معه، فخرجَ بي رسولُ الله ﷺ.

قالت: وكان النساءُ إذ ذاك إنما يأكُلن العُلَق(١) لم يُهيجهنَّ اللحمُ فيثقلن، وكنتُ إذا رُحِّل لي بعيري جَلست في هَودَجي، ثم يأتي القومُ الذين يُرحِّلون لي ويَحملونني، فيَأخذون بأسفلِ الهودجِ فيَرفعونَه، فيَضعونه على ظهرِ البعيرِ، فيَشدُّونه بحبالِه، ثم يأخذون برأسِ البعيرِ، فينطلقون به.

قالت: فلما فرغَ رسولُ الله ﷺ من سفرِه ذلك، وجَّه قافلًا حتى إذا كان قريبًا من المدينةِ نزل منزلًا، فبات به بعضَ الليلِ، ثم أذَّن في الناسِ بالرحيلِ، فارتحل الناسُ، وخرجتُ لبعض حاجتي، وفي عُنقي عِقدٌ لي، فيه جَزْعُ ظَفارِ(٢)، فلما فرغتُ انسلَّ من عُنقي ولا أدري، فلما رَجعتُ إلى الرحلِ ذهبت ألتمسُه في عنقي، فلم أجدْه، وقد أخذَ الناسُ في الرحيلِ، فرَجعتُ إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمستُه حتى وجدتُه، وجاء القومُ خِلافي -الذين كانوا يُرحِّلون لي البعيرَ- وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهَودجَ، وهم يَظنون أني فيه، كما كنت أصنعُ، فاحتَملوه فشدُّوه على البعيرِ، ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأسِ البعيرِ، فانطلقوا به فرَجعتُ إلى العسكرِ وما فيه من داعٍ ولا مُجيبٍ، قد انطلقَ الناس.

---

(١) العُلَق: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء.

(٢) الجَزْع: نوع من الخرز فيه بياض وسواد. وظَفار: موضع باليمن.

قالت: فتلفَّفتُ بجِلبابي، ثم اضطجعتُ في مكاني، وعرفت أن لو قد افتُقِدت لرُجع إليَّ.

قالت: فوالله إني لَمُضطجعةٌ إذ مر بي صفوانُ بن المعطلِ السلميُّ، وقد كان تخلفَ عن العسكرِ لبعضِ حاجته، فلم يبت مع الناسِ، فرأى سَوادي، فأقبل حتى وقف عليَّ، وقد كان يراني قبل أن يُضربَ علينا الحجابُ، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجِعون، ظعينةُ رسولِ الله ﷺ!

وأنا متلففةٌ في ثيابي، قال: ما خلفك يرحمُك اللهُ؟

قالت: فما كلمته، ثم قرَّبَ البعيرَ، فقال: اركبي، واستأخَر عني.

قالت: فركبتُ، وأخذَ برأسِ البعيرِ، فانطلق سريعًا، يطلُبُ الناسَ، فوالله ما أدركنا الناسَ، وما افتُقدتُ حتى أصبحتُ، ونزل الناسُ، فلما اطمأنوا طلعَ الرجلُ يقودُ بي، فقال أهلُ الإِفك ما قالوا فارتَعجَ[1] العسكرُ، ووالله ما أعلم بشيءٍ من ذلك.

ثم قدِمنا المدينةَ، فلم ألبث أن اشتكيتُ شكوى شديدةً، ولا يَبلغني من ذلك شيءٌ، وقد انتهى الحديثُ إلى رسولِ الله ﷺ، وإلى أَبَويَّ لا يَذكرون لي منه قليلًا ولا كثيرًا، إلا أنِّي قد أَنكرتُ من رسولِ الله ﷺ بعضَ لُطفِه بي، كنت إذا اشتكيتُ رحِمني ولطف بي، فلم يَفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرتُ ذلك منه، كان إذا دخل عليَّ وعندي أمِّي تُمرضني قال: «**كيف تِيكُم؟**» لا يزيد على ذلك.

---

(١) ارتَعَجَ: اضطرب.

قالَ ابنُ إسحاقَ: قالت: حتى وجدتُ في نفسي، فقلت: يا رسولَ الله -حين رأيتُ ما رأيتُ من جَفائه لي-: لو أذِنت لي، فانتقلتُ إلى أمِّي، فمرضتني؟

قال: «**لا عليك**».

قالت: فانتقلتُ إلى أمِّي، ولا علمَ لي بشيءٍ مما كان، حتى نقِهتُ من وجَعي بعد بضعٍ وعشرين ليلةً، وكنا قومًا عرَبًا، لا نتخذُ في بيوتنا هذه الكنفَ التي تتخذها الأعاجمُ؛ نَعافُها ونَكرهُها، إنما كنا نذهبُ في فُسَح المدينةِ، وإنما كانت النساءُ يخرجنَ كلَّ ليلةٍ في حوائِجهن، فخرجتُ ليلةً لبعض حاجَتي ومعي أمُّ مِسطحٍ، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثُرت في مِرطها فقالت: تَعِس مِسطحٌ! ومسطحٌ لقب واسمه: عوفٌ.

قالت: قلت: بئس لعمرُ الله ما قلت لرجلٍ من المهاجرين قد شهِد بدرًا، قالت: أوَ ما بلغك الخبرُ يا بنتَ أبي بكر؟

قالت: قلت: وما الخبرُ؟

فأخبرتني بالذي كان من قولِ أهلِ الإفكِ.

قالت: قلت: أوَقد كان هذا؟

قالت: نعم والله لقد كان.

قالت: فوالله ما قدِرتُ على أن أقضيَ حاجَتي ورجعتُ، فوالله ما زلتُ أبكي حتى ظننت أن البكاءَ سيَصدعُ كبِدي.

قالت: وقلت لأمِّي: يغفرُ الله لك، تحدَّث الناسُ بها تَحدَّثوا به، ولا تَذكُرين لي من ذلك شيئًا!

قالت: أيْ بُنية، خفِّضي عليك الشأنَ، فوالله لقلما كانت امرأةٌ حسناءُ عند رجل يُحبُّها لها ضرائرُ إلا كثَّرن وكثر الناسُ عليها.

قالت: وقد قام رسولُ الله ﷺ في الناسِ يخطُبهم ولا أعلم بذلك، فحمِد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: «**أيها الناسُ، ما بالُ رجالٍ يُؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غيرَ الحقِّ، والله، ما عَلمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجلٍ والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما يَدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**».

قالت: وكان كِبرُ ذلك عند عبدِ الله بن أبيٍّ ابن سَلول في رجال من الخزرجِ مع الذي قال مِسطحُ وحَمنةُ بنت جحش.

فلما قال رسولُ الله ﷺ تلك المقالةَ، قال أُسيد بن حُضير: يا رسولَ الله، إن يكونوا من الأوسِ نَكفِكَهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرجِ، فمُرنا بأمرِك، فوالله إنهم لأهلٌ أن تُضرب أعناقُهم.

قالت: فقام سعدُ بن عبادةَ، وكان قبل ذلك يُرى رجلًا صالحًا، فقال: كذبتَ لعمرُ الله، لا نَضرب أعناقَهم، أما والله ما قلتَ هذه المقالةَ إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرجِ، ولو كانوا من قومِك ما قلتَ هذا.

فقال أسيدٌ: كذبتَ لعمرُ الله، ولكنك منافقٌ تُجادلُ عن المنافقين.

قالت: وتساورَ الناسُ حتى كاد يكون بين هذين الحيَّين من الأوسِ والخزرج شرٌّ.

قالت: ثم دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، وعندي أبواي، وعندي امرأةٌ من الأنصارِ، وأنا أبكي وهي تَبكي معي، فجلسَ فحمِد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: «**يا عائشةُ، إنه قد كان ما قد بلغَك من قولِ الناسِ، فاتَّقي اللهَ، وإن كنت قد قارفتِ سوءًا مما يقولُ الناسُ فتوبي إلى الله، فإن اللهَ يقبلُ التوبةَ عن عباده**».

قالت: فوالله ما هو إلا أن قالَ لي ذلك، فقَلُص دمعي، حتى ما أُحسُّ منه شيئًا، وانتظرتُ أبوي أن يُجيبا عنِّي رسولَ الله ﷺ، فلم يَتكَلَّما.

قالت: وايمُ الله لأنا كنتُ أحقرَ في نفسي، وأصغرَ شأنًا من أن يُنزلَ الله فيَّ قرآنًا يُقرأ به في المساجدِ، ويُصلَّى به، ولكني قد كنت أرجو أن يَرى رسولُ الله ﷺ في نومِه شيئًا يُكذبُ به اللهُ عني، لما يَعلم من براءتي، أو يُخبَرَ خبرًا، فأما قرآنٌ ينزل فيَّ! فوالله، لَنَفسي كانت أحقرَ عندي من ذلك.

قالت: فلما لم أرَ أبويَّ يتكلمان؛ قلت لهما: ألا تُجيبان رسولَ الله ﷺ؟

قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نُجيبه.

قالت: ووالله ما أعلمُ أهلَ بيت دخل عليهم ما دخلَ على آلِ أبي بكرٍ في تلك الأيامِ.

قالت: فلما أن استعجما عليَّ، استعبرتُ فبكيت.

ثم قلت: والله لا أتوبُ إلى الله مما ذكرتَ أبدًا، والله إني لأعلمُ لئن أقررت بما يقولُ الناسُ -والله يعلم أني منه بريئةٌ- لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون لا تُصدقونني.

قالت: ثم التمستُ اسمَ يعقوبَ فما أذكُره، فقلت: ولكن سأقولُ كما قال أبو يوسفَ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

قالت: فوالله، ما بَرِح رسولُ الله ﷺ مجلِسه حتى تغشَّاه من الله ما كان يَتغشَّاه، فسُجِّي بثوبه ووضعت له وسادةٌ من أدَم تحت رأسِه، فأما أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيتُ، فوالله ما فزِعت ولا باليتُ، قد عَرفت أني بريئةٌ، وأن اللهَ عَزَّوَجَلَّ غيرُ ظالمي، وأما أبواي، فوالذي نفسُ عائشةَ بيده، ما سُرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتَخرُجَنَّ أنفسُهما فَرَقًا من أن يأتي من الله تحقيقُ ما قال الناس.

قالت: ثم سُرِّي عن رسولِ الله ﷺ، فجلسَ وإنه ليَتحدَّر منه مثل الجُمانِ في يوم شاتٍ، فجعل يَمسح العرقَ عن جبينِه ويقول: «**أبشِري يا عائشةُ، فقد أنزلَ اللهُ براءَتك**».

قالت: قلت: بحمد الله، ثم خرجَ إلى الناسِ فخطبَهم، وتلا عليهم ما أنزلَ اللهُ عليه من القرآنِ في ذلك، ثم أمرَ بمِسطحِ بن أُثاثَةَ، وحسانَ بن ثابتٍ، وحَمنةَ بنت جحشٍ، وكانوا ممن أفصحَ بالفاحشةِ؛ فضُربوا حدَّهم.

[ثالثا: الحديبية وفتح مكة]

١- أمرُ الحديبيَة في آخر سنةِ ست

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم أقام رسولُ الله ﷺ بالمدينة شهرَ رمضانَ وشوالًا، وخرج في ذي القعدة مُعتمرًا، لا يُريد حربًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: واستنفرَ العربَ ومن حولَه من أهل البوادي من الأعرابِ ليَخرجوا معه، وهو يَخشى من قريشٍ الذي صنَعوا، أن يَعرِضوا له بحربٍ أو يصدوه عن البيتِ، فأبطأ عليه كثيرٌ من الأعرابِ، وخرج رسولُ الله ﷺ بمن معه من المُهاجرين والأنصارِ ومن لِحق به من العربِ، وساقَ معه الهديَ، وأحرمَ بالعُمرة ليأمنَ الناسُ من حربه، وليعلمَ الناسُ أنه إنما خرجَ زائرًا لهذا البيت ومُعظِّمًا له.

قالَ ابنُ إسحاقَ: خرجَ رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبية يُريد زيارةَ البيت، لا يُريدُ قتالًا، وساق معه الهديَ سبعين بدنةً، وكان الناس سبعَ مئة رجلٍ، فكانت كلُّ بدنةٍ عن عشرة نفرٍ، وكان جابرُ بن عبد الله -فيما بلغني- يقول: كنا أصحابَ الحديبيةِ أربعَ عشرة مئة.

قال الزهري: وخرج رسولُ الله ﷺ حتى إذا كان بعُسفانَ لقيه بِشرُ بن سفيانَ الكعبيُّ، فقال: يا رسولَ الله، هذه قريشٌ قد سمعت بمَسيرك، فخَرجوا معهم العُوذُ المَطافيلُ[(١)].

---

(١) العُوذُ المَطافِيلُ: الإبل مع أولادها، كناية عن خروج النساء والصبيان معهم.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا ويحَ قريشٍ! لقد أكَلَتهُم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائرِ العربِ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهَرني اللهُ عليهم دَخلوا في الإسلامِ وافِرين، وإن لم يَفعلوا قاتَلوا وبهم قوةٌ، فما تظن قريشٌ، فوالله لا أزالُ أجاهدُ على الذي بعثني اللهُ به حتى يُظهره اللهُ أو تنفردَ هذه السالفةُ**».

ثم قال: «**مَن رجلٌ يَخرج بنا على طريقٍ غيرِ طَريقهم التي هم بها؟**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني عبدُ الله بن أبي بكرٍ: أن رجلًا من أسلمَ قال: أنا يا رسولَ الله.

فلما رأت خيلُ قريشٍ قَتَرَةَ الجيشِ[١] قد خالَفوا عن طريقِهم، رجعوا راكِضين إلى قريشٍ.

وخرجَ رسولُ الله ﷺ حتى إذا سلك في ثَنيَّةِ المُرارِ بركت ناقتُه، فقالت الناسُ: خَلأَتِ[٢] الناقةُ.

قال: «**ما خلأت وما هو لها بخُلقٍ، ولكن حَبَسها حابسُ الفيل عن مكَّةَ، لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطةٍ يسألونني فيها صلةَ الرحمِ إلا أعطيتُهم إياها**».

قال الزهري: فلما اطمأن رسولُ الله ﷺ أتاه بُديل بن ورقاءَ الخُزاعيُّ في رجال من خزاعةَ، فكلموه وسألوه: ما الذي جاء به؟

---

(١) قَتَرة الجيش: غباره.

(٢) خَلأَتْ: أي بركت من غير علة.

فأخبرهم أنه لم يأت يُريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيتِ، ومُعظِّمًا لحرمَتِه، فرَجعوا إلى قريشٍ فقالوا: يا معشرَ قريشٍ، إنكم تَعجلون على محمدٍ، إن محمدًا لم يأت لقتالٍ، وإنما جاء زائرًا للبيتِ، فاتَّهَموهم وجَبَّهوهم(١) وقالوا: وإن كان جاء ولا يُريد قتالًا، فوالله لا يَدخلها علينا عُنوة أبدًا، ولا تُحَدِّث بذلك عنا العربُ.

قال الزهري: وكانت خُزاعةُ عَيبةَ نُصحِ رسولِ الله ﷺ، مسلمُها ومشركُها، لا يُخفون عنه شيئًا كان بمكَّةَ.

قال: ثم بعثوا إليه مِكرَزَ بن حفصِ بن الأخيفِ أخا بني عامرِ بن لؤيٍ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ مُقبلًا قال: «**هذا رجلٌ غادرٌ**»، فلما انتهى إلى رسولِ الله ﷺ وكلَّمه، قال له رسولُ الله ﷺ نحوًا مما قال لبُديلٍ وأصحابِه، فرجع إلى قريشٍ فأخبرَهم بما قال له رسولُ الله ﷺ.

قال الزهريُّ: ثم بعثوا إليه الحُليس بن علقمةَ أو ابن زبَّان، وكان يومئذ سيِّد الأحابيشِ، وهو أحدُ بني الحارث بنِ عبد مناةَ بن كنانةَ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: «**إن هذا من قومٍ يَتألَّهون، فابعثوا الهديَ في وجهِه حتى يراه**»، فلما رأى الهديَ يسيلُ عليه من عُرضِ الوادي في قلائدِه، وقد أكلَ أوبارَه من طولِ الحبسِ عن مَحلِّه، رجع إلى قريشٍ، ولم يَصل إلى رسولِ الله ﷺ إعظامًا لما رأى، فقال لهم ذلك.

قال: فقالوا له: اجلسْ، فإنما أنت أعرابيٌّ لا علم لك.

---

(١) جَبَّهُوهم: أي استقبلوهم بالمكروه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني عبدُ الله بن أبي بكرٍ: أن الحُليسَ غضبَ عند ذلك وقال: يا معشرَ قريشٍ، والله ما على هذا حالفناكُم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصدُّ عن بيت الله مَن جاء مُعظِّمًا له! والذي نفس الحُليس بيدِه، لتُخلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفِرن بالأحابيشِ نفرةَ رجل واحدٍ، قال: فقالوا له: مه، كُفَّ عنا يا حليسُ حتى نأخُذَ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسولِ الله ﷺ عروةَ بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشرَ قريشٍ، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بَعثتموه إلى محمدٍ إذ جاءَكم من التعنيفِ وسوءِ اللفظ، وقد عرَفتم أنكم والدٌ وأني ولد -وكان عروةُ لسبيعةَ بنتِ عبد شمس- وقد سمعت بالذي نابَكم، فجمعتُ من أطاعني من قومي، ثم جئتُكم حتى آسيتُكُم بنفسي.

قالوا: صدقتَ، ما أنت عندنا بمُتَّهم.

فخرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ، جلسَ بين يديه، ثم قال: يا محمدُ، أجمعت أوشابَ الناسِ، ثم جئت بهم إلى بيضَتِك لتفُضَّها بهم، إنها قريشٌ قد خرجت معها العُوذ المَطافيلُ، قد لبسوا جلودَ النمور، يعاهدون اللهَ لا تدخُلها عليهم عُنوةً أبدًا، وايمُ الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا.

قال: وأبو بكر الصديقُ خلفَ رسولِ الله ﷺ قاعدٌ، فقال: امصُص بَظْرَ اللاتِ، أنحن ننكشفُ عنه؟!

قال: من هذا يا محمدُ؟

قال: «**هذا ابن أبي قُحافةَ**».

قال: أما والله لولا يَدٌ كانت لك عندي لكافأتُك بها، ولكن هذه بها، قال: ثم جعل يَتناول لِحيةَ رسولِ الله ﷺ وهو يكلِّمه، قال: والمغيرةُ بن شعبة واقفٌ على رأسِ رسولِ الله ﷺ في الحديدِ، قال: فجعل يقرَعُ يدَه إذا تناولَ لحيةَ رسولِ الله ﷺ، ويقول: اكفُفْ يدَك عن وجه رسولِ الله ﷺ قبل ألا تَصِلَ إليك.

فكلمه رسولُ الله ﷺ بنحوٍ مما كلم به أصحابَه، وأخبره أنه لم يأت يُريد حربًا، فقام من عند رسولِ الله ﷺ وقد رأى ما يَصنع به أصحابُه، لا يتوضأُ إلا ابتدروا وَضوءَه، ولا يَبصُق بُصاقًا إلا ابتدروه، ولا يسقطُ من شعره شيءٌ إلا أخذوه.

فرجع إلى قريشٍ، فقال: يا معشرَ قريشٍ، إني قد جئت كسرى في مُلكِه، وقيصرَ في ملكه، والنجاشيَّ في ملكِه، وإني والله ما رأيت مَلكًا في قوم قط مثلَ محمدٍ في أصحابه، ولقد رأيتُ قومًا لا يُسلمونه لشيء أبدًا، فَرُوا رَأيَكم.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني بعضُ أهل العلمِ أن رسولَ الله ﷺ دعا خِراشَ بن أميةَ الخُزاعيَّ، فبعثه إلى قريشٍ بمكَّةَ، وحمله على بعيرٍ له يُقال له: الثعلبُ، ليُبَلِّغَ أشرافَهم عنه ما جاءَ له، فعقروا به جملَ رسولِ الله ﷺ، وأرادوا قتلَه، فمنعته الأحابيشُ، فخلوا سبيلَه حتى أتى رسولَ الله ﷺ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباسٍ أن قريشًا كانوا بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين رجلًا، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكرِ رسولِ الله ﷺ، ليُصيبوا لهم من أصحابِه أحدًا، فأُخذوا أخذًا، فأتي بهم رسولُ الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلَّى سبيلَهم، وقد كانوا رَموا في عسكر رسولِ الله ﷺ بالحجارةِ والنَّبلِ.

ثم دعا عمرَ بن الخطاب ليبعثَه إلى مكَّةَ، فيُبَلِّغ عنه أشرافَ قريش ما جاء له، فقال: يا رسولَ الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكَّةَ من بني عديٍّ بن كعب أحدٌ يَمنعني، وقد عرفت قريشٌ عداوتي إياها، وغِلظَتي عليها، ولكني أدلُّك على رجلٍ أعز بها مني، عثمانَ بن عفان.

فدعا رسولُ الله ﷺ عثمانَ بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيانَ وأشرافِ قريشٍ؛ يُخبرهم أنه لم يأت لحربٍ، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيتِ، ومُعظِّمًا لحُرمته.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فخرج عثمانُ إلى مكةَ، فلقيه أبانُ بن سعيدِ بن العاص حين دخل مكةَ، أو قبل أن يَدخُلها، فحمله بين يديه، ثم أجارَه حتى بلَّغ رسالةَ رسولِ الله ﷺ، فانطلقَ عثمانُ حتى أتى أبا سفيانَ وعظماءَ قريشٍ، فبلَّغهم عن رسولِ الله ﷺ ما أرسلَه به، فقالوا لعثمانَ حين فرغَ من رسالةِ رسولِ الله ﷺ إليهم: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فطُفْ.

فقال: ما كنت لأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ، واحتبسته قريشٌ عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أن عثمانَ بن عفان قد قُتل.

٢- بيعةُ الرِّضوان

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني عبدُ الله بن أبي بكرٍ: أن رسولَ الله ﷺ قال حين بلغَه أن عثمانَ قد قُتِل: «**لا نبرحُ حتى نُناجز القومَ**».

فدعا رسولُ الله ﷺ الناسَ إلى البيعةِ، فكانت بيعةُ الرضوان تحت الشجرةِ، فكان الناسُ يقولون: بايَعهم رسولُ الله ﷺ على الموتِ، وكان جابرُ بن عبدِ الله يقول: إن رسولَ الله ﷺ لم يبايعْنا على الموت، ولكن بايعَنا على أن لا نَفِرَّ.

فبايعَ رسولُ الله ﷺ الناسَ، ولم يتخلف عنه أحدٌ من المسلمين حَضَرها إلا الجدُّ بن قيسٍ أخو بني سلمةَ، فكان جابرُ بن عبد الله يقول: والله لَكأني أنظر إليه لاصقًا بإبطِ ناقته، قد ضبأَ إليها، يستتر بها من الناسِ.

ثم أتى رسولَ الله ﷺ أن الذي ذُكر من أمر عثمانَ باطلٌ.

٣- أمرُ الهدنةِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: قال الزهريُّ: ثم بعثت قريشٌ سهيلَ بن عمرو أخا بني عامرِ بن لؤيٍّ إلى رسولِ الله ﷺ، وقالوا له: ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صُلحه إلا أن يرجع عنا عامَه هذا، فوالله لا تُحدِّثُ العربُ عنا أنه دخلها علينا عُنوةً أبدًا.

فأتاه سُهيل بن عمرو، فلما رآه رسولُ الله ﷺ مُقبلًا، قال: «**قد أراد القومُ الصلحَ حين بعثوا هذا الرجلَ**».

فلما انتهى سهيلُ بن عمرو إلى رسولِ الله ﷺ تكلَّم فأطالَ الكلامَ، وتراجَعا، ثم جرى بينهما الصلحُ.

فلما التَأَمَ الأمرُ ولم يبقَ إلا الكتابُ وثَب عمرُ بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكرٍ، أليس برسولِ الله؟

قال: بلى.

قال: أوَلسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أَوَليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلامَ نُعطى الدنيَّة في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عُمر، الزم غرزَه، فإني أشهدُ أنه رسولُ الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسولُ الله.

ثم أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ألست برسولِ الله؟

قال: «بلى».

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: «بلى».

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: «بلى».

قال: فعلامَ نُعطى الدنيةَ في ديننا؟

قال: «**أنا عبدُ الله ورسولُه، لن أخالفَ أمرَه، ولن يضيعني!**».

قال: فكان عمر يقول: ما زلتُ أتصدَّق وأصومُ وأصلي وأُعتقُ، من الذي صنعتُ يومئذٍ مخافةَ كلامي الذي تكلمتُ به، حتى رجوتُ أن يكون خيرًا.

قال: ثم دعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ رِضوان الله عليه، فقال: «**اكتُب: بسمِ الله الرحمن الرحيم**».

قال: فقال سُهيلٌ: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمِك اللهمَّ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**اكتُب: باسمك اللهمَّ**»، فكتبها.

ثم قال: «**اكتُب: هذا ما صالحَ عليه محمدٌ رسولُ الله سُهيلَ بن عمرو**».

قال: فقال سهيلٌ: لو شهدتُ أنك رسولُ الله لم أقاتِلك، ولكن اكتُبْ اسمَك واسم أبيك.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**اكتُبْ: هذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبدِ الله سُهيلَ بن عمرو، اصطلحا على وضعِ الحربِ عن الناسِ عشْرَ سنين، يأمنُ فيهن الناسُ ويكُفُّ بعضُهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريشٍ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمدٍ لم يردوه عليه، وإن بيننا عَيبةً مَكفوفةً**[1]**، وأنه لا إسلالَ ولا إغلالَ**[2]**، وأنه من أحبَّ أن يدخلَ في عقد محمدٍ وعهدِه دخل فيه، ومن أحب أن يدخلَ في عقدِ قريشٍ وعهدِهم دخل فيه**».

فتواثبت خُزاعةُ فقالوا: نحن في عقدِ محمدٍ وعهدِه، وتواثبت بنو بكرٍ، فقالوا: نحن في عقدِ قريشٍ وعهدِهم.

وأنك تَرجعُ عنا عامَك هذا، فلا تدخلُ علينا مكةَ، وأنه إذا كان عامُ قابلٍ خرجنا عنك فدَخَلتها بأصحابِك، فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاحُ الراكِبِ السيوفُ في القُربِ، لا تدخلها بغيرها.

---

(١) عَيْبَةً مَكفوفةً: استعارة، وإنما يريد أنك تكفّ عنا ونكفّ عنك.

(٢) الإِسْلَال: السرقة الخفية. والإِغْلَال: الخيانة.

فبينا رسولُ الله ﷺ يكتُبُ الكتابَ هو وسهيلُ بن عمرو، إذ جاء أبو جَندلِ بن سهيلِ بن عمرو يرسُفُ في الحديدِ، قد انفلت إلى رسولِ الله ﷺ، وقد كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ خَرجوا وهم لا يشكُّون في الفتحِ، لرؤيا رآها رسولُ الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلحِ والرجوعِ، وما تحمَّل عليه رسولُ الله ﷺ في نفسِه؛ دخلَ على الناسِ من ذلك أمرٌ عظيمٌ، حتى كادوا يَهلِكون، فلما رأى سهيلٌ أبا جندلٍ قام إليه فضربَ وجهَه، وأخذ بتَلْبيبه ثم قال: يا محمدُ، قد لجَّت القضيةُ[١] بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا.

قال: صدقتْ، فجعل يَنتُرُه بتلبيبِه، ويجُرُّه ليردَّه إلى قريشٍ، وجعل أبو جَندلٍ يصرخُ بأعلى صوتِه: يا معشرَ المسلمين، أأُرَدُّ إلى المشركين يَفتنوني في ديني؟

فزاد ذلك الناسَ إلى ما بهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا أبا جندلٍ، اصبرْ واحتسبْ، فإن اللهَ جاعلٌ لك ولمن معك من المُستضعفين فرجًا ومَخرجًا، إنا قد عَقدنا بيننا وبين القومِ صُلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأَعطَونا عهدَ الله، وإنا لا نَغدِر بهم**».

قال: فوثب عمرُ بن الخطابِ مع أبي جَندلٍ يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبرْ يا أبا جَندلٍ، فإنما هم المشركون، وإنما دمُ أحدِهم دمُ كلبٍ.

قال: ويُدني قائمَ السيفِ منه.

قال: يقول عمر: رجوتُ أن يأخذَ السيفَ فيضربَ به أباه، قال: فضنَّ الرجلُ بأبيه، ونفذت القضيةُ.

---

(١) لجَّت القضيةُ: أي: وَجَبَتْ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان رسولُ الله ﷺ مضطربًا في الحِلِّ[(١)]، وكان يُصلِّي في الحرمِ، فلما فرغَ من الصلحِ قدِم إلى هديه فنحرَه، ثم جلسَ فحلقَ رأسَه، وكان الذي حلقه -فيما بلغني- في ذلك اليوم خِراش بن أميةَ بن الفضل الخزاعيُّ، فلما رأى الناسُ أن رسولَ الله ﷺ قد نحرَ وحَلَقَ تواثَبوا ينحرون ويحلِقون.

٤- ما جرى عليه أمرُ قومٍ من المستضعفين بعد الصلحِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أتاه أبو بَصيرٍ عُتبةُ بن أسيد، وكان ممن حُبس بمكةَ، فلما قدم على رسولِ الله ﷺ كتب فيه أزهرُ بن عبدِ عوف والأخنسُ بن شَريقٍ إلى رسولِ الله ﷺ، وبعثا رجلًا من بني عامرِ بن لؤيٍّ، ومعه مولًى لهم، فقدما على رسولِ الله ﷺ بكتابِ الأزهرِ والأخنسِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا أبا بَصيرٍ، إنا قد أعطينا هؤلاءِ القومَ ما قد علمتَ، ولا يصلُح لنا في دينِنا الغدرُ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومَخرجًا، فانطَلِق إلى قومِك**».

قال: يا رسولَ الله، أتردُّني إلى المشركين يفتِنونني في ديني؟!

قال: «**يا أبا بصيرٍ، انطلقْ، فإن اللهَ تعالى سيجعلُ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**».

فانطلقَ معهما، حتى إذا كان بذي الحُليفةِ، جلسَ إلى جدارٍ، وجلسَ معه صاحباه، فقال أبو بصيرٍ: أصارمٌ سيفُك هذا يا أخا بني عامر؟

---

(١) مضطربًا في الحِلِّ: معناه أن أبنيته كانت مضروبة في الحل وكانت صلاته في الحرم؛ وهذا لقرب الحديبية من الحرم.

فقال: نعم.

قال: أنظرُ إليه؟

قال: انظرْ، إن شئتَ.

قال: فاستلَّه أبو بصيرٍ، ثم علاه به حتى قتلَه، وخرجَ المولى سريعًا حتى أتى رسولَ الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجدِ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ طالعًا قال: «**إن هذا الرجلَ قد رأى فزعًا**» فلما انتهى إلى رسولِ الله ﷺ، قال: «**ويحَك! ما لك؟**».

قال: قتل صاحبُكم صاحبي، فوالله ما برِح حتى طلعَ أبو بصيرٍ مُتوشِّحًا بالسيفِ، حتى وقف على رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، وفَتْ ذمَّتُك، وأدَّى اللهُ عنك، أسلَمتني بيد القومِ وقد امتنعتُ بديني أن أُفتن فيه، أو يُعبث بي.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**ويلُ أمِّه، مِـحَشُّ**[1] **حربٍ لو كان معه رجالٌ!**».

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العِيصَ، من ناحية ذي المَروةِ، على ساحلِ البحر، بطريق قُريشٍ التي كانوا يأخذون عليها إلى الشأم، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتُبسوا بمكَّةَ قولُ رسول الله ﷺ لأبي بصير: «**ويلُ أمِّه، مِحَشُّ حربٍ لو كان معه رجالٌ!**»، فخرجوا إلى أبي بَصيرٍ بالعِيصِ، فاجتمع إليه منهم قريبٌ من سبعين رجلًا، وكانوا قد ضيَّقوا على قريشٍ، لا يَظفرون بأحدٍ منهم إلا قَتلوه، ولا تمرُّ بهم عيرٌ إلا اقتَطعوها، حتى كتبت قريشٌ إلى رسولِ الله ﷺ تَسألُ بأرحامِها إلا آواهم، فلا حاجةَ لهم بهم؛ فآواهم رسولُ الله ﷺ، فقدِموا عليه المدينةَ.

---

(١) مِـحَشُّ حربٍ: أي موقد حرب ومهيجها.

٥- أمرُ المُهاجرات بعد الهُدنةِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني الزهريُّ، عن عُروةَ بن الزبيرِ قال: دخلت عليه وهو يكتب كتابًا إلى ابن أبي هُنيدةَ، صاحبِ الوليدِ بن عبد الملك، وكتب إليه يسألُه عن قولِ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]، فكتب إليه عُروةُ بن الزبير: إن رسولَ الله ﷺ كان صالحَ قريشًا يومَ الحديبيةِ على أن يردَّ عليهم من جاء بغيرِ إذنِ وليِّه، فلما هاجرَ النساءُ إلى رسولِ الله ﷺ وإلى الإسلامِ، أبى اللهُ أن يُرْدَدْنَ إلى المشركين إذا هن امتُحِنَّ بمحنة الإسلامِ، فعرفوا أنهن إنما جئن رغبةً في الإسلام، وأمر بردِّ صدُقاتِهنَّ إليهم إن احتبَسن عنهم، إن هم ردُّوا على المسلمين صداقَ من حُبسوا عنهم من نسائهم ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

فأمسك رسولُ الله ﷺ النساءَ وردَّ الرجالَ، وسأل الذي أمره اللهُ به أن يسألَ من صَدُقات نساءِ من حُبسوا منهن، وأن يردوا عليهم مثلَ الذي يَردُّون عليهم -إن هم فعلوا- ولولا الذي حَكم اللهُ به من هذا الحكمِ لرَدَّ رسولُ الله ﷺ النساءَ كما ردَّ الرجالَ، ولولا الهدنةُ والعهدُ الذي كان بينه وبين قريشٍ يومَ الحديبية لأمسكَ النساءَ، ولم يَردُدْ لهن صداقًا، وكذلك كان يصنعُ بمن جاءَه من المسلمات قبل العهدِ.

٦- بُشرى فتحِ مكّةَ وتعجُّلِ بعضِ المسلمين

قال ابنُ هشامٍ: حدثنا أبو عُبيدةَ أن بعضَ من كان مع رسولِ الله ﷺ قال له لما قدِم المدينةَ: ألم تقل يا رسولَ الله إنك تدخلُ مكَّةَ آمنا؟

قال: «بلى، أفَقلتُ لكم من عامي هذا؟».

قالوا: لا.

قال: «فهو كما قال لي جبريلُ عليه السلامُ».

٧- ذِكرُ المَسيرِ إلى خيبرَ في المُحرَّم سنةَ سبع

قال محمدُ بن إسحاقَ: ثم أقام رسولُ الله ﷺ بالمدينةِ حين رجعَ من الحديبيةِ، ذا الحجةِ وبعضَ المحرم، ووَلِي تلك الحجةَ المشركون، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبرَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني من لا أتهمُ عن أنسِ بن مالكٍ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يُغِر عليهم حتى يصبحَ، فإن سمع أذانًا أمسك، وإن لم يسمع أذانًا أغار، فنزلنا خيبرَ ليلًا، فبات رسولُ الله ﷺ، حتى إذا أصبح لم يسمع أذانًا، فرَكِبَ وركبنا معه، فركبت خلفَ أبي طلحةَ، وإن قدمي لَتمسُّ قدمَ رسولِ الله ﷺ، واستقبلْنا عمَّالَ خيبرَ غادين، قد خرجوا بمَساحِيهم ومَكاتِلهم[١].

فلما رأوا رسولَ الله ﷺ والجيشَ، قالوا: محمدٌ والخميسُ[٢] معه! فأدبروا هُرَّابًا، فقال رسولُ الله ﷺ: «**اللهُ أكبر، خَرِبت خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساءَ صباحُ المُنذَرين**».

---

(١) المَسَاحِي: جمع مِسْحاة وهي كالمجرفة ولكنها من حديد. والمَكَاتِل جمع مِكْتَل وهو: القفة الكبيرة.

(٢) الخَمِيس: الجيش؛ لأنهم خَمْسُ فِرَقٍ: المقدمة، والقلب، والميمَنة، والميسَرة، والساق.

فبلغني أن غَطفانَ لما سمعت بمنزلِ رسولِ الله ﷺ من خَيبرَ جمعوا له، ثم خرجوا ليُظاهِروا يهودَ عليه، حتى إذا ساروا مَنْقَلَةً(١) سمعوا خَلفَهم في أموالهم وأهليهم حِسًّا، ظنوا أن القومَ قد خالفوا إليهم، فرَجعوا على أعقابِهم، فأقاموا في أهليهم وأموالِهم، وخلَّوا بين رسولِ الله ﷺ وبين خيبرَ.

وتَدنَّى(٢) رسولُ الله ﷺ الأموالَ يأخذُها مالًا مالًا، ويفتتحها حِصنًا حِصنًا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما افتتح رسولُ الله ﷺ من حِصونهم ما افتتح، وحاز من الأموالِ ما حازَ، انتهوا إلى حِصنَيهم: الوطيحِ والسُّلالمِ، وكان آخرَ حصونِ أهل خيبرَ افتتاحًا، فحاصَرهم رسولُ الله ﷺ بضعَ عشْرةَ ليلةً.

وحاصر رسولُ الله ﷺ أهلَ خيبرَ في حصنيهم: الوطيحِ والسُّلالمِ، حتى إذا أيقنوا بالهَلَكَةِ، سألوه أن يُسيِّرهم وأن يحقِنَ لهم دماءَهم؛ ففعل.

وكان رسولُ الله ﷺ قد حاز الأموالَ كُلَّها: الشَّقَّ ونطاةَ والكتيبةَ وجميع حُصونِهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين.

فلما سمع بهم أهلُ فَدَك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسولِ الله ﷺ يسألونه أن يُسيِّرهم، وأن يحقنَ دماءَهم، ويخلوا له الأموالَ؛ ففعلَ.

فكانت خيبرُ فيئًا بين المسلمين، وكانت فَدَكُ خالصةً لرسولِ الله ﷺ؛ لأنهم لم يُجلبوا عليها بخيلٍ ولا رِكابٍ.

---

(١) مَنْقَلَة: مرحلة من مراحل السفر.

(٢) تَدَنَّى: أي دنا منها شيئا بعد شيء.

٨- أمرُ الشاةِ المَسمومةِ

فلما اطمأنَّ رسولُ الله ﷺ أهدت له زينبُ بنتُ الحارث -امرأةُ سلَّام بن مِشكمٍ- شاةً مَصْلِيَّةً(١)، وقد سألت: أيَّ عضو من الشاة أحبُّ إلى رسولِ الله ﷺ؟

فقيل لها: الذراعُ؛ فأكثرت فيها من السُّمِّ، ثم سمت سائرَ الشاةِ، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسولِ الله ﷺ تناولَ الذراعَ، فلاك منها مُضغةً، فلم يُسِغها، ومعه بِشرُ بن البراءِ بن مَعرور قد أخذ منها كما أخذ رسولُ الله ﷺ، فأما بِشرٌ فأساغَها، وأما رسولُ الله ﷺ فلفَظها ثم قال: «**إن هذا العظمَ ليُخبرني أنه مَسمومٌ**»، ثم دعا بها، فاعترفت.

فقال: «**ما حمَلك على ذلك؟**» قالت: بَلغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك، فقلت: إن كان مَلِكًا استرحتُ منه، وإن كان نبيًّا فسيُخبر.

قال: فتجاوز عنها رسولُ الله ﷺ، ومات بِشرٌ من أكلته التي أكلَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني مروانُ بن عثمانَ قال: كان رسولُ الله ﷺ قد قال في مرضِه الذي توفي فيه، ودخلت أمُّ بشرٍ بنت البراء بن معرور تعودُه: «**يا أمَّ بشر، إن هذا الأوان وجدتُ فيه انقطاعَ أَبهَري**(٢) **من الأكلَة التي أكلت مع أخيك بِخيبرَ**».

---

(١) مَصْلِيَّة: مشوية.

(٢) الأَبْهَر: عرق إذا انقطع مات صاحبه.

قال: فإن كان المسلمون ليَرون أن رسولَ الله ﷺ مات شهيدًا، مع ما أكرمه اللهُ به من النبوةِ.

٩- ذِكرُ قدوم جعفرَ بن أبي طالب من الحبشةِ وحديث المهاجرين إلى الحبشةِ

قال ابن هشامٍ: عن الشعبيِّ: أن جعفرَ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قدم على رسولِ الله ﷺ يومَ فتح خيبرَ، فقبَّل رسولُ الله ﷺ بين عينيه، والتزمَه وقال: «**ما أدري بأيِّهما أنا أُسَرُّ: بفتح خيبرَ، أم بقدوم جعفرَ؟**».

١٠- عُمرةُ القضاء في ذي القعدة سنةَ سبع

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ من خيبرَ، أقام بها شهري ربيعٍ وجُمادين ورجبًا وشعبان ورمضانَ وشوالًا، يبعث فيما بين ذلك من غَزوه وسراياه ﷺ، ثم خرج في ذي القعدةِ في الشهر الذي صدَّه فيه المشركون مُعتمرًا عمرةَ القضاء، مكان عمرتِه التي صدوه عنها.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وخرجَ معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه في عمرتِه تلك، وهي سنةَ سبع، فلما سمعَ به أهلُ مكَّةَ خرجوا عنه، وتحدَّثت قريشٌ بينها أن محمدًا وأصحابَه في عُسرة وجهد وشدةٍ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباس قال: صفُّوا له عند دار الندوة ليَنظروا إليه وإلى أصحابِه، فلما دخلَ رسولُ الله ﷺ المسجدَ اضطبعَ بردائِه، وأخرج عَضُدَه اليمنى ثم قال: «**رحم الله امرأً أراهم اليومَ من نفسِه قوةً**»، ثم استلم الركنَ، وخرج يُهرول ويهرول أصحابُه معه، حتى إذا واراه البيتُ منهم، واستلمَ الركنَ اليمانيَّ، مشى حتى يستلم الركن الأسودَ، ثم هرولَ كذلك ثلاثةَ أطوافٍ، ومشى سائرَها.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ تزوَّج ميمونةَ بنتَ الحارثِ في سفره ذلك وهو حرامٌ، وكان الذي زوَّجه إياها العباسُ بن عبد المطلب.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فأقام رسولُ الله ﷺ بمكَّةَ ثلاثا، فأتاه حُويطبُ بن عبد العُزَّى في نفرٍ من قريشٍ في اليوم الثالثِ، وكانت قريشٌ قد وكَّلته بإخراج رسولِ الله ﷺ من مكَّةَ، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلُك، فاخرُج عنا، فقال النبيُّ ﷺ: «**وما عَليكم لو تَركتُموني فأعرستُ بين أظهُركم، وصَنَعنا لكم طعامًا فحَضرتموه**».

قالوا: لا حاجةَ لنا في طعامِك، فاخرُج عنا.

فخرج رسولُ الله ﷺ، وخلَّف أبا رافعٍ مولاه على ميمونةَ، حتى أتاه بها بِسَرِفٍ، فبنى بها رسولُ الله ﷺ هنالك، ثم انصرفَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ في ذي الحجةِ.

١١- ذِكرُ غزوةِ مُؤتةَ في جُمادى الأولى سنةَ ثمان

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عُروةَ بن الزبيرِ قال: بعث رسولُ الله ﷺ بعثَهُ إلى مُؤتةَ في جُمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيدَ بن حارثةَ وقال: إن أصيبَ زيدٌ فجعفرُ بن أبي طالب على الناسِ، فإن أصيبَ جعفرٌ فعبد الله بن رواحةَ على الناس.

فتجهزَ الناسُ ثم تهيئوا للخروجِ، وهم ثلاثةُ آلاف، فلما حضر خروجُهم ودع الناسُ أمراءَ رسولِ الله ﷺ وسلموا عليهم.

ثم مضوا حتى نزلوا معانَ من أرضِ الشأم، فبلغ الناسَ أن هِرقلَ قد نزل مآبَ من أرض البَلقاء، في مئةِ ألفٍ من الروم، وانضم إليهم من لخْمٍ وجُذامَ والقينِ وبَهْراءَ وبَلِيٍّ مئةُ ألفٍ منهم عليهم رجلٌ من بَلِيٍّ ثم أحدُ إراشةَ، يُقال له: مالكُ بن زافلةَ.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مَعان ليلتينِ يفكرون في أمرِهم وقالوا: نكتبُ إلى رسولِ الله ﷺ، فنُخبرُه بعدد عدوِّنا، فإما أن يَمدَّنا بالرجال، وإما أن يأمُرَنا بأمره؛ فنمضي له.

قال: فشجَّع الناسَ عبدُ الله بن رواحةَ، وقال: يا قومِ، والله إن التي تَكرهون للتي خرجتُم تَطلبون: الشهادةَ، وما نُقاتل الناسَ بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نُقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرَمنا اللهُ به، فانطَلِقوا فإنما هي إحدى الحُسنَيين: إما ظهورٌ وإما شهادةٌ.

قال: فقال الناسُ: قد والله صدقَ ابنُ رواحةَ. فمضى الناس.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فمضى الناسُ، حتى إذا كانوا بتُخومِ البَلقاء لقيَتهم جموعُ هرقلَ، من الرومِ والعرب، بقريةٍ من قرى البَلقاء يُقال لها: مَشارفُ، ثم دنا العدوُّ، وانحازَ المسلمون إلى قريةٍ يُقال لها: مُؤتةُ، فالتقى الناسُ عندها، فتعبَّأ لهم المسلمون، فجَعلوا على مَيمَنتهم رجلًا من بني عُذرةَ يُقال له: قُطبةُ بن قتادةَ، وعلى ميسرتهم رجلًا من الأنصارِ يُقال له: عُبايةُ بن مالك.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم التقى الناسُ واقتتلوا، فقاتلَ زيدُ بن حارثةَ برايةِ رسولِ الله ﷺ حتى شاطَ في رماحِ القومِ.

ثم أخذها جعفرٌ فقاتلَ بها، حتى إذا أَلْحَمَهُ القتالُ[(١)] اقتحمَ عن فرسٍ له شقراءَ فعَقرها، ثم قاتلَ القومَ حتى قُتل، فكان جعفر أوَّلَ رجل من المسلمين عَقرَ في الإسلام.

ثم أخذ الرايةَ ثابتُ بن أقرمَ أخو بني العجلان، فقال: يا معشرَ المسلمين اصطلِحوا على رجلٍ منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعلٍ، فاصطلح الناسُ على خالدِ بن الوليد، فلما أخذ الرايةَ دافعَ القومَ، وحاشى بهم، ثم انحازَ وانحِيز عنه، حتى انصرفَ بالناسِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما أصيبَ القومُ قال رسولُ الله ﷺ -فيما بلغني-: «**أخذ الرايةَ زيدُ بن حارثةَ فقاتل بها حتى قُتلَ شهيدًا، ثم أخذها جعفرٌ فقاتل بها حتى قُتل شهيدًا**».

قال: ثم صمت رسولُ الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصارِ، وظنوا أنه قد كان في عبدِ الله بن رواحةَ بعض ما يَكرهون.

ثم قال: «**ثم أخذها عبدُ الله بن رواحةَ فقاتل بها حتى قُتل شهيدًا**».

ثم قال: «**لقد رُفعوا إليَّ في الجنةِ -فيما يرى النائم- على سُررٍ من ذهبٍ، فرأيت في سريرِ عبدِ الله بن رواحة ازورارًا عن سريرَيْ صاحبَيه، فقلت: عمَّ هذا؟ فقِيل لي: مضيَا وتردد عبدُ الله بعضَ الترددِ، ثم مضى**».

فلما انصرفَ خالدٌ بالناس أقبل بهم قافلًا.

---

(١) أَلْحَمَهُ القتالُ: احتوشه وأرهقه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عُروةَ بن الزبير قال: لما دنوا من حول المدينةِ تلقَّاهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون.

قال: ولقيهم الصبيانُ يَشتدُّون، ورسولُ الله ﷺ مُقبلٌ مع القومِ على دابةٍ فقال: «**خذوا الصبيانَ فاحملوهم، وأعطوني ابنَ جعفرٍ**».

فأُتيَ بعبد الله فأخذه فحملَه بين يديه.

قال: وجعل الناسُ يَحثون على الجيش الترابَ، ويقولون: يا فرارَ، فررتم في سبيلِ الله!

قال: فيقول رسولُ الله ﷺ: «**ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّارُ إن شاء اللهُ تعالى**».

١٢- فتحُ مكةَ في شهر رمضانَ سنة ثمان

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم أقام رسولُ الله ﷺ بعد بعثِه إلى مؤتةَ جُمادى الآخرة ورجبًا.

ثم إن بني بكرِ بن عبد مَناة عَدَت على خُزاعةَ، وهم على ماءٍ لهم بأسفلِ مكةَ يُقال له: الوتير، وكان الذي هاجَ ما بين بني بكرٍ وخُزاعةَ أن رجلًا من بني الحضرميِّ واسمه مالك بن عبَّاد -وحِلفُ الحضرميِّ يومئذ إلى الأسود بن رَزْن- خرج تاجرًا، فلما توسط أرضَ خُزاعةَ، عدوا عليه فقَتلوه، وأخذوا مالَه، فعَدتْ بنو بكر على رجلٍ من خزاعةَ فقَتلوه، فعَدت خزاعةُ قبيل الإسلام على بَني الأسود بن رزن الدِّيليِّ، وهم مَنخرُ بني كنانةَ وأشرافُهم: سلمى وكُلثومٌ وذؤيبٌ فقتلوهم بعرفةَ عند أنصابِ الحرمِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فبينا بنو بكرٍ وخزاعةُ على ذلك حجز بينهم الإسلامُ، وتشاغلَ الناسُ به، فلما كان صلح الحديبيةِ بين رسول الله ﷺ وبين قريشٍ، كان فيما شَرطوا لرسولِ الله ﷺ وشرطَ لهم: أنه من أحبَّ أن يدخلَ في عقدِ رسولِ الله ﷺ وعهدِه فليدخُلْ فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقدِ قريشٍ وعهدِهم فليدخل فيه؛ فدخلت بنو بكرٍ في عقدِ قريشٍ وعهدِهم، ودخلت خزاعةُ في عقد رسولِ الله ﷺ وعهدِه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما كانت الهدنةُ اغتَنَمها بنو الديلِ من بني بكر من خزاعةَ، وأرادوا أن يُصيبوا منهم ثأرًا بأولئك النفرِ الذين أصابوا منهم ببني الأسودِ بن رَزْنٍ، فخرج نوفلُ بن معاوية الديلي في بني الديلِ، وهو يومئذ قائدُهم، وليس كلُّ بني بكرٍ تابعَه حتى بَيَّت خزاعةَ وهم على الوتير -ماءٍ لهم- فأصابوا منهم رجلًا، وتَحاوزوا واقتتلوا، ورَفدت بني بكرٍ قريشٌ بالسلاحِ، وقاتل معهم من قريشٍ من قاتل بالليل مُستخفيًا، حتى حازوا خزاعةَ إلى الحرمِ.

فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكرٍ: يا نوفلُ، إنا قد دخلنا الحرمَ، إلهَك إلهَك، فقال كلمةً عظيمةً: لا إله له اليومَ، يا بني بكرٍ أصيبوا ثأرَكم، فلَعمري إنكم لتَسرقون في الحرمِ، أفلا تُصيبون ثأرَكم فيه، وقد أصابوا منهم ليلةَ بَيَّتوهم بالوتير رجلًا يُقال له: مُنبِّه

فلما دخلت خزاعةُ مكةَ، لجئوا إلى دار بُديلِ بن ورقاءَ، ودار مولًى لهم يُقال له: رافعٌ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما تظاهرت بنو بكرٍ وقريشٌ على خزاعةَ، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونَقضوا ما كان بينهم وبين رسولِ الله ﷺ من العهدِ والميثاقِ بما استحلوا من خُزاعةَ، وكان في عقدِه وعهدِه، خرج عمرُو بن سالم الخزاعيُّ، ثم أحَدُ بني كعبٍ، حتى قدِم على رسولِ الله ﷺ المدينةَ، وكان ذلك مما هاج فتحَ مكَّةَ، فوقف عليه وهو جالسٌ في المسجدِ بين ظهراني الناسِ، فقال:

يـــا ربِّ إني ناشـــدٌ محمـــدًا
حِلــفَ أبينــا وأبيــه الأتلــدا
قــد كنــتم ولــدًا وكنــا والــدًا
ثُمَّــتَ أســلمنا فلــم ننــزِع يــدا
فانصــر هــداك اللهُ نصــرًا أعتــدا
وادعُ عبـــادَ الله يـــأتوا مـــددا

قالَ ابنُ إسحاقَ: فقال رسولُ الله ﷺ: «**نُصرتَ يا عمرَو بنَ سالمٍ**».

ثم خرج بُديل بن ورقاءَ في نفرٍ من خزاعةَ حتى قدموا على رسولِ الله ﷺ المدينةَ، فأخبروه بما أصيبَ منهم، وبمُظاهرةِ قريشٍ بني بكرٍ عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكةَ، وقد قال رسولُ الله ﷺ للناسِ: «**كأنكم بأبي سفيانَ قد جاءَكم ليشدَّ العقدَ، ويَزيدَ في المدةِ**».

ثم خَرجَ أبو سفيان حتى قدمَ على رسولِ الله ﷺ المدينةَ، فكلمه، فلم يرُدَّ عليه شيئًا.

ثم ذهب إلى أبي بكرٍ، فكلَّمه أن يكلم له رسولَ الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعلٍ.

ثم أتى عمرَ بن الخطاب فكلَّمه، فقال: أأنا أشفعُ لكم إلى رسولِ الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتُكم به.

ثم خرج فدخل على عليِّ بن أبي طالب رضوانُ الله عليه، وعنده فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ ورضي عنها، وعندها حسنُ بن عليٍّ -غلامٌ يدبُ بين يديها- فقال: يا عليُّ، إنك أمسُّ القومِ بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجةٍ، فلا أرجعن كما جئتُ خائبًا، فاشفع لي إلى رسولِ الله، فقال: ويحَك يا أبا سفيانَ! والله لقد عزمَ رسولُ الله ﷺ على أمرٍ ما نَستطيع أن نكلِّمَه فيه.

فالتفت إلى فاطمةَ فقال: يا ابنةَ محمدٍ، هل لك أن تأمُري بُنيَّك هذا فيُجيرَ بين الناس، فيكون سيِّدَ العربِ إلى آخر الدهرِ؟

قالت: والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجيرَ بين الناسِ، وما يجير أحدٌ على رسولِ الله ﷺ.

قال: يا أبا الحسنِ، إني أرى الأمورَ قد اشتدت عليَّ؛ فانصحني.

قال: والله ما أعلمُ لك شيئًا يُغني عنك شيئًا، ولكنك سيِّدُ بني كنانةَ، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضِك.

قال: أو ترى ذلك مُغنيًا عني شيئًا؟

قال: لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجدُ لك غيرَ ذلك.

فقام أبو سفيانَ في المسجد، فقال: أيها الناسُ، إني قد أجَرتُ بين الناسِ، ثم

ركب بعيرَه فانطلق.

وأمر رسولُ الله ﷺ بالجِهازِ، وأمر أهلَه أن يُجهِّزوه، ثم إن رسولَ الله ﷺ أعلم الناسَ أنه سائرٌ إلى مكةَ، وأمرهم بالجدِّ والتهيُّؤ، وقال: «**اللهمَّ خذ العيونَ والأخبارَ عن قريش حتى نبغتَها في بلادها**»، فتجهَّز الناسُ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عبد الله بن عباسٍ قال: ثم مضى رسولُ الله ﷺ لسفَره، واستخلفَ على المدينةِ أبا رُهمٍ كُلثومَ بن حُصينٍ الغِفاريَّ، وخرج لعشرٍ مضين من رمضانَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم مضى حتى نزل مَرَّ الظهرانِ في عشرة آلافٍ من المسلمين، فلما نزلَ رسولُ الله ﷺ مَرَّ الظهران، وقد عُمِّيت الأخبارُ عن قريشٍ، فلم يأتهم خبرٌ عن رسولِ الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعلٌ، وخرجَ في تلك الليالي أبو سفيانَ بن حرب وحكيمُ بن حِزام وبُديل بن ورقاءَ يتحسسون الأخبارَ، وينظرون هل يَجدون خبرًا أو يَسمعون به، وقد كان العباسُ بن عبد المطلبِ لقي رسولَ الله ﷺ ببعضِ الطريقِ.

فلما نزل رسولُ الله ﷺ مَرَّ الظهرانِ، قال العباسُ بن عبد المطلبِ: فقلت: واصباحَ قريشٍ، والله لئن دخل رسولُ الله ﷺ مكَّةَ عُنوةً قبل أن يأتوه فيَستأمنوه، إنه لهلاكُ قريشٍ إلى آخرِ الدهرِ.

قال: فجلستُ على بغلةِ رسولِ الله ﷺ البيضاءِ، فخرجت عليها.

قال: حتى جئتُ الأراكَ، فقلت: لَعَلِّي أجد بعضَ الحطَّابةِ أو صاحبَ لبن أو ذا حاجةٍ يأتي مكَّةَ، فيخبرَهم بمكان رسولِ الله ﷺ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبلَ أن يَدخلها عليهم عُنوةً.

قال: فوالله إني لأسير عليها، وألتمسُ ما خرجتُ له، إذ سمعت كلامَ أبي سفيان وبُديل بن ورقاءَ، وهما يتراجعان، وأبو سفيانَ يقول: ما رأيت كالليلةِ نيرانًا قط ولا عسكرًا.

قال: يقول بُديلٌ: هذه والله خُزاعةُ حَمَشتها الحربُ.

قال: يقول أبو سفيانَ: خُزاعةُ أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانُها وعسكرُها.

قال: فعرفت صوتَه، فقلت: يا أبا حنظلةَ، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل!

قال: قلت: نعم، قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي.

قال: قلت: ويحَك يا أبا سُفيانَ، هذا رسولُ الله ﷺ في الناسِ، واصباحَ قُريشٍ والله.

قال: فما الحيلةُ؟ فداك أبي وأمي.

قال: قلت: والله لئن ظفِر بك ليَضربن عُنقَك، فاركب في عَجُز هذه البغلةِ حتى آتيَ بك رسولَ الله ﷺ فأستأمِنُه لك.

قال: فركب خلفي ورجع صاحباه.

قال: فجئتُ به، كلما مررتُ بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلةَ رسولِ الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عَمُّ رسولِ الله ﷺ على بغلته.

حتى مررت بنارِ عمرَ بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: من هذا؟

وقام إليَّ، فلما رأى أبا سفيان على عَجُز الدابةِ، قال: أبو سفيان عدوُّ الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغيرِ عقدٍ ولا عهدٍ، ثم خرجَ يشتدُّ نحو رسولِ الله ﷺ، وركضت البغلةُ، فسبقته بما تسبق الدابةُ البطيئة الرجلَ البطيء.

قال: فاقتحمتُ عن البغلةِ، فدخلت على رسولِ الله ﷺ، ودخل عليه عمرُ، فقال: يا رسولَ الله، هذا أبو سفيان قد أمكن اللهُ منه بغير عقدٍ ولا عهدٍ، فدعني فلأضرب عنقَه.

قال: قلت: يا رسولَ الله، إني قد أجرتُه، ثم جلستُ إلى رسولِ الله ﷺ، فأخذتُ برأسِه، فقلت: والله لا يناجيه الليلةَ دوني رجلٌ، فلما أكثرَ عمرُ في شأنِه، قال: قلت: مهلًا يا عمرُ، فوالله أن لو كان من بني عديِّ بن كعبٍ ما قلتَ هذا، ولكنك قد عرفتَ أنه من رجالِ بني عبد مَنافٍ.

فقال: مهلا يا عباسُ، فوالله لإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ من إسلامِ الخطاب لو أسلمَ، وما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامَك كان أحبَّ إلى رسولِ الله ﷺ من إسلامِ الخطابِ لو أسلم.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**اذهبْ به يا عباسُ إلى رحلِك، فإذا أصبحت فأتني به**».

قال: فذهبتُ به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبحَ غدوتُ به إلى رسولِ الله ﷺ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ، قال: «**ويحَك يا أبا سفيانَ، ألم يأنِ لك أن تعلمَ أنه لا إله إلا اللهُ؟**»

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمَك وأكرمَك وأوصَلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيرُه لقد أغنى عني شيئًا بعد.

قال: «**ويحك يا أبا سُفيانَ! ألم يأن لك أن تعلمَ أني رسولُ الله؟**»

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمَك وأكرمَك وأوصلَك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا.

فقال له العباسُ: ويحك! أسلِم واشهد أن لا إلهَ إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله قبل أن تُضربَ عنقُك.

قال: فشهد شهادةَ الحقِّ، فأسلم.

قال العباسُ: قلت: يا رسولَ الله، إن أبا سُفيان رجلٌ يحب هذا الفخرَ، فاجعل له شيئًا.

قال: «**نعم، من دخل دارَ أبي سُفيانَ فهو آمنٌ، ومن أغلق بابه فهو آمنٌ، ومن دخل المسجدَ فهو آمنٌ**».

فلما ذهب لينصرف قال رسولُ الله ﷺ: «**يا عباسُ، احبِسه بمَضيقِ الوادي عند خَطْمِ الجبلِ**[١]**، حتى تمرَّ به جنودُ الله فيراها**».

---

(١) خَطْم الجبل: ما خرج منه ونتأ من بعض حجارته.

قال: فخرجت حتى حبستُه بمَضيقِ الوادي، حيث أمرني رسولُ الله ﷺ أن أحبسَه.

قال: ومرَّت القبائلُ على راياتها، كلما مرت قبيلةٌ قال: يا عباسُ، من هذه؟ فأقول: سُليمٌ، فيقول: ما لي ولسليم؟! ثم تمرُّ القبيلةُ فيقول: يا عباسُ، من هؤلاء؟ فأقول: مُزينةُ، فيقول: ما لي ولمزينةَ؟! حتى نفدت القبائلُ، ما تمر به قبيلةٌ إلا يسألني عنها، فإذا أخبرتُه بهم، قال: ما لي ولبني فلان؟! حتى مرَّ رسولُ الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا يُرى منهم إلا الحَدقُ من الحديدِ، فقال: سبحانَ الله! يا عباسُ، من هؤلاء؟

قال: قلت: هذا رسولُ الله ﷺ في المُهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبلٌ ولا طاقةٌ، والله يا أبا الفضلِ، لقد أصبحَ ملك ابن أخيك الغداةَ عظيمًا.

قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوةُ. قال: فنعم إذن.

قال: قلت: النَّجاءَ إلى قومِك، حتى إذا جاءهم صرخَ بأعلى صوته: يا معشرَ قريشٍ، هذا محمدٌ قد جاءَكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ.

قالوا: قاتلك الله! وما تُغني عنا دارُك.

قال: ومن أغلقَ عليه بابَه فهو آمنٌ، ومن دخلَ المسجد فهو آمن، فتفرَّق الناسُ إلى دورِهم وإلى المسجدِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني عبدُ الله بن أبي بكرٍ أن رسولَ الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طُوَى وقف على راحلته معتجِرًا[١] بشُقَّةِ بُردِ حِبَرَةٍ حمراء، وإن رسولَ الله ﷺ ليَضعُ رأسَه تواضعًا لله حين رأى ما أكرَمه اللهُ به من الفتحِ، حتى إن عُثنونَه ليكاد يَمسُّ واسطةَ الرحلِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني عبدُ الله بن أبي نَجيحٍ أن رسول الله ﷺ حين فرَّق جيشَه من ذي طُوى أمر الزبيرَ بن العوامِ أن يدخل في بعضِ الناس من كُدًى، وكان الزبيرُ على المُجنِّبةِ اليُسرى، وأمرَ سعدَ بن عُبادةَ أن يدخل في بعض الناسِ من كَداء.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فزعم بعضُ أهل العلم أن سعدًا حين وُجِّه داخلًا قال: اليومُ يومُ المَلحمة، اليومُ تُستحل الحُرمة.

فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسولَ الله، اسمع ما قال سعدُ بن عبادةَ، ما نأمن أن يكون له في قريشٍ صولةٌ.

فقال رسولُ الله ﷺ لعليِّ بن أبي طالبٍ: «**أدرِكْه، فخذ الرايةَ منه فكن أنت الذي تدخلُ بها**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقد حدثني عبدُ الله بن أبي نَجيحٍ في حديثه أن رسولَ الله ﷺ أمر خالدَ بن الوليدِ، فدخلَ من اللِّيطِ أسفلَ مكَّةَ، في بعض الناس، وكان خالدٌ على المُجنِّبةِ اليُمنى، وفيها أسلمُ وسليم وغِفار ومُزينة وجُهينةُ وقبائلُ من قبائل العرب.

---

(١) الاعْتِجَار: لف العمامة على الرأس.

وأقبل أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح بالصف من المسلمين ينصب لمكَّةَ بين يدي رسولِ الله ﷺ، ودخل رسولُ الله ﷺ من أذاخرَ، حتى نزل بأعلى مكَّةَ، وضُربت له هنالك قُبَّته.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني عبدُ الله بن أبي نَجيحٍ وعبدُ الله بن أبي بكر أن صفوانَ بن أميَّة وعكرمةَ بن أبي جهلٍ وسُهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسًا بالخَندمَةِ ليُقاتلوا، وقد كان حِماسُ بن قيسٍ يُعد سلاحًا قبل دخول رسولِ الله ﷺ، ويُصلح منه، ثم شهد الخَندمةَ مع صفوانَ وسُهيلٍ وعكرمةَ، فلما لقيَهم المسلمون من أصحابِ خالدِ بن الوليدِ، ناوشوهم شيئًا من قتالٍ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان رسولُ الله ﷺ قد عهِدَ إلى أمرائه من المسلمين - حين أمرهم أن يدخلوا مكَّةَ- أن لا يُقاتلوا إلا من قاتَلهم، إلا أنه قد عهِدَ في نفرٍ سمَّاهم أمر بقتلهم، وإن وُجدوا تحت أستارِ الكعبة.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن صفية بنت شَيبةَ أن رسولَ الله ﷺ لما نزل مكَّةَ واطمأن الناسُ، خرجَ حتى جاء البيتَ، فطافَ به سبعًا على راحِلتِه، يستلمُ الركنَ بمِحْجَنٍ[(١)] في يده، فلما قضى طوافَه، دعا عثمانَ بن طلحةَ فأخذ منه مفتاحَ الكعبةِ، ففُتحت له، فدَخَلها، فوجد فيها حَمامةً من عِيدانٍ فكَسَرَها بيده ثم طرَحَها، ثم وقف على بابِ الكعبةِ وقد استكَفَّ له الناسُ[(٢)] في المسجدِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني بعضُ أهل العلم أن رسولَ الله ﷺ قام على باب الكعبةِ فقال: «**لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، صَدق وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ**

---

(١) المِحْجَن: العصا المعوجَّة.

(٢) اسْتَكَفَّ القومُ حول الشيء: أي أحاطوا به ينظرون إليه.

الأحزابَ وحدَه، ألا كل مأثُرةٍ أو دمٍ أو مال يُدَّعى فهو تحت قَدَمَيَّ هاتين إلا سدانةَ البيت وسِقايةَ الحاج.

ألا وقتيلُ الخطأ شِبهِ العمد بالسوطِ والعصا، ففيه الديةُ مُغلَّظةٌ، مئةٌ من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشرَ قريشٍ، إن اللهَ قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهليةِ، وتعظُّمَها بالآباء، الناسُ من آدمَ، وآدمُ من ترابٍ»، ثم تلا هذه الآية: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحُجُرات:١٣]» الآية كلها.

ثم قال: «يا معشرَ قريشٍ، ما ترون أني فاعلٌ فيكم؟».

قالوا: خيرًا، أخٌ كريم، وابنُ أخ كريمٍ.

قال: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ».

ثم جلس رسولُ الله ﷺ في المسجدِ، فقام إليه عليُّ بن أبي طالبٍ ومِفتاحُ الكعبة في يده، فقال: يا رسولَ الله، اجمع لنا الحِجابةَ مع السقايةِ صلى الله عليك، فقال رسولُ الله ﷺ: «أين عثمانُ بن طلحةَ؟»، فدُعي له، فقال: «هاك مفتاحَك يا عثمانُ، اليومَ يومُ برٍّ ووفاءٍ».

قال ابنُ هشامٍ: وبلغني عن يحيَى بن سعيدٍ أن النبيَّ ﷺ حين افتتح مكَّةَ ودخلها، قام على الصفا يدعو اللهَ، وقد أحدقت به الأنصارُ، فقالوا فيما بينهم: أترون رسولَ الله ﷺ، إذ فتح اللهُ عليه أرضَه وبلده يقيم بها؟

فلما فرغ من دعائه قال: «**ماذا قلتُم؟**»، قالوا: لا شيءَ يا رسولَ الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبيُّ ﷺ: «**مَعاذَ الله! المحيا محياكُم، والمماتُ مماتُكم**».

قال ابن هشامٍ: عن ابن عباسٍ قال: دخل رسولُ الله ﷺ مكَّةَ يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها وحول البيت أصنامٌ مشدودةٌ بالرصاص، فجعل النبيُّ ﷺ يشيرُ بقضيبٍ في يده إلى الأصنامِ ويقول: «**جاء الحقُّ وزَهقَ الباطلُ إن الباطلَ كان زهوقًا**»، فما أشار إلى صنمٍ منها في وجهه إلا وقعَ لقفاهُ، ولا أشار إلى قَفاهُ إلا وقع لوجهِه، حتى ما بقيَ منها صنمٌ إلا وقعَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان جميعُ من شهد فتحَ مكَّةَ من المسلمين عشرةُ آلاف.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وكان فتحُ مكةَ لعشرِ ليالٍ بقين من شهرِ رمضانَ سنة ثمان.

١٣- غزوةُ حُنينٍ في سنة ثمان بعد الفتحِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما سمِعَت هوازنُ برسولِ الله ﷺ وما فتحَ الله عليه من مكَّةَ، جمعها مالكُ بن عوفٍ النصريُّ، فاجتمعَ إليه مع هوازنَ ثقيفٌ كلُّها، واجتمعت نصر وجُشم كلها، وسعدُ بن بكر، وناسٌ من بني هلالٍ -وهم قليلٌ- ولم يَشهدها من قيسِ عيلانَ إلا هؤلاء.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما سمع بهم نبيُّ الله ﷺ بعثَ إليهم عبدَ الله بن أبي حَدْردَ الأسلميَّ، وأمره أن يدخلَ في الناسِ، فيقيمَ فيهم حتى يعلمَ علمَهم، ثم يأتيه بخبرهم.

فانطلق ابنُ أبي حدردَ، فدخلَ فيهم، فأقام فيهم، حتى سمعَ وعلِم ما قد أجمعوا له من حربِ رسولِ الله ﷺ، وسمعَ من مالكٍ وأمر هوازنَ ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسولَ الله ﷺ، فأخبره الخبرَ.

قال: ثم خرج رسولُ الله ﷺ معه ألفانِ من أهل مكَّةَ مع عشْرةِ آلافٍ من أصحابه الذين خرجوا معه ففتحَ اللهُ بهم مكَّةَ، فكانوا اثني عشَر ألفًا، واستعملَ رسولُ الله ﷺ عتَّابَ بن أسيدٍ على مكَّةَ أميرًا على من تخلف عنه من الناس، ثم مضى رسولُ الله ﷺ على وجهه يُريد لقاءَ هوازنَ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أبي واقدٍ الليثيِّ، أن الحارثَ بنَ مالك قال: خرجنا مع رسولِ الله ﷺ إلى حُنينٍ ونحن حديثو عهدٍ بالجاهلية، قال: فسِرنا معه إلى حُنين، قال: وكانت لكفارِ قريشٍ ومن سواهم من العربِ شجرةٌ عظيمة خضراءُ، يُقال لها: ذاتُ أنواطٍ، يأتونها كل سنةٍ، فيُعلقون أسلحتَهم عليها، ويذبحونَ عندها، ويعكُفون عليها يومًا.

قال: فرأينا ونحن نسيرُ مع رسولِ الله ﷺ سِدرةً خَضراءَ عظيمةً، قال: فتَنادينا من جنباتِ الطريق: يا رسولَ الله، اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواط.

قال رسولُ الله ﷺ: **«اللهُ أكبرُ، قلتم والذي نفسُ محمد بيده كما قال قومُ موسى لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، **إنها السَّننُ، لتركُبنَّ سَننَ من كان قبلَكم»**.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن جابرِ بن عبدِ الله قال: لما استقبلنا وادي حُنين انحدَرنا في وادٍ من أودية تِهامةَ، وفي عَماية الصبحِ، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكمَّنوا لنا في شِعابه وأحنائه ومَضايِقه، وقد أجمعوا وتهيَّئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن مُنحطُّون إلا الكتائبُ قد شدوا علينا شدةَ رجلٍ واحد، وانشَمَرَ الناسُ[١] راجعين، لا يلوي أحدٌ على أحدٍ.

وانحاز رسولُ الله ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: «**أين أيها الناسُ؟ هَلمُّوا إليَّ، أنا رسولُ الله، أنا محمدُ بن عبد الله**».

قال: فلا شيءَ، حملت الإبلُ بعضُها على بعضٍ، فانطلق الناسُ، إلا أنه قد بقي مع رسولِ الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصارِ وأهلِ بيته.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما انهزمَ الناسُ، ورأى من كان مع رسولِ الله ﷺ من جُفاةِ أهل مكَّةَ الهزيمةَ، تكلم رجالٌ منهم بما في أنفسِهم من الضِّغْنِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقال شيبةُ بن عثمان بن أبي طلحةَ أخو بني عبد الدارِ: قلت: اليومَ أُدركُ ثأري من محمدٍ، وكان أبوه قُتلَ يوم أحُدٍ، اليومَ أقتل محمدًا.

قال: فأَدرتُ برسول الله لأقتلَه، فأقبل شيء حتى تغشَّى فؤادي، فلم أطِقْ ذاك، وعلمت أنه ممنوعٌ مني.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدثني بعضُ أهل مكَّةَ، أن رسولَ الله ﷺ قال حين فصلَ من مكَّةَ إلى حُنينٍ، ورأى كثرةً من معه من جنودِ الله: «**لن نُغلبَ اليومَ من قِلة**»، قالَ ابنُ إسحاقَ: وزعم بعضُ الناس أن رجلًا من بني بكرٍ قالها.

---

(١) انشَمَرَ الناسُ: أسرعوا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن العباسِ بنِ عبد المطلب قال: إني لمع رسولِ الله ﷺ آخذٌ بحَكَمةِ بغلتِه البيضاء قد شجرتُها بها[١]، قال: وكنت امرأ جَسيمًا شديدَ الصوتِ.

قال: ورسولُ الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: «**أين أيها الناسُ؟**».

فلم أر الناسَ يلوون على شيء.

فقال: «**يا عباسُ، اصرخ، يا معشرَ الأنصار: يا معشرَ أصحاب السمرة**».

قال: فأجابوا: لبيكَ، لبيكَ!

قال: فيذهب الرجلُ ليُثني بعيرَه، فلا يقدرُ على ذلك، فيأخذُ درعَه، فيقذفها في عنقِه، ويأخذُ سيفَه وتُرسه، ويقتحمُ عن بعيره، ويخلي سبيلَه، فيؤمَّ الصوتَ، حتى ينتهي إلى رسولِ الله ﷺ، حتى إذا اجتمعَ إليه منهم مئةٌ، استقبلوا الناسَ، فاقتتلوا، وكانت الدعوى أوَّلَ ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت أخيرًا: يا للخزرج، وكانوا صُبُرًا عند الحرب، فأشرفَ رسولُ الله ﷺ في ركائِبه فنظر إلى مُجتلد القومِ وهم يجتلدون، فقال: «**الآن حمِيَ الوطيسُ**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن جبيرِ بن مُطعم قال: لقد رأيت قبل هزيمةِ القوم والناسُ يقتتلون مثل البِجادِ[٢] الأسود، أقبل من السماءِ حتى سقط بيننا وبين القومِ، فنظرت، فإذا نملٌ أسود مبثوثٌ قد ملأ الوادي، لم أشكَّ أنها الملائكةُ، ثم لم يكن إلا هزيمةُ القومِ.

---

(١) آخذٌ بحَكَمةِ بغلتِه البيضاء قد شجرتُها بها: أي ضَربْتُها بلجامها أَكُفُّها حتى فتحتْ فاها.

(٢) البِجَاد: كساء مخطط من أكسية الأعراب.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما انهزمَ المشركون، أتوا الطائفَ ومعهم مالكُ بن عوفٍ، وعسكرَ بعضُهم بأوطاسٍ، وتوجه بعضُهم نحو نخلةَ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلةَ إلا بنو غِيرةَ من ثقيفٍ، وتبعتْ خيلُ رسولِ الله ﷺ من سلك في نخلةَ من الناسِ، ولم تتبع من سلك الثنايا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وبعث رسولُ الله ﷺ في آثارِ من توجَّه قِبَل أوطاسٍ أبا عامر الأشعريَّ، فأدرك من الناسِ بعضَ من انهزمَ، فناوشوه القتالَ، فرُمي أبو عامر بسهمٍ فقُتل، فأخذ الرايةَ أبو موسى الأشعريُّ، وهو ابن عمِّه، فقاتلهم، ففتح اللهُ على يديه وهزَمَهم.

وخرج مالكُ بن عوف عند الهزيمةِ، فوقف في فوارسَ من قومه، على ثنيَّة من الطريق، وقال لأصحابِه: قِفوا حتى تمضي ضعفاؤكم، وتلحق أُخراكم.

فوقف هناك حتى مضى مَن كان لحقَ بهم من مُنهزمةِ الناسِ، فلما انتهى الزبيرُ إلى أصل الثنيةِ أبصرَ القومَ، فصمد لهم، فلم يزل يُطاعِنُهم حتى أزاحهم عنها.

ثم جُمعتْ إلى رسولِ الله ﷺ سبايا حُنينٍ وأموالها، وكان على المغانم مَسعودُ بن عمرو الغفاريُّ، وأمر رسولُ الله ﷺ بالسبايا والأموالِ إلى الجِعرانةِ، فحُبست بها.

١٤- ذكر غزوةِ الطائف بعد حُنينٍ في سنةِ ثمان

ولما قدِم فَلُّ ثقيفٍ الطائفَ أغلقوا عليهم أبواب مدينتها، وصنعوا الصنائعَ للقتالِ.

ثم سار رسولُ الله ﷺ إلى الطائفِ حين فرغ من حُنينٍ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فسلك رسولُ الله ﷺ على نخلةَ اليمانيةِ، ثم على قرنٍ، ثم على المليح، ثم على بُحرةِ الرُّغاءِ من لِيَّةَ، فابتنى بها مسجدًا فصلى فيه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فحدثني عمرُو بن شعيبٍ أنه أقاد يومئذٍ ببُحرةَ الرغاء -حين نزلها- بدَمٍ -وهو أول دم أُقيدَ به في الإسلام- رجلٌ من بني ليثٍ قتل رجلًا من هُذيل، فقتله به.

وأمر رسولُ الله ﷺ -وهو بلِيَّةَ- بحصنِ مالكِ بن عوف فهُدِمَ، ثم سلك في طريقٍ يُقال لها: الضَّيْقَةُ، فلما توجه فيها رسولُ الله ﷺ سأل عن اسمها، فقال: «**ما اسمُ هذه الطريقِ؟**» فقِيل له: الضيقة.

فقال: «**بل هي اليُسرى**».

ثم خرج منها على نخْبٍ، حتى نزل تحت سدرةٍ يُقال لها: الصادرةُ، قريبًا من مال رجلٍ من ثقيفٍ، فأرسلَ إليه رسولُ الله ﷺ: «**إما أن تخرجَ، وإما أن نُخربَ عليك حائِطك**».

فأبى أن يَخرج، فأمر رسولُ الله ﷺ بإخرابه، ثم مضى رسولُ الله ﷺ حتى نزل قريبًا من الطائفِ، فضرب به عسكره، فقُتل به ناسٌ من أصحابِه بالنبلِ، وذلك أن العسكرَ اقتربَ من حائطِ الطائفِ، فكانت النبلُ تنالهم، ولم يقدرِ المسلمون على أن يَدخلوا حائِطهم؛ أغلقوه دونَهم، فلما أصيب أولئك النفرُ من أصحابِه بالنبلِ وضع عسكرَه عند مسجده الذي بالطائفِ اليومَ، فحاصَرهم بضعًا وعشرين ليلةً، وقاتلهم قِتالًا شديدًا، وتراموا بالنبلِ.

ثم إن خويلةَ بنت حكيمٍ -وهي امرأةُ عثمان- قالت: يا رسولَ الله، أعطني -إن فتحَ اللهُ عليك الطائفَ- حليَ باديةَ بنت غيلان، أو حلي الفارعةِ بنت عَقيل، وكانتا من أحلى نساء ثقيفٍ.

فذُكر لي أن رسولَ الله ﷺ قال لها: «**وإن كان لم يُؤذن لي في ثقيفٍ يا خويلةُ؟**»

فخرجت خويلةُ، فذكرت ذلك لعمرَ بن الخطابِ، فدخل على رسولِ الله ﷺ، فقال يا رسولَ الله، ما حديثٌ حدَّثتنيه خُويلةُ، زعمت أنك قُلته؟ قال: «**قد قلتُه**»

قال: أوما أذن لك فيهم يا رسولَ الله؟

قال: «**لا**».

قال: أفلا أؤذِّنُ بالرحيل؟

قال: «**بلى**».

قال: فأذن عمر بالرحيل.

١٥- أمرُ أموالِ هَوازنَ وسباياها

ثم خرجَ رسولُ الله ﷺ حتى نزل الجِعرانةَ فيمن معه من الناس، ومعه من هوازنَ سبيٌ كثيرٌ، وقد قال له رجلٌ من أصحابِه يومَ ظعن عن ثقيفٍ: يا رسولَ الله، ادعُ عليهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «**اللهمَّ اهد ثقيفًا وأْت بهم**» ثم أتاه وفد هوازنَ بالجِعرانةِ، وكان مع رسولِ الله ﷺ من سبي هوازنَ ستةُ آلافٍ من الذراري والنساءِ، ومن الإبل والشاءِ ما لا يُدرى ما عِدَّته.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عبد الله بن عمرو أن وفد هوازنَ أتوا رسولَ الله ﷺ وقد أسلَموا، فقالوا: يا رسولَ الله، إنا أصلٌ وعشيرةٌ، وقد أصابنا من البلاءِ ما لم يَخْفَ عليك، فامنُن علينا، مَنَّ الله عليك.

قال: وقام رجلٌ من هوازنَ ثم أحدُ بني سعد بن بكر يُقال له: زُهيرٌ، يُكنى أبا صُرَد، فقال: يا رسولَ الله، إنما في الحظائر عمَّاتُك وخالاتك وحواضنُك اللاتي كن يَكفُلنك، ولو أنا مَلحنا للحارث بن أبي شِمرٍ، أو للنعمانِ بن المنذرِ، ثم نزل منا بمثلِ الذي نزلت به، رَجونا عطفَه وعائدتَه علينا، وأنت خيرُ المكفولين.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟**».

فقالوا: يا رسولَ الله، خيَّرتنا بين أموالِنا وأحسابِنا، بل تَرُدَّ إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحبُّ إلينا.

فقال لهم: «**أما ما كان لي ولبَني عبدِ المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صلَّيت الظهرَ بالناس، فقوموا فقولوا: إنا نَستشفعُ برسولِ الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسولِ الله في أبنائنا ونسائنا، فسأُعطيكم عند ذلك، وأسألُ لكم**».

فلما صلى رسولُ الله ﷺ بالناسِ الظهرَ، قاموا فتكلموا بالذي أمرَهم به، فقال رسولُ الله ﷺ: «**وأما ما كان لي ولبَني عبدِ المطلب فهو لكم**».

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسولِ الله ﷺ.

وقالت الأنصارُ: وما كان لنا فهو لرسولِ الله ﷺ.

فقال الأقرعُ بن حابسٍ: أما أنا وبنو تميمٍ فلا.

وقال عيينةُ بن حِصن: أما أنا وبنو فزارةَ فلا.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**أما من تمسَّك منكم بحقِّه من هذا السبي فله بكلِّ إنسان ستُ فرائضَ، من أول سبي أصيبُه، فرُدوا إلى الناسِ أبناءهم ونساءهم**».

وقال رسولُ الله ﷺ لوفدِ هوازنَ، وسألهم عن مالكِ بن عوفٍ «**ما فعل؟**» فقالوا: هو بالطائفِ مع ثَقيفٍ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مُسلمًا رَددتُ عليه أهلَه وماله، وأعطيتُه مئةً من الإبل**».

فأُتى مالكٌ بذلك، فخرج إليه من الطائفِ، وقد كان مالكٌ خاف ثقيفًا على نفسه أن يَعلموا أن رسولَ الله ﷺ قال له ما قال، فيحبِسوه، فأمرَ براحِلته فهُيئت له، وأمر بفرسٍ له، فأُتي به إلى الطائفِ، فخرج ليلًا، فجلس على فرسِه، فركضه حتى أتى راحلتَه حيث أَمرَ بها أن تُحبس فركبَها، فلحق برسولِ الله ﷺ، فأدركه بالجِعرانةِ أو بمكَّةَ، فردَّ عليه أهلَه وماله، وأعطاه مئةً من الإبل، وأسلمَ فحسُن إسلامُه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما فرغ رسولُ الله ﷺ من ردِّ سبايا حُنين إلى أهلها ركب، واتبعه الناسُ يقولون: يا رسولَ الله، اقسِم علينا فيئَنا من الإبل والغنمِ، حتى ألجئوه إلى شجرةٍ، فاختَطَفَت عنه رداءَه فقال: «**أدوا عليَّ ردائي أيها الناسُ، فوالله أن لو كان لكم بعددِ شجر تِهامةَ نَعمًا لقسمتُه عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا**».

ثم قام إلى جنب بعيرٍ، فأخذَ وبرةً من سَنامه، فجعلها بين أصبُعيه، ثم رفعها، ثم قال: «**أيها الناسُ، والله ما لي من فيئِكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمسُ،**

والخمس مردودٌ عليكم؛ فأدوا الخياطَ والمِخْيَط، فإن الغُلول يكون على أهلِه عارًا ونارًا وشنارًا يومَ القيامة».

قالَ ابنُ إسحاقَ: وأعطى رسولُ الله ﷺ المؤلفةَ قلوبُهم، وكانوا أشرافًا من أشرافِ الناس، يتألفُهم ويتألف بهم قومَهم.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجلٌ من بني تميمٍ يُقال له: ذو الخويصرةِ، فوقف عليه وهو يُعطي الناسَ، فقال: يا محمدُ، قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**أجل، فكيف رأيتَ؟**».

فقال: لم أرك عَدَلت.

قال: فغضِب النبيُّ ﷺ ثم قال: «**ويحك! إذا لم يكن العدلُ عندي، فعند مَن يكون؟!**».

فقال عمرُ بن الخطاب: يا رسولَ الله، ألا أقتله؟

فقال: «**لا، دعه فإنه سيكونُ له شيعةٌ يتعمقون في الدين حتى يَخرجوا منه كما يَخرجُ السهمُ من الرميَّةِ**».

قال ابن هشام: عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: لما أعطى رسولُ الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، في قريشٍ وفي قبائلِ العربِ، ولم يكن في الأنصارِ منها شيءٌ، وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصارِ في أنفسِهم، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلُهم: لقد لَقِي والله رسولُ الله ﷺ قومَه، فدخل عليه سعدُ بن عُبادةَ، فقال: يا

رسولَ الله، إن هذا الحيَّ من الأنصارِ قد وجدوا عليك في أنفسِهم، لما صنعتَ في هذا الفيءِ الذي أصبتَ، قسَمت في قومِك، وأعطيت عطايا عِظامًا في قبائلِ العرب، ولم يك في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ.

قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعدُ؟!**».

قال: يا رسولَ الله، ما أنا إلا من قَومي.

قال: «**فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرةِ**».

قال: فخرج سعدٌ، فجمعَ الأنصارَ في تلك الحظيرةِ.

قال: فجاء رجالٌ من المهاجرين فتَرَكهم، فدخلوا، وجاء آخرونَ فردَّهم.

فلما اجتمعوا له أتاه سعدٌ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصارِ، فأتاهم رسولُ الله ﷺ، فحمد اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: «**يا معشرَ الأنصار، ما قالَةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟! ألم آتكم ضُلَّالا فهداكم اللهُ، وعالةً فأغناكم اللهُ، وأعداءً فألَّف اللهُ بين قلوبكم!**».

قالوا: بلى، الله ورسولُه أَمَنُّ وأفضل.

ثم قال: «**ألا تُجيبونني يا معشرَ الأنصارِ؟**».

قالوا: بماذا نجيبُك يا رسولَ الله؟ لله ولرسولِه المنُّ والفضلُ.

قال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقُلتُم؛ فلصَدقتُم ولصُدِّقتم: أتيتَنا مُكذَّبًا فصدَّقناك، ومَخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم يا**

معشرَ الأنصار في أنفسكم في لُعاعَةٍ[١] من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليُسلموا، ووَكلْتُكم إلى إسلامِكم، ألا تَرضَون يا معشرَ الأنصارِ، أن يذهب الناسُ بالشاةِ والبعيرِ وتَرجعوا برسولِ الله ﷺ إلى رِحالِكم؟ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده، لولا الهجرةُ لكنت امرأً من الأنصارِ، ولو سلك الناسُ شِعبًا وسَلَكَت الأنصارُ شِعبًا، لسلكتُ شِعبَ الأنصار، اللهمَّ ارحمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ».

قال: فبكى القومُ حتى أخضَلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسولِ الله قسْمًا وحظًّا.

ثم انصرف رسولُ الله ﷺ، وتفرَّقوا.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم خرج رسولُ الله ﷺ من الجِعرانةِ مُعتمرًا، وأمر ببقايا الفيء فحُبس بمِجنَّةَ، بناحية مَرِّ الظهران، فلما فرغ رسولُ الله ﷺ من عُمرته انصرف راجعًا إلى المدينة، واستخلف عتَّابَ بنَ أسيد على مكَّةَ، وخلَّف معه معاذَ بن جبلٍ، يفقِّه الناسَ في الدين، ويُعلِّمهم القرآنَ، واتُّبع رسولُ الله ﷺ ببقايا الفيء.

١٦- غزوةُ تبوكَ في رجب سنةَ تسع

عن محمد بن إسحاقَ المطلبي قال: ثم أقامَ رسولُ الله ﷺ بالمدينةِ ما بين ذي الحجَّةِ إلى رجبٍ، ثم أمر الناسَ بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمانٍ من عُسرة الناس، وشدَّةٍ من الحر، وجَدْبٍ من البلاد وحين طابت الثمارُ، والناسُ يحبون المُقامَ في ثمارهم وظلالِهم، ويكرهون الشخوصَ على الحال من الزمانِ الذي هم عليه.

---

(١) اللُّعَاعَة: الكلأ الخفيف، كناية عن بهرج الدنيا وزينتها.

وكان رسولُ الله ﷺ قلما يخرج في غزوةٍ إلا كنَّى عنها، وأخبر أنه يريد غيرَ الوجه الذي يصمُد له، إلا ما كان من غزوةِ تبوكٍ، فإنه بيَّنها للناس؛ لبُعد الشُّقَّةِ، وشدَّةِ الزمان، وكثرةِ العدوِّ الذي يصمد له، ليتأهب الناسُ لذلك أُهْبَتَه، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يُريد الرومَ.

وقال قومٌ من المنافقين بعضُهم لبعضٍ: لا تَنفروا في الحرِّ، زهادَةً في الجهاد، وشكًّا في الحقِّ، وإرجافًا برسولِ الله ﷺ، فأنزل اللهُ تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [التوبة:٨١-٨٢].

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم إن رسولَ الله ﷺ جَدَّ في سفرِه، وأمر الناسَ بالجهاز والانكماشِ، وحض أهلَ الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله، فحمل رجالٌ من أهلِ الغنى واحتَسبوا، وأنفق عثمانُ بنُ عفان في ذلك نفقةً عظيمةً، لم ينفق أحدٌ مثلَها.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وجاءه المُعذِّرون من الأعراب، فاعتذروا إليه، فلم يَعذِرهم اللهُ تعالى، وقد ذُكر لي أنهم نفرٌ من بني غِفارٍ.

ثم استتب برسولِ الله ﷺ سفرُه، وأجمعَ السيرَ، وقد كان نفرٌ من المسلمين أبطأت بهم النيَّةُ عن رسولِ الله ﷺ حتى تخلفوا عنه، عن غيرِ شكٍّ ولا ارتيابٍ، منهم: كعبُ بن مالك بن أبي كعب، ومُرارةُ بن الربيعِ، وهلالُ بن أميةَ، وأبو خَيثمةَ، وكانوا نفرَ صدقٍ، لا يُتهمون في إسلامِهم.

فلما خرجَ رسولُ الله ﷺ ضربَ عسكرَه على ثنيةِ الوداعِ، وضرب عبدُ الله بن أبيٍّ معه على حِدةٍ عسكرَه أسفلَ منه، وكان فيما يَزعمون ليس بأقلِّ العسكرين، فلما سارَ رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي، فيمن تخلف من المنافقين وأهلِ الريب.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقد كان رسولُ الله ﷺ حين مَرَّ بالحِجر نزلها، واستقى الناسُ من بئرها، فلما راحوا قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تشربوا من مائها شيئًا، ولا تتوضَّؤوا منه للصلاة، وما كان من عجينٍ عجنتموه فاعلِفوه الإبلَ، ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرُجن أحدٌ منكم الليلةَ إلا ومعه صاحبٌ له**».

ثم مضى رسولُ الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجلُ، فيقولون: يا رسولَ الله، تخلف فلانٌ، فيقول: «**دعوه، فإن يكُ فيه خيرٌ فسيُلحقه اللهُ تعالى بكم، وإن يك غيرَ ذلك فقد أراحَكُم اللهُ منه**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقد كان رهطٌ من المنافقين منهم: وديعةُ بن ثابت، ومُخشِّنُ بن حُمَيِّر، يشيرون إلى رسولِ الله ﷺ وهو مُنطلقٌ إلى تبوكَ، فقال بعضُهم لبعض: أتحسِبون جِلاد بني الأصفرِ كقِتال العرب بعضِهم بعضًا! والله لكأنا بكم غدًا مقرَّنين في الحبال؛ إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

فقال مُخشِّنُ بن حُمَيِّر: والله لوددتُ أني أقاضي على أن يُضرب كلُّ رجل منا مئةَ جلدةٍ، وإنا ننفلتُ أن ينزل فينا قرآنٌ لمقالَتِكم هذه.

وقال رسولُ الله ﷺ -فيما بلغني- لعمارِ بن ياسرٍ: «**أدرك القومَ، فإنهم قد احترَقوا، فسلْهُم عما قالوا، فإن أنكروا فقُل: بلى، قلتم كذا وكذا**».

فانطلقَ إليهم عمارٌ، فقال ذلك لهم: فأتوا رسولَ الله ﷺ يَعتذرون إليه، فقال وديعةُ بنُ ثابتٍ -ورسولُ الله ﷺ واقفٌ على ناقته فجعل يقول وهو آخذٌ بِحَقَبها-: يا رسولَ الله، إنما كنا نخوضُ ونلعبُ، فأنزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥].

وقال مُخشِّنُ بن حُميِّر: يا رسولَ الله، قعد بي اسمِي واسمُ أبي، وكأن الذي عُفي عنه في هذه الآية مُخشِّن بن حُميِّر، فتسمى عبدَ الرحمن، وسأل اللهَ تعالى أن يقتُلَه شهيدًا لا يُعلم بمكانه، فقُتل يومَ اليمامةِ، فلم يوجد له أثرٌ.

ولما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى تبوكَ، أتاه يُحنَّةُ بن رُؤبةَ، صاحبُ أيْلَةَ، فصالح رسولَ الله ﷺ، وأعطاه الجزيةَ، وأتاه أهلُ جَرباء وأَذرُح، فأعطوه الجزيةَ، فكتب رسولُ الله ﷺ لهم كتابًا، فهو عندهم.

فأقام رسولُ الله ﷺ بتبوكَ بضعَ عشرةَ ليلةً، لم يجاوزها، ثم انصرفَ قافلًا إلى المدينةِ.

١٧- أمرُ مسجدِ الضرار عند القُفول من غزوة تبوكَ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم أقبل رسولُ الله ﷺ حتى نزل بذِي أوانٍ -بلدٍ بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار- وكان أصحابُ مسجدِ الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهَّز إلى تبوكَ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلةِ المَطيرةِ والليلةِ الشاتيةِ، وإنا نحب أن تأتيَنا، فتصلي لنا فيه فقال: «**إني على جَناح سفرٍ، وحال شغلٍ** -أو كما قال ﷺ- **ولو قد قدِمنا إن شاء اللهُ لأتيناكم، فصلَّينا لكم فيه**».

فلما نزل بذي أوانٍ، أتاه خبرُ المسجدِ، فدعا رسولُ الله ﷺ مالكَ بن الدُّخشُم، ومعنَ بن عديٍّ، أو أخاه عاصمَ بنَ عدي، فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجدِ الظالمِ أهلُه، فاهدماه وحرِّقاه**».

فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالمِ بن عوفٍ، وهم رهطُ مالكِ بن الدخشُم، فقال مالكٌ لمعنٍ: أنظرني حتى أخرُجَ إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهلِه، فأخذ سعفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهلُه، فحرَّقاه وهدماه، وتفرَّقوا عنه، ونزل فيهم من القرآنِ ما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١٠٧] إلى آخر القصة.

١٨- أمرُ وفدِ ثقيفٍ وإسلامها في شهرِ رمضانَ سنةَ تسع

قالَ ابنُ إسحاقَ: وقدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ من تبوكَ في رمضانَ، وقدم عليه في ذلك الشهر وفدُ ثقيفٍ.

فلما أسلموا وكتب لهم رسولُ الله ﷺ كتابَهم، أمَّرَ عليهم عثمانَ بن أبي العاص، وكان من أحدَثِهم سنًّا، وذلك أنه كان أحرصَهم على التفقُّه في الإسلامِ، وتعلُّم القرآن.

١٩- حجُّ أبي بكر بالناس سنةَ تسعٍ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم أقام رسولُ الله ﷺ بقيَّة شهر رمضانَ وشوالا وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسعٍ، ليقيم للمسلمين حجَّهم، والناسُ من أهل الشرك على منازِلهم من حجِّهم، فخرج أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من المسلمين.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أبي جعفرٍ محمدِ بن عليٍّ رضوان الله عليه، أنه قال: لما نزلت براءةٌ على رسولِ الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكرٍ الصديقَ ليقيمَ للناس الحجَّ، قيل له: يا رسولَ الله، لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: «**لا يُؤدي عني إلا رجلٌ من أهل بيتي**».

ثم دعا عليَّ بنَ أبي طالب رضوانُ الله عليه، فقال له: «**اخرج بهذه القصَّةِ من صدر براءةٍ، وأذن في الناس يومَ النحر إذا اجتمعوا بمنًى، أنه لا يدخل الجنةَ كافرٌ، ولا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ، ومن كان له عند رسولِ الله ﷺ عهدٌ فهو له إلى مُدَّته**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: فكان هذا من براءةٍ فيمن كان من أهل الشرك من أهلِ العهد العامِّ، وأهل المدة إلى الأجلِ المسمى.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم أمر اللهُ رسولَه ﷺ بجهاد أهلِ الشرك، ممن نقض من أهل العهدِ الخاصِّ، ومن كان من أهلِ العهد العامِّ، بعد الأربعةِ الأشهرِ التي ضرب لهم أجلًا إلا أن يعدو فيها عادٍ منهم، فيُقتل بعَدائه.

٢٠- ذِكرُ سنةِ تسع وتسميتُها: سنة الوفودِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: لما افتتح رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، وفرغ من تبوكَ، وأسلمت ثقيفٌ وبايعت، ضربت إليه وفودُ العرب من كلِّ وجه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: وإنما كانت العربُ تربَّصُ بالإسلام أَمْرَ هذا الحيِّ من قريشٍ وأَمْرَ رسولِ الله ﷺ، وذلك أن قريشًا كانوا إمامَ الناس وهاديهم، وأهلَ البيت الحرام، وصريحَ ولدِ إسماعيلَ بن إبراهيم عليهما السلامُ، وقادةَ العرب لا يُنكَرون ذلك، وكانت قريشٌ هي التي نصبَت لحرب رسولِ الله ﷺ وخلافِه.

فلما افتُتحت مكةُ، ودانت له قريشٌ، ودوَّخها الإسلامُ، وعرفت العربُ أنه لا طاقةَ لهم بحربِ رسولِ الله ﷺ ولا عداوتِه، فدخلوا في دين الله، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفْوَاجًا﴾، يضرِبون إليه من كلِّ وجهٍ، يقول الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر:١-٣] أي: فاحمد اللهَ على ما أظهرَ من دينِك، واستغفرْه إنه كان توابًا.

[رابعا: حجة الوداع وابتداء شكوى رسول الله ﷺ]

١- حَجَّةُ الوَداعِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما دخل على رسولِ الله ﷺ ذو القَعدة، تجهَّز للحج، وأمر الناسَ بالجهاز له.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ثم مضى رسولُ الله ﷺ على حجِّه، فأرى الناسَ مناسكَهم، وأعلمَهم سُنن حجِّهم، وخطب الناسَ خُطبته التي بيَّن فيها ما بين، فحمد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: «**أيها الناسُ، اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقفِ أبدًا.**

أيها الناسُ، إن دماءَكم وأموالَكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقَوا ربكم، كحُرمة يومِكم هذا، وكحرمةِ شهرِكم هذا، وإنكم ستلقون ربَّكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عندَه أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كلَّ ربًا موضوعٌ، ولكن لكم رءوسُ أموالِكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباسِ بن عبد المطلب موضوعٌ كلُّه.

وإن كل دمٍ كان في الجاهلية موضوعٌ، وإن أوَّلَ دمائِكم أضعُ دمَ ابن ربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلبِ، وكان مُسترضعًا في بني ليثٍ، فقتلته هُذيلٌ، فهو أول ما أبدأ به من دماءِ الجاهلية.

أما بعدُ، أيها الناسُ، فإن الشيطانَ قد يئس من أن يُعبدَ بأرضِكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رَضيَ به مما تَحقِرون من أعمالِكم، فاحذروه على دينِكم.

أيها الناسُ إن النسيءَ زيادةٌ في الكفر، يُضلُّ به الذين كفروا، يُحلونه عامًا ويُحرمونه عامًا، ليواطئوا عدَّةَ ما حرَّمَ الله، فيُحلوا ما حرم اللهُ، ويُحرِّموا ما أحل اللهُ، وإن الزمانَ قد استدار كهيئتِهِ يومَ خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ، وإن عدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشَر شهرًا، منها أربعةٌ حرم، ثلاثةٌ متوالية، ورجبُ مضرَ، الذي بين جُمادى وشعبانَ.

أما بعدُ، أيها الناسُ، فإن لكم على نسائكم حقًّا، ولهن عليكم حقًّا، لكم عليهن ألا يوطِئن فُرُشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشةٍ مُبينة، فإن فعلن فإن اللهَ قد أذِن لكم أن تَهجُروهن في المضاجِعِ وتَضربوهن ضربًا غيرَ مُبرِّح، فإن انتهين فلهن رزقُهن وكسوتُهن بالمعروفِ، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوانٍ لا يملِكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانةِ الله، واستحلَلتُم فُروجهن بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناسُ قولي، فإني قد بلَّغت، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بيِّنًا: كتابَ الله وسنةَ نبيِّه.

أيها الناسُ، اسمعوا قولي واعقِلوه، تَعلَمُنَّ أن كُلَّ مسلم أخٌ للمسلم، وأن المسلمين إخوةٌ، فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طِيبِ نفسٍ منه، فلا تَظلمُنَّ أنفسَكم، اللهمَّ هل بلَّغتُ؟».

فذُكر لي أن الناسَ قالوا: اللهمَّ نعم.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**اللهمَّ اشهد**».

٢- خروجُ رسلِ رسولِ الله إلى الملوكِ

قال ابنُ هشامٍ: وقد كان رسولُ الله ﷺ بعث إلى الملوك رسُلًا من أصحابِه، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلامِ.

فبعث دِحيةَ بن خليفةَ الكلبيَّ إلى قيصر ملكِ الروم، وبعث عبدَ الله بن حُذافةَ السهميَّ إلى كسرى ملك فارسَ، وبعث عمرو بنَ أمية الضمريَّ إلى النجاشيِّ ملكِ الحبشة، وبعث حاطبَ بن أبي بَلتعةَ إلى المقوقسِ ملكِ الإسكندرية، وبعث عمرَو بن العاص السهميَّ إلى جَيفرٍ وعيَّادٍ ابني الجُلُندى الأزديين ملكي عُمانَ، وبعث سَليطَ بن عمرٍو أحدَ بني عامر بن لؤي، إلى ثُمامةَ بن أُثالٍ وهَوذةَ بن عليٍّ الحنفيين ملكي اليمامةِ، وبعث العلاءَ بن الحضرميِّ إلى المُنذرِ بن سَاوى العبديِّ ملك البحرين، وبعث شُجاعَ بن وهبٍ الأسديَّ إلى الحارث بن أبي شِمْرٍ الغسَّانيِّ ملك تُخوم الشأم.

قال ابنُ هشامٍ: بعث شُجاعَ بن وهب إلى جبلةَ بن الأيهمِ الغسانيِّ، وبعث المُهاجرَ بن أبي أميةَ المخزوميَّ إلى الحارث بن عبدِ كُلالٍ الحِميريِّ ملك اليمنِ.

٣- بَعثُ أسامةَ بن زيدٍ إلى أرضِ فلسطين وهو آخرُ البعوثِ

قالَ ابنُ إسحاقَ: وبعث رسولُ الله ﷺ أسامةَ بنَ زيد بن حارثةَ إلى الشأم، وأمره أن يُوطِئَ الخيلَ تُخومَ البلقاءِ والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناسُ، وأوعب مع أسامةَ المهاجرون الأولون.

٤- ابتداءُ شكوى رسولِ الله ﷺ

قالَ ابنُ إسحاقَ: فبينا الناسُ على ذلك ابتُدئ رسولُ الله ﷺ بشَكوِه الذي قبضه اللهُ فيه، إلى ما أرادَ به من كرامتِه ورحمته، في ليالٍ بقين من صفرٍ، أو في أولِ شهرِ ربيعٍ الأول، فكان أوَّلَ ما ابتُدئ به من ذلك -فيما ذُكر لي- أنه خرجَ إلى بقيعِ الغَرقدِ، من جوفِ الليل، فاستغفرَ لهم، ثم رجعَ إلى أهلِه، فلما أصبح ابتدئ بوجعِه من يومِه ذلك.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ زوجِ النبي ﷺ قالت: رجع رسولُ الله ﷺ من البَقيع فوجدني وأنا أجد صُداعًا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه، فقال: «**بل أنا والله يا عائشةُ وا رَأساه**».

قالت: ثم قال: «**وما ضرُّكِ لو مُتِّ قبلي، فقمتُ عليك وكفَّنتك، وصلَّيت عليك ودفنتُك؟**».

قالت: قلت: والله لكأني بك، لو قد فعلتَ ذلك، لقد رجعتَ إلى بيتي، فأعرستَ فيه ببعضِ نسائِك، قالت: فتبسم رسولُ الله ﷺ، وتتامَّ به وجعُه، وهو يدورُ على نسائِه، حتى استُعِزَّ به(١)، وهو في بيتِ مَيمونةَ، فدعا نساءَه، فاستأذنهن في أن يُمرَّض في بيتي، فأَذِنَّ له.

٥- ذِكرُ أزواجِه ﷺ أمَّهاتِ المؤمنين

قال ابنُ هشامٍ: وكن تسعًا: عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ، وحفصةُ بنت عمرَ بن الخطاب، وأمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سفيان بن حربٍ، وأمُّ سلمةَ بنت أبي أميةَ بن المغيرة،

(١) استُعِزَّ به: أي غلبه وجعُه.

وسودةُ بنتُ زمعةَ بن قيس، وزينبُ بنتُ جحشِ بن رئابٍ، وميمونةُ بنتُ الحارث بن حزن، وجويريةُ بنتُ الحارث بن أبي ضِرار، وصفيةُ بنتُ حُييِّ بن أخطبَ.

وكان جميعُ من تزوَّج رسولُ الله ﷺ ثلاثَ عشرةَ.

فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسولُ الله ﷺ إحدى عشْرةَ، فمات قبله منهن ثنتانِ: خديجةُ بنتُ خويلد، وزينبُ بنت خُزيمةَ.

وثنتان لم يدخل بهما: أسماءُ بنت النعمان الكنديةُ، تزوجها فوجد بها بَياضًا[1]، فمتَّعها وردَّها إلى أهلِها، وعَمرةُ بنت يزيدَ الكلابية وكانت حديثةَ عهدٍ بكفرٍ، فلما قدمت على رسولِ الله ﷺ، استعاذَت من رسولِ الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَنيعٌ عائذ الله**»، فردها إلى أهلِها.

٦- تَمريضُ رسولِ الله في بيت عائشةَ

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ زوجِ النبي ﷺ قالت: فخرجَ رسولُ الله ﷺ يمشي بين رَجلين من أهلِه: أحدُهما: الفضلُ بن العباس، ورجلٌ آخر، عاصبًا رأسَه، تخُطُّ قدماه، حتى دخل بيتي، ثم غُمر رسولُ الله ﷺ، واشتدَّ به وجعُه، فقال: «**هريقوا عليَّ سبعَ قِرب من آبارٍ شتَّى، حتى أخرجَ إلى الناسِ فأعهدَ إليهم**».

قالت: فأقعدناه في مِخضَبٍ[2] لحفصةَ بنت عمر، ثم صببنا عليه الماءَ حتى طفق يقول: «**حسبُكم حسبُكم**».

---

(١) البَيَاض: البرص.

(٢) المِخْضَب: المركن، وهو إناء يغتسل فيه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أيوب بن بشيرٍ أن رسولَ الله ﷺ خرجَ عاصبًا رأسَه حتى جلسَ على المِنبر، ثم كان أول ما تكلَّم به أنه صلى على أصحابِ أحُدٍ، واستغفرَ لهم، فأكثرَ الصلاةَ عليهم، ثم قال: «**إن عبدًا من عبادِ الله خيَّره اللهُ بين الدنيا وبين ما عندهُ، فاختار ما عند الله**».

قال: ففهمها أبو بكر، وعرَف أن نفسَه يُريد، فبَكى وقال: بل نحن نَفديك بأنفسِنا وأبنائِنا، فقال: «**على رِسلِك يا أبا بكر**».

ثم قال: «**انظروا هذه الأبوابَ اللَّافِظةَ في المسجدِ**[1]، **فسُدوها إلا بيتَ أبي بكر، فإني لا أعلمُ أحدًا كان أفضلَ في الصحبةِ عندي يدًا منه**».

وقالَ ابنُ إسحاقَ: عن عُروةَ بن الزبير وغيرِه من العلماء، أن رسولَ الله ﷺ استبطأ الناسَ في بعثِ أسامةَ بن زيدٍ، وهو في وجعِه، فخرج عاصبًا رأسَه حتى جلسَ على المِنبر، وقد كان الناسُ قالوا في إمرةِ أسامةَ: أمَّرَ غلامًا حدثًا على جِلَّةِ المهاجرين والأنصارِ.

فحمد اللهَ وأثنى عليه بما هو له أهلٌ، ثم قال: «**أيها الناسُ، أنفِذوا بعثَ أسامةَ، فلَعمري، لئن قُلتم في إمارته لقد قلتُم في إمارةِ أبيه من قبلِه، وإنه لخليقٌ للإمارةِ، وإن كان أبوه لخليقًا لها**».

قال: ثم نزلَ رسولُ الله ﷺ، وانكمشَ الناسُ[2] في جهازهم، واستعزَّ برسولِ الله ﷺ وَجعُه، فخرج أسامةُ، وخرج جيشُه معه حتى نزلوا الجُرفَ من

---

(١) اللَّافِظَة في المسجد: يعني النافذة إليه.

(٢) انكَمَشَ الناس: أسرعوا.

المدينة على فرسخٍ، فضربَ به عسكرَه، وتتامَّ إليه الناسُ، وثَقُل رسولُ الله ﷺ، فأقام أسامةُ والناسُ؛ ليَنظُروا ما اللهُ قاضٍ في رسول الله ﷺ.

وقالَ ابنُ إسحاقَ: عن عبدِ الله بن كعبِ بن مالكٍ أن رسولَ الله ﷺ قال - يومَ صلى واستغفرَ لأصحابِ أحُدٍ، وذكر من أمرِهم ما ذكر مع مقالتِه يومئذ-: «**يا معشرَ المهاجرين، استوصوا بالأنصارِ خيرًا، فإن الناسَ يَزيدون، وإن الأنصارَ على هيئتها لا تَزيدُ، وإنهم كانوا عَيبتي التي أويتُ إليها، فأحسِنوا إلى مُحسِنهم، وتجاوزوا عن مُسيئِهم**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ كثيرًا ما أسمعُه يقول: «**إن اللهَ لم يقبض نبيًّا حتى يخيِّره**».

قالت: فلما حُضر رسولُ الله ﷺ كان آخرُ كلمة سمعتُها منه وهو يقول: «**بل الرفيقَ الأعلى من الجنةِ**».

قالت: فقلت: إذن، والله لا يَختارُنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا: «**إن نبيًّا لم يُقبض حتى يُخيَّر**».

عن عائشةَ قالت: لما استُعزَّ برسولِ الله ﷺ قال: «**مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناس**».

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أنسِ بن مالكٍ أنه لما كان يومُ الاثنين الذي قبض اللهُ فيه رسولَه ﷺ، خرج إلى الناسِ وهم يُصلُّون الصبحَ، فرفع الستر، وفتح البابَ، فخرجَ رسولُ الله ﷺ، فقامَ على باب عائشةَ، فكاد المسلمون يَفتتنون في صلاتِهم برسولِ الله ﷺ حين رأوه فَرَحًا به، وتفرجوا، فأشارَ إليهم أن اثبُتوا على صلاتِكم.

قال: فتبسم رسولُ الله ﷺ سرورًا لما رأى من هيئتهم في صلاتِهم، وما رأيت رسولَ الله ﷺ أحسنَ هيئةً منه تلك الساعةَ، قال: ثم رجع وانصرف الناسُ وهم يرون أن رسولَ الله ﷺ قد أفْرَقَ(١) من وجعِه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنحِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن عائشةَ قالت: رجع إليَّ رسولُ الله ﷺ في ذلك اليومِ حين دخل من المسجدِ، فاضطجع في حِجري، فدخل عليَّ رجلٌ من آل أبي بكر، وفي يده سواكٌ أخضرُ، قالت: فنظرَ رسولُ الله ﷺ إليه في يده نظرًا عرفت أنه يريدُه.

قالت: فقلت: يا رسولَ الله، أتحبُّ أن أعطيَك هذا السواكَ؟

قال: «**نعم**».

قالت: فأخذته فمضغتُه له حتى ليَّنتُه، ثم أعطيتُه إياه، قالت: فاستنَّ به كأشد ما رأيتُه يستن بسواكٍ قط، ثم وضعه.

ووجدت رسولَ الله ﷺ يثقُل في حِجري، فذهبتُ أنظرُ في وجهِه، فإذا بصرُه قد شَخَص، وهو يقول: «**بل الرفيقَ الأعلى من الجنةِ**».

قالت: فقلت: خُيِّرتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحقِّ.

قالت: وقُبض رسولُ الله ﷺ.

---

(١) أَفْرَقَ: أي أقبل.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أبي هريرةَ قال: لما توفي رسولُ الله ﷺ قام عمرُ بن الخطاب، فقال: إن رجالًا من المنافقين يَزعمون أن رسولَ الله ﷺ قد تُوفِّي، وإن رسولَ الله ﷺ ما ماتَ، ولكنه ذهبَ إلى ربِّه كما ذهبَ موسى بن عِمران، فقد غاب عن قومِه أربعين ليلةً، ثم رجعَ إليهم بعد أن قيل: قد ماتَ، ووالله ليرجعنَّ رسولُ الله ﷺ كما رجعَ موسى، فليَقطعنَّ أيدي رجالٍ وأرجلَهم زعموا أن رسولَ الله ﷺ مات.

قال: وأقبل أبو بكرٍ حتى نزلَ على باب المسجدِ حين بلغه الخبرُ، وعمرُ يكلم الناسَ، فلم يلتفت إلى شيءٍ حتى دخلَ على رسولِ الله ﷺ في بيتِ عائشةَ، ورسولُ الله ﷺ مُسجًّى في ناحية البيتِ، عليه بُردُ حِبَرَةٍ، فأقبل حتى كشف عن وجهِ رسولِ الله ﷺ، قال: ثم أقبل عليه فقبَّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتةُ التي كتبَ اللهُ عليك فقد ذُقتَها، ثم لن تصيبَك بعدها موتةٌ أبدًا.

قال: ثم رد البُردَ على وجه رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمرُ يكلم الناسَ، فقال: على رِسلِك يا عمرُ، أنصِت، فأبى إلا أن يتكلَّم، فلما رآه أبو بكر لا يُنصتُ أقبلَ على الناسِ، فلما سمعَ الناسُ كلامَه أقبلوا عليه وتركوا عمرَ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ثم قال: أيها الناسُ، إنه من كان يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللهَ فإن الله حيٌّ لا يموت، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

قال: فوالله لكأن الناسَ لم يعلموا أن هذه الآيةَ نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ، قال: وأخذها الناسُ عن أبي بكرٍ، فإنما هي في أفواههم.

قال: فقال أبو هريرةَ: قال عمرُ: والله ما هو إلا أن سَمِعتُ أبا بكر تلاها، فعَقِرْتُ حتى وقعتُ إلى الأرضِ ما تحملُني رجلاي، وعرفت أن رسولَ الله ﷺ قد مات.

٧- أمرُ سَقيفةِ بني ساعدةَ

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما قُبضَ رسولُ الله ﷺ انحازَ هذا الحيُّ من الأنصارِ إلى سعدِ بن عُبادةَ في سقيفةِ بني ساعدةَ، واعتزلَ عليُّ بن أبي طالب والزبيرُ بن العوَّام وطلحةُ بن عبيد الله في بيت فاطمةَ، وانحازَ بقيَّةُ المهاجرين إلى أبي بكرٍ، وانحازَ معهم أُسيدُ بن حُضير في بني عبدِ الأشهل، فأتى آتٍ إلى أبي بكرٍ وعمرَ، فقال: إن هذا الحيَّ من الأنصارِ مع سعدِ بن عبادةَ في سقيفةِ بني ساعدةَ قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمرِ الناسِ حاجةٌ فأدركوا قبل أن يَتفاقم أمرُهم ورسولُ الله ﷺ في بيته لم يُفرغ من أمرِه قد أَغلق دونه البابَ أهلُه.

قال عمرُ: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخوانِنا هؤلاء من الأنصارِ، حتى ننظُر ما هم عليه.

قالَ ابنُ إسحاقَ: قال عمرَ بن الخطابِ: فانطلقنا نَؤمُّهم حتى لقِيَنا منهم رجلان صالحان، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القومُ، وقال: أين تُريدون يا معشرَ المهاجرين؟

قلنا: نُريد إخواننا هؤلاء من الأنصارِ، قالا: فلا عليكم أن لا تَقربوهم يا معشرَ المهاجرين، اقضوا أمرَكم.

قال: قلت: والله لنأتينَّهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفةِ بني ساعدةَ، فإذا بين ظَهرانيهم رجلٌ مُزَّمِّلٌ فقلت: من هذا؟

فقالوا: سعدُ بن عبادةَ.

فقلت: ما له؟

فقالوا: وَجِعٌ.

فلما جلسنا تشهَّدَ خطيبُهم، فأثنى على الله بما هو له أهلٌ، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلامِ، وأنتم يا معشرَ المهاجرين رهطٌّ منا، وقد دَفَّتْ دافةٌ[(١)] من قومِكم، قال: وإذا هم يُريدون أن يَحتازونا من أصلِنا، ويَغصِبونا الأمرَ، فلما سكت أردتُ أن أتكلمَ، وقد زَوَّرْتُ في نفسي مَقالةً[(٢)] قد أعجبتني، أريدُ أن أقدِّمَها بين يدي أبي بكرٍ، وكنت أداري منه بعضَ الحدِّ.

فقال أبو بكر: على رِسلك يا عمرُ، فكرهت أن أُغضبَه، فتكلم، وهو كان أعلمَ منى وأوقرَ، فوالله ما تركَ من كلمةٍ أعجبتني من تَزويري إلا قالها في بديهتِه، أو مثلَها أو أفضلَ، حتى سكت.

قال: أما ما ذكرتم فيكم من خيرٍ، فأنتم له أهلٌ، ولن تَعرفَ العربُ هذا الأمرَ إلا لهذا الحيِّ من قريشٍ، هم أوسطُ العربِ نسبًا ودارًا، وقد رضيتُ لكم

---

(١) الدَّافَة: الجيش يَدفُّون نحو العدو أي يدبون، كناية.

(٢) زَوَّرْتُ مقالةً: حسنتها وقومتها.

أحدَ هذين الرجلين، فبايعوا أيَّهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدةَ بن الجراحِ، وهو جالسٌ بيننا، ولم أكره شيئًا مما قالَ غيرَها، كان والله أن أُقدَّمَ فتضربَ عُنقي، لا يُقربني ذلك إلى إثمٍ، أحبَّ إليَّ من أن أتأمَّر على قومٍ فيهم أبو بكر.

فقال قائلٌ من الأنصارِ: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ(١) وعُذيقُها المُرَجَّبُ(٢)، منا أميرٌ ومنكم أميرٌ يا معشرَ قريشٍ.

قال: فكثُر اللَّغطُ، وارتفعتِ الأصواتُ، حتى تخوفتُ الاختلافَ، فقلت: ابسُط يدك يا أبا بكرٍ، فبسط يدَه، فبايعتُه، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعهُ الأنصارُ، ونَزونا على سعدِ بن عبادةَ(٣)، فقال قائلٌ منهم: قتَلتُم سعدَ بن عبادةَ.

قال: فقلت: قتل اللهُ سعدَ بن عُبادة.

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن أنسِ بن مالك قال: لما بُويعَ أبو بكر في السقيفةِ وكان الغدُ، جلسَ أبو بكرٍ على المِنبر، فقام عمرُ، فتكلم قبل أبي بكر، فحمِد اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: أيها الناسُ، إني كنت قلتُ لكم بالأمسِ مَقالةً ما كانت مما وجدتُها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهده إليَّ رسولُ الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسولَ الله ﷺ سيُدبِّر أمرَنا، يقول: يكون آخرَنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابَه الذي به هدى اللهُ رسولَه ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم اللهُ لما كان هداه

(١) جُذَيْلُها المُحَكَّكُ: الجذيل تصغير جذل والجذل هنا عود يكون في وسط مبرك الإبل تحتك به وتستريح إليه، فتضرب به العرب المثل للرجل يستشفى برأيه

(٢) عُذَيْقُها المُرَجَّبُ: عذيق تصغير عذق وهي النخلة بنفسها والمرجب الذي تبنى إلى جانبه دعامة ترفده لكثرة حمله ولعزه على أهله، وتضرب به العرب المثل في الرجل الشريف الذي يعظمه قومه.

(٣) نَزَوْنَا على سعد بن عبادة: أي وثبنا عليه.

له، وإن اللهَ قد جمعَ أمرَكم على خيرِكم، صاحبِ رسولِ الله ﷺ، ثانيَ اثنين إذ هُما في الغارِ، فقوموا فبايعوه، فبايعَ الناسُ أبا بكرٍ بيعةَ العامَّة، بعد بيعةِ السقيفةِ.

٨- جِهازُ رسولِ الله ﷺ ودفنُه

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما بُويع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أقبلَ الناسُ على جهاز رسولِ الله ﷺ يومَ الثلاثاءِ، فحدثني عبدُ الله بن أبي بكرٍ وحسينُ بن عبد الله وغيرُهما من أصحابنا: أن عليَّ بن أبي طالب، والعباسَ بن عبدِ المطلب، والفضلَ بن العباسِ، وقُثَمَ بن العباسِ، وأسامةَ بن زيدٍ، وشُقرانَ مولى رسولِ الله ﷺ، هم الذين وَلُوا غَسلَه، وأن أوسَ بن خَوليٍّ أحدَ بني عوفِ بن الخزرجِ، قال لعليِّ بن أبي طالب: أنشُدك اللهَ يا عليُّ وحظَّنا من رسولِ الله ﷺ، وكان أوسٌ من أصحاب رسولِ الله ﷺ وأهلِ بدرٍ.

قال: ادخل، فدخل فجلسَ، وحضرَ غسلَ رسولِ الله ﷺ، فأسنده عليُّ بن أبي طالبٍ إلى صدره، وكان العباسُ والفضلُ وقُثمُ يقلِّبونه معه، وكان أسامةُ بن زيد وشُقران مولاه، هما اللذان يصبان الماءَ عليه، وعليُّ يُغسِّله، قد أسنده إلى صدرِه، وعليه قميصُه يُدلِّكُه به من ورائه، لا يُفضي بيدِه إلى رسولِ الله ﷺ، وعليٌّ يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبَك حيًّا وميتًا! ولم يُر من رسولِ الله ﷺ شيءٌ مما يُرى من الميِّت.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فلما فُرِغَ من غسلِ رسولِ الله ﷺ كُفِّن في ثلاثةِ أثوابٍ: ثوبين صُحاريَّين[1] وبُردِ حِبَرةٍ، أُدرجَ فيها إدراجًا.

---

(١) صُحَاريَّين: نسبة إلى «صحار»، وهي مدينة من اليمن

قالَ ابنُ إسحاقَ: عن ابن عباسٍ قال: لما أرادوا أن يَحفروا لرسولِ الله ﷺ، وكان أبو عبيدةَ بن الجراح يَضرَحُ[(١)] كحفر أهلِ مكّةَ، وكان أبو طلحة زيدُ بن سهلٍ هو الذي يحفِر لأهلِ المدينة، فكان يَلحَدُ، فدعا العباسُ رجلين، فقال لأحدِهما: اذهب إلى أبي عبيدةَ بن الجراح، وللآخرِ: اذهبْ إلى أبي طلحةَ، اللهم خِرْ لرسولِ الله ﷺ، فوجد صاحبُ أبي طلحة أبا طلحةَ، فجاء به، فلحَدَ لرسولِ الله ﷺ.

فلما فُرِغَ من جهازِ رسولِ الله ﷺ يومَ الثلاثاءِ، وُضعَ على سريرِه في بيتِه وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنِه، فقال قائلٌ: ندفنه في مسجدِه وقال قائلٌ: بل ندفنه مع أصحابِه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما قُبض نبيٌّ إلا دُفن حيث يُقبض**» فرُفع فراشُ رسولِ الله ﷺ الذي تُوفِّي عليه، فحُفر له تحتَه.

ثم دخل الناسُ على رسول الله ﷺ يُصلُّون عليه أرسالًا، دخل الرجالُ، حتى إذا فرغوا أُدخل النساءُ، حتى إذا فرغ النساءُ أُدخل الصبيانُ.

ولم يؤم الناسَ على رسولِ الله ﷺ أحَدٌ.

ثم دُفن رسولُ الله ﷺ من وسَطِ الليلِ ليلةَ الأربعاء.

وكان الذين نزلوا في قبرِ رسولِ الله ﷺ عليُّ بن أبي طالب، والفضلُ بن عباسٍ، وقُثمُ بن عباس، وشُقران مولى رسولِ الله ﷺ.

وقد قال أوسُ بن خَوليٍّ لعليِّ بن أبي طالب: يا عليُّ، أنشُدك اللهَ، وحظَّنا من رسولِ الله ﷺ، فقال له: انزِلْ، فنزلَ مع القومِ.

---

(١) يَضْرَحُ: من الضريح، وهو الشق في وسط القبر، واللَّحْد: الشق في الجانب.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولما تُوفِّي رسولُ الله ﷺ عظُمت به مصيبةُ المسلمين، فكانت عائشةُ -فيما بلغني- تقول: لما تُوفِّي رسولُ الله ﷺ ارتدَّت العربُ، واشرأبَّتِ اليهودية والنصرانية، ونَجَمَ النفاقُ، وصارَ المسلمون كالغَنم المَطيرةِ في الليلة الشاتيةِ، لفقْد نبيِّهم ﷺ، حتى جمعهم اللهُ على أبي بكرٍ.

٩- شعرُ حسَّانَ بن ثابتٍ في مَرثيَّته الرسولَ

وقال حسَّانُ بن ثابتٍ يَبكي رسولَ الله ﷺ، فيما حدَّثنا ابنُ هشام، عن أبي زيدٍ الأنصاريِّ:

بطيبــةَ رســمٌ للرســولِ ومَعهــدُ ** مُنيرٌ وقـد تَعفـو الرسـومُ وتهمـدُ
ولا تَمتحي الآياتُ من دارِ حُرمـةٍ ** بها منبرُ الهادي الذي كـان يَصـعَدُ
وواضــحُ آثــارٍ وبــاقي مَعــالِمٍ ** ورَبْــعٌ لــه فيــه مُصــلًّى ومَســجدُ
بها حُجُراتٌ كـان يَنـزلُ وَسْـطَها ** مــن الله نــورٌ يُستضــاءُ ويُوقــدُ
مَعارفُ لم تُطمسْ على العهدِ آيُها ** أتاهــا الــبِلى فــالآيُ منهــا تَجــدَّدُ
عرَفتُ بها رَسمَ الرسـولِ وعهـدَه ** وقَبرًا بهـا واراه في الـتُّرْبِ مُلحِـدُ
ظَلِلْتُ بها أبكي الرسولَ فأَسعَدتْ ** عُيونٌ ومِثلاها من الجَفـنِ تُسـعِدُ
يُــذَكِّرن آلاءَ الرســولِ ومــا أرى ** لهـا مُحصـيًا نفســي فنَفَســي تَبلَّـدُ
وبُــورِك لحــدٌ منــك ضُــمِّنَ طيِّبًــا ** عليــه بنــاءٌ مــن صَــفيح مُنضَّــدُ
تُهيــلُ عليــه الــتُّربَ أيــدٍ وأعــيُنٌ ** عليه وقـد غـارَت بـذلك أسـعَدُ
وراحوا بِحزنٍ ليس فـيهم نبـيُّهم ** وقد وهنَتْ منهمُ ظُهورٌ وأعْضُـدُ
وهل عـدلتْ يومًـا رزيَّـةُ هالـكٍ ** رزيَّــةَ يــوم مــات فيــه محمــدُ؟
تَقطَّـع فيـه مُنـزَلُ الـوحي عـنهمُ ** وقـد كـان ذا نُـورٍ يَغـورُ ويُنجِـدُ

يَدلُّ على الرحمن مَن يَقتدي به ** ويُنقذُ من هولِ الخَزايا ويُرشِدُ
إمامٌ لهم يَهديهمُ الحقَّ جاهدًا ** مُعلمُ صدقٍ إن يُطيعوه يَسعَدوا
عَفوٌّ عن الزلَّات يَقبلُ عُذرَهم ** وإن يُحسِنوا فالله بالخيرِ أجودُ
وإن نابَ أمرٌ لم يقوموا بِحَملِه ** فمِن عنده تَيسيرُ ما يَتشدَّدُ
فبَكِّي رسولَ الله يا عينُ عَبرةً ** ولا أعرفنَّك الدهرَ دمعُك يجمُدُ
وما لكِ لا تَبكين ذا النِّعمةِ التي ** على الناسِ منها سابغٌ يتغمَّدُ
فجُودي عليه بالدموع وأعْوِلي ** لفقدِ الذي لا مِثلُه الدهرَ يُوجَدُ
وما فَقَدَ الماضون مثلَ محمدٍ ** ولا مثلُه حتى القيامةِ يُفقَدُ
أعفَّ وأوفى ذمَّةً بعد ذمَّةٍ ** وأقربَ منه نائلًا لا يُنكَّدُ
وأبذَلَ منه للطَّريفِ وتالدٍ ** إذا ضنَّ مِعطاءٌ بما كان يُتلَدُ
وأكرمَ صِيتًا في البُيوتِ إذا انتمى ** وأكرم جِدًّا أبْطَحيًّا يُسوَّدُ
وأمنعَ ذِرواتٍ وأثبتَ في العُلا ** دعائمَ عِزٍّ شاهقاتٍ تُشيَّدُ
وأثبتَ فرعًا في الفُروع ومَنبتًا ** وعودًا غَذَاهُ المُزنُ فالعودُ أغْيَدُ
ربَّاه وليدًا فاستتمَّ تَمامُه ** على أكرمِ الخَيراتِ ربٌّ مُمجَّدُ
تناهتْ وَصاةُ المسلمين بِكفِّه ** فلا العلمُ مَحبوسٌ ولا الرأيُ يفنَدُ
أقولُ ولا يُلقى لقولي عائِبٌ ** من الناسِ إلا عازِبُ العقلِ مُبعَدُ
وليس هوايَ نازعًا عن ثَنائِه ** لعلِّي به في جنةِ الخُلدِ أخْلُدُ
مع المُصطفى أرجو بذاك جِوارَه ** وفي نَيلِ ذاك اليوم أسعَى وأجْهَدُ

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

مختصر السيرة النبوية

[القسم الأول: العهد المكي]

[أولا: قبل الرسالة والنبوة]

[ثانيا: إرهاصات النبوة]

[ثالثا: من البعثة إلى الهجرة]

[أ - الدعوة السرية]

[ب - الدعوة الجهرية]

[ج - بيعة العقبة وبدء الهجرة]

[القسم الثاني: العهد المدني]

[أولا: تأسيس الدولة]

[ثانيا: الغزوات والسرايا والبعوث]

[ثالثا: الحديبية وفتح مكة]